من الدراسات النقدية (٥)

نصوصٌ إسلاميةٌ وأمويةٌ

دراسةٌ تحليليةٌ ناقدةٌ

تأليف الدكتور
حســـام محمــد علــم
أستاذ ورئيس قسم الأدب والنقد المساعد
بجامعة الأزهر الشريف

الطبعة الأولى
١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

الكوثر للكمبيوتر
الزقازيق ش مولد النبى ت: ٠١٢٢٣٦٦٨٤٥٣



إهـــداء

إلى معشوقتي حارةِ صبرة[1]، واحةِ الزمنِ الجميلِ

البوابة .... أبو الميلا

[1] لعلها تكون (صابرةً) فتجئَ اسمَ فاعلٍ من الفعل (صَبَرَ)، وإما أن يكـون أصـلها (الصـبرة) الحجارة، أو ما اشتد وغلظَ فتكون مجازاً لتلك الصعوبة... راجع: اللسان مادة (صبر)

وبالنظر إلى المعنيين السابقين فإننى أرجحُ الأولَ لسببين:

الأول أن أهلها صبروا وتحملوا كثيراً؛ حتى تحققَ لكلٍّ ما صبت إليه النفس.

الآخر: هو أننى واحـدٌ مـن نسـيجِ هـذا المجتمعِ المتواضـع، وعليـه أشـهدُ بـأنهم بسـطاءُ ويتمتعون بحسن المخالطةِ والمعاشرةِ.

والمدققُ فى رسمِ الحارةِ البيوجرافى يلمسُ أنها قريبةُ الشـبهِ بنهـرِ النيـلِ حيـث تـنبع بدءاً من الجنوب فنجدُ النخبةَ من عمالقةِ الرياضيات أمثال: أ/ إبـراهيم الشـوبكى، أ/ أحمد عبد العزيز، أ/ السيد عبد الله أ ـ/إبراهيم عبد العزيز رحمه الله.

وتصاعدياً نجد العالمين أ.د/ سيد أحمد خليل و أ.د/ عامر عبد الحميد جمعة اللذين يحلقان فى سماوات الطبِّ، ومروراً نجد الجيولوجى الشاعر المجيد/ خالد محمد علم

وانتهاء يتوزع منها الفرعان الأول: (البوابة)وفيهأ.د / محمد حسينى الغزالى رئيس قسم العقيدة والفلسفة الإسلامية بجامعة الأزهر وعميـد المركـز الثقـافى لمحافظـة الشـرقية الآخر (أبو الميلا) وفيه أ.د/ على محمد حسن فرج أستاذ ورئيس قسم بطب الأزهر.

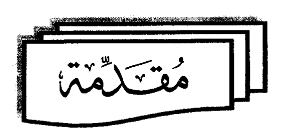
ونحن لا نبالغ إذا قلنا: إن هذين الفرعين يشبهان فرعي رشيد ودمياط مـن نهـر النيل حيثُ غمرا بلدةَ غزالةَ بفيضِ معارفهما وثقافتهما الدينية.

هذا ولا يفوتنى القولُ بأن تلك الكوكبةَ مـن علمـاءِ الأزهـرِ هـم الـذين حققـوا المراكز الأولى على مستوى الجمهورية فى الثانوية الأزهرية. فكانوا ـ ولا يزالون ـ مصـابيح هداية ينيرون ليلَ الحائرين من طلابِ العلمِ.

أطال الله فى عمرهـم وملأ بالصالحات أعمالهـم.

حارة صبره





مُقَدِّمَة

الحمدُ لله، الرحيمُ الرحمانُ، خلق الإنسانَ، علمه البيانَ، وميَّزَهُ عن سائر المخلوقاتِ بالعقلِ واللسانِ، وأضاءَ أبصاره وبصائرَه بنورِ القرآن....

أحمدُهُ سبحانه، جلّتْ حكمتُهُ، وعظُمَتْ قدرتُهُ، لهُ في كلِّ مجالٍ آيةُ، وفي كلِّ خلقٍ حكمةٌ، تشهدُ بعظمتِه الباهرةِ ، وقدرتِه القاهرةِ...

والصلاةُ والسلامُ على من لا نبيَّ بعدَهُ... إمامُ المتقينُ ، وأبلغُ المتكلمين، وأفصحُ الناطقين، الذي شرَّفَهُ ربُّنا بالقرآنِ الكريمِ ...

مهما يكنْ من أمرٍ بعدُ فإنني حينما شرعتُ أدرسُ النَّصَّ الأدبيَّ- الإسلاميّ والأمويّ -وجدتني مدفوعاً بينَ إقدامٍ يغري، وإحجامٍ يثني......

فما يغريني هو أنَّ مثل هذهِ الدراساتِ تقومُ على دراسةِ النصِّ؛ لتحديدِ خواصهِ المعرفيةِ، واكتشافِ خارطته الجماليةِ والإيقاعيةِ والتقنيةِ ذات الصياغاتِ والدلالاتِ مقترنةً ببعضِ الملاحظاتِ اللغويةِ والبيانيةِ... وكلُّ هذا يمثلُ النقدَ الموضوعيَّ الذى ينأى بالنصِّ عن مزالقِ الخواطرِ الشخصية، وبراثنِ التهويماتِ الذاتيةِ -التي من شأنها أن تبعدَ مفهومَ النصِّ عن جادةِ الصواب...

وما يثنيينى: هو الإطارُ المنهجيُّ ذو المواضعاتِ الجامدةِ، والمرجعياتِ البائدةِ، ذاك الذي يطوقُ الدراسةَ، فلا نستطيعُ أن نفكَّها من غلِّها....!!

وما زالت على حالي حتى حسمتُ التـرددَ، وجعلتنـي أقـدمُ علـى الدراسةِ، وقد أعددتْ لها عُدَّتها؛ فجعلتُها موزعةً علـى فصـلينِ- بحكـمِ الطبيعة النوعية للنصوص- حيثُ جاءت كالتالي:

الأول: (النصّ الشّعريّ الإسلاميّ والأموي) وفيه اختارت الدراسةُ أربع قصـائدَ، - وقد جاءت فى أربعةِ مباحثَ اثنان إسلاميان، وآخران أمويان:

فأما الإسلاميان فكان الأول عن "الحنيفيـة في لاميـةِ لبيـدٍ المكسـورةِ، دراسة موضـوعية" وفيها أكدت الدراسةُ على أن تلك اللاميةَ جاءت حافلةً بكلِّ معاني الحنيفيةِ -بما لا يدعُ مجالاً للشكِّ -فى سلامة عقيدته، وجمالِ شاعريته فى هذا الصددِ.

أما الآخر فكانت عن "أبعاد التجربة الفنية فى عينية حسان بن ثابت" حيـثُ عرضت الدراسةُ حديثاً مفصلاً عن الأبعادِ الثلاثةِ: الفكريـةِ والاجتماعيـةِ والفنيةِ.... كلٌّ على حدةٍ، وقد خرجت الدراسةُ بأن تلك الأبعادَ شكّلت مجالاً مغناطيسياً يجذبُ كلَّ من يقتربُ من النصِّ؛ داعياً إياه للكشف عـن كنـوزِ معانيه، وقيمه المجبوءةِ تحتَ وهجِ ألفاظه، مستثمراً كلَّ طاقاته المعرفيـةِ فى سبيلِ الوصولِ. إلى رموزهِ الكثيفةِ.

وأما عن الأمويين فقد جاء المبحثُ الأول عن "التيار الوجـدانى فـى بائيـة الكميت المضمومة" حيثُ أثبتت الدراسةُ أن تلك القصيدةَ قاطرةٌ مـن حـاملاتِ المشاعرِ الإنسانية التى رفدتها عاطفةٌ صادقةٌ وقويةٌ وثابتةٌ ومسـتمرةٌ، إذ حلقت بها فى أبهاء آل البيت، فمنحتها سمةَ الخلودِ والبقاءِ...

أما الآخر فكان عنوانه "قطرات غزلية من بحورِ عشقِ جميلِ العذرية" وفيـه قدمت الدراسةُ حديثاً للعذريةِ نشأةً وخصائصَ، هذا بالإضافة إلـى الـرؤى الفكريةِ والاجتماعيةِ والفنيةِ تلك التى اكتنزها نص (يا بثين) بين جوانحـه

مستعينةً بالمنهجين التحليليِّ والنفسيِّ وقد تآلفا معاً فى سبيلِ إخراجِ اللآلى من أصدافها.

والفصل الثاني الذى جاء عنوانه النصُّ النثـريُّ الإسـلاميُّ والأمـويُّ، تناول نصين، وقد جاءا فى مبحثين:

الأول إسلامى عن "من رسالة عمرَ بنِ الخطابِ لأبـى موسـى الأشـعري" حيـث قـدمت دراسة تحليلةً ناقدةً عرضت -من خلالهـا- حـديثاً مفصـلاً عـن الخطاباتِ الأدبيةِ والإعلاميةِ والقانونيةِ بكلِّ سـياقاتها ومسـاراتها وأبعادها تلك التى قدمتها الرسالةُ.

الأخر أموى عن "رسالة عبد الحميد الكاتب إلى الكتاب" دراسة موضوعية وفنيـة حيثُ تحدثت الدراسةُ عن المحاورِ الفكريةِ والأخلاقيةِ والفنية تلـك التى تضمنتها الرسالةُ.

وبالنظرِ فى المنهجِ المتتبعِ فى الدراسات السابقةِ فنراه توزعَ علـى ثلاثةِ محاورَ:

الأول: قدم بطاقةً معرفيةً لصاحب كلِّ نصٍّ، إذ لجأت إليه إدراكاً منى بأنـه يسهم كثيراً فى إيضاحِ الكثيرِ من الرؤى والأبعادِ التى تضئُ نتوءات النص فتساعدُ على فهمه.

الثانى: شَرَحَ النص شرحاً وافياً محققاً إياه، حيث ذكر الروايات التى جاءت فى البيت، وقد قابلتها ببعضها، وأشرتُ إلى الخلاف ومصدره حتى يستوعبَ الدارسُ والباحثُ الكيفيةَ التى يتمُ بمقتضاها تحقيق النص الأدبى؛ كمحاولةٍ منا بأن يكونَ أقربَ للصورةِ – التى تركها عليه مبدعه.

الثالث: درسَ النصوصَ دراسةً تحليليةً حيثُ سلطَ عليها عدةَ مناظيرَ ولاجةٍ لسببين:

الأول: أنه من الصعوبة -بمكان- محاصرتها بمنهج واحدٍ، وذلك لوعـورة مسالكها وغيبةِ أصحابها فوارسِ الكلمِ.

الآخر: أن هذه النصوصَ صامتةٌ صمتَ التماثيل، ولابدَّ من استنطاقها بعـدة تحاليلَ كاشفةٍ وموجهةٍ؛ لذا استدعيتُ المناهجَ على مائدةِ البحـث لاسيما التحليلى والنفسى، لتحقيقِ التفاعلاتِ الذهنيةِ والنفسـيةِ؛ فتفكَّ يدَ الدراسةَ من غلِّها، وتبسطها كلَّ البسطِ تجاه القارئ....

واللهَ نسألُ أن ينفعَ -بهذه الدراسةِ- طلابَ العلمِ؛ وقاصديه..

إنه سبحانه وتعالى من وراءِ القصدِ

وهو نعم المولى ونعم النصير..

والله الموفق

الدكتور حسام محمد علم

غزالة الزقازيق

صباح الخميس الموافق غرة ربيع الأول

لسنة ١٤٢٧هـ

الفصلُ الأولُ

النّصُ الشعريُّ الإسلاميُّ والأمويُّ



المبحث الأول

الحنيفيةُ

في

لاميةِ لبيدٍ المكسورةِ

(دراسة موضوعية)



حياته وشعره:

أولاً: حياته:

اسمه: هو لبيد[١] بن ربيعة بن مالك[٢] بن جعفر بن كلاب بن ربيعةَ[٣] بن عامر بن صعصعة[٤] بن معاويةَ بن بكر بن هوازن بن منصور

---

(١) لبيد هنا مشتق من قولهم: "لَبِدَ" بالمكانِ، أي أقام به.. راجع: الاشتقاق لابن دريد ج١ صـ٣٨. أما عن معناها فهي تُطلق على الجُوالِق الضخم، وقيل: اللبيدُ الجُوالِق الصغير، وألبدت القربةَ أي صيَّرتها في لبيدٍ: أي في جوالَق بكسر اللام وفتحها- وهو وعاءٌ من الأوعيةِ معروفٌ معربٌ فارسيٌ.

(٢) لقد جاء -في الاستيعاب وقد تبعه أُسْد الغابة، والإصابة، والخزانة- أن ربيعةَ بن عامر بن مالك سُمِّي ربيعُ المقترين لجوده وسخائه، حيثُ قتلته بنو أسد -يوم ذي علق ذاك الجبلِ المعروفِ- والذى قتله مُنْقِذ بن طريف الأسدىِّ، وقيل قتله الصامت ابن الأفقم بن الحارث بن نُكْرةَ من بني الصَّيداء بن عمرو بن قُعَين بن الحارث بن ثعلبة بن دُودَان حيث ضربه خالد بن نضلة، وتمم عليه، هذا وأدرك بثأره عامر بن مالك بن جعفر بن اخوة.. راجع: جمهرة أنساب العرب لابن حزم طـ٥ دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٢م.

(٣) بعض المصادر تنسبُ ربيعة إلى عامرٍ، وهذا خطأ- في اعتقادي-؛ لأن ربيعة وعامر هما ابنان لمالك بن جعفر.. راجع: جمهرةَ أنساب العرب لابن حزم صـ٢٨٥. ولعل ما يؤكدُ ما سبق قوله فى المنافرة بين عامر وعلقمة.

إني امرؤٌ من مالكِ بن جعفر ... عَلْقَمَ قد نافَرْتَ غيرَ مُنْفَرِ
نافرْتَ سَقْباً من سِقاب العرْعرِ

(٤) جاءت على عدة معانٍ نذكر منها الحركة والاضطراب والتفريق، وقيل: هو نبتٌ يُشربُ ماؤه فيستمشى به.. راجع: اللسان مادة "صعصع"

ابن عكرمةَ بن خصفةَ بن قيسِ بن عيلانَ حيثُ لقِّب بالعـامري[1]، وكنـي بأبى عقيل[2].

أمُّه تامر بنت زنباع[3] بن عبسٍ، تزوجها -أولاً- قيسُ بنُ جزءِ بن خالد بن جعفر، فولدت له أربد، ثم خلفه عليها ربيعةُ فولدت لَبيداً.

نسـبه: ينتسب لبيدُ إلى قبيلةِ عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكـر بـن هوازنَ بن منصور ابن عكرمة بن حصفة بن قيس عيلانَ بن مضر بنجد، وهم قبيلةٌ ذاتُ مجدٍ وشرفٍ، من قبائل عدنان" فيهم البيـتُ والعددُ حيثُ لعبت دوراً بارزاً على مســرحِ الحيــاةِ العربيــةِ فــي الجاهلية والإسلام.

هذا ولقد أدرك لبيدُ مكانةَ قومه، فراحَ يفتخرُ بهم في أرجوزةٍ لــه بقوله: "نحنُ أمُ البنيين الأربعة[4]"

---

(١) ربما كان هذا نسبةً إلى -قبيلته الصغرى- عامر بن صعصعةَ.

(٢) لعله نسبة إلى ابنه وقد غفلت عنه المصادرُ؛ ولربما لامتلاكه ناصية الشعر بجانب اعتباره واحداً من فرسان الجاهلية، إذ تمكن من قتل المنذر بـن مـاء السـماء بخدعة.

(٣) زنباع أحد أبناء جذيمةَ بن رواحةَ، وكان له من الأبناء زهير وأسيد وحذيم وقيس راجع: جمهرة أنساب العرب لابن حزم صـ٢٥١.

(٤) راجع: شرح المعلقات السبع الطوال صـ٥٠٧ حيث إنه ذكر خمسة والعدد الـذى قاله "أم أربعة"؛ ربما لم تمكنه القافية أن يجعلهم خمسة، فجعلهم أربعةً. هـذا =

وأم البنيين هذه -ليلى بن عمر بن عامرٍ فارس الضحيأ، تزوجها مالكُ بن جعفرٍ، فولدت خمسةً من الأبناء، لا أربعةً، وهم: عامر بن مالك ملاعب الأسنة[1]، وطفيلاً فارس قُرزُل، وربيعة -أبا لبيد- ربيع المقترين، ومعاويةَ معوِّد الحكماء، وعُبَيْدَةَ الوضَّاح، وهو صَدْقَ برٌ[2].

طبقته:

لقد عدَّه ابنُ سلامٍ من الطبقةِ الثالثةِ، مع نابغة جعدة، وأبو ذؤيب الهُذلي، والشماخ بن ضُرار حيثُ كان فارساً شاعراً من شعراءِ الجاهليةِ المعدودين فيها، والمخضرمين، كما كان من أشرافِ الشعراءِ المجيدين والفرسانِ والمعمرين، حيث أُشتهر بعذوبةِ منطقهِ، ورقةِ حواشي كلامه، وكان مسلماً رجل صدقٍ[3].

= ويعلل ابن عصفور ما سبق بقوله: "إنما قال ذلك؛ لأن أباه كان قد مات وبقي أعمامه، وهم أربعة"، ومن الأبيات التي افتخر بها نذكرُ قوله:

ياربَّ هَيْجا هي خيرٌ من دَعَة	أكلَّ يومٍ هامتي مُقزَّعَة
لا تمنعُ الفتيانَ من حسن الرِّعة	نحنُ بنى أمّ البنينِ الأربعة

(١) سمّي بذلك لقول أوس بن حجر فيه.

ملاعبُ أطرافِ الأسنةِ عامرُ	فراح له حظ الكتيبةِ أجمعُ

(٢) راجع: شرح المعلقات السبع صـ٥٠٧.

(٣) انظر: طبقات فحول الشعراء س١ صـ١٣٤ قراءة وشرح محمود محمد شاكر دار المدنى بجدة.

وانظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة صـ٢٧٤.

وانظر: الأغانى ح١٦ صـ٥٧١٩ طبقة دار الشعب.

حياته:

ولد لبيد حوالى سنة ٥٦٠م[1] فى بيتٍ من بيوتات بني جعفر؛ وهم بطنٌ من أفخاذ بني كِلاب حيثُ توفى والده وهو صغيرٌ، فكفلــه أعمامُــه، وأكرموا مثواه؛ حتى يظلَّ يمدحهم، ويذكر إكرامهم، أما عن صباه فلم تقدم المصادرُ شيئاً ذا غناء، إذ يكشفُ عن أحواله سوى أن والده توفي وهــو فى سنٍّ لا تقلُّ عن تسعِ سنواتٍ، حيثُ كان يعرفــه عــن طريــق حــديث الذكريات التي كان يقصُّها عليه أعمامُه الذين كفلوه، وأكرموا مثواه.

لقد بدأت مشاركاته الفعليةُ لقومه بني جعفر- فى الارتحــالِ عــن ديارهم قاصدين أرضَ نجرانَ؛ لأن جواب بن عوف زعيمَ بنى أبى بكــر بــن كلاب حكمَ عليهم بالنفي، وهنا يخلدُ لبيدُ بشعره هذا الموقف قائلاً:

ويَوْمَ مَنَعْتُ الحَيَّ أن يفرَّقُــوا بنجرانَ، فَقْرِى ذلك اليومَ فاقِرُ

وله بيتُ يسخر به من "جواب" ذاك شيخ بنى بكر... قال فيه[2].

(١) لقد اعتمد المؤرخون فى ذلك على يوم جبلة الذي دار بــين قبيلــة بنــى عــامر والأحلاف ضدهم، والواضح أنه لم يشاركْ فيه؛ ربما لحداثة لسنة...!!

هذا ولقد جاء فى ديوانه أنه ولد حوالي ٥٤٥م؛ لكنني ذكــرت مــا جــاء بــه بروكلمان فى -هذا الصدد- وهو أنه ولد سنة ٥٦٠م، فلعله يصبحُ قولاً مقبــولاً يتناسب مع معمرٍ من محضرمي الجاهلية والإسلام..

راجع: تاريخ الأدب العربي طـ٥ح١ صـ١٤٥. دار المعارف سنة ١٩٨٣.

(٢) راجع: شرح المعلقات السبع ص٥٠٨.

أبنى كلابٍ كيف تُنْفَى جَعْفَــرٌ وبنو ضُبَيْنَةَ حاضرُو الأحبــابِ

حيثُ كان زعيم الجعفريين -فى أيام المنفى- عمُّ لبيد أبــو بــراء عامرُ بن مالك ملاعبُ الأسنة، وقد رفضَ مصاهرة بنى الحارث بن كعــب، كما نصحهم بالعودةِ إلى أوطانهمِ، ومصالحةِ أقربائهم، فعادوا ونزلوا على حكم جواب.....

ولأن لبيد كان يتمتعُ بقدرٍ عالٍ من الحكمة والحنكة؛ معاً فلقد اتصلَ ببعضِ الأمراءِ اليمنيين والأحباشِ فى أرضِ نجرانِ، ونجحَ فى إقناع أحدهم برد الإبلِ إلى صاحبها، بل زوده بكتابٍ منه إلى مغتصبيها؛ كما قــدم لــه غلمانَ من الأحباشِ الشاكي السلاح؛ لتحقيق طلبه، هنا هدأت نفــس لبيــدِ نحوَ جـواب ولم يشأ- وهو ابن القبيلة- أن يخرجَ على روحِ الصلحِ؛ حفاظاً على إرساءِ وإفشاءِ علائق الود؛ لذا قال -حيثُ كان المتحــدثَ الرســميَّ باسم قبيلته-:

فأبلِْغْ بنى بكْــرٍ إذا مــا لَقِيْــتَهُمْ على خيرِ ما يُلْقَى به من تَزَغَّمَا

أبونا أبــوكُم والأواصــرُ بيننَــا قريبٌ ولم نأْمُرْ منيعــاً ليَأْثَمَــاَ

فإن تقبلُوا المعروفَ نصبرْ لحَقِّكُمْ ولن يَعْدَمَ المعروفُ خُفَّاً وَمَنْسِمَا

على كلٍّ فلقد أهَّلَهُ الموقفُ السابقُ -بعد أن ذاعَ صــيته، وطــارت شهرته محلقةً فى آفاقِ السيادةِ والشرفِ فى بهو الملوك والأمراء- بــأن يترددَ على النعمانِ بن المنذر الذي رفعَهُ إليه، وقد قربه من نفسه، وكانت المعرفةُ عندما أرسلَ أهلُه وفداً للتسليم على النعمان، وتهنئته بالملكِ -وقد

كان لبيدُ من بينهم- فلما دخلوا عليه وجدوا عنده الربيع بن زياد العبسي، وأمّه فاطمة بنت الخرشب حيثُ حاولَ منعَ الملكَ من الاحتفاء بهــم، وقــد طَعَنَ فيهم معدداً معايبهم، ولم يزل هكذا حتى صدَّه النعمـــانُ، هــذا ولــم يستطع لبيد أن يقف مكتوف الأيدي على الرغم من صــعوبةَ أو حساســية الموقف؛ لأن الظروف قد وضعته فى اختيار صعبٍ بين أبناء العمومة بنى جعفر وأبناء الخؤولة بنى عبس وكان لوقوفه -بجانب أعمامه- أثرٌ سيئ على نفسه حيث ازدراه الربيع؛ لكنه لم يبالِ بما حدث بل رأينـــاه يفتخــر بفوقه، وفي هذا دليلٌ على عصبيته القبلية.

هذا ولقد أعجب النعمان بشعر لبيد، وكان من أسباب هذا الإعجابِ أن قضى حوائجَ الجعفريين منذ هذا الحادث، وقد مضى الربيع إلى منزلــه حيثُ وقعت الشُّقَةُ بينهما(١) ومن الأبيات(٢) التى جاءت فى الصدد قوله

وكثيـــرةٍ غرباؤهَـــا مجهولـــةٍ	تُرجَى نوافلُها ويُخشَـــى ذامهَـــا
أنكرتُ باطلَهـــا وبـــؤتُ بحقِّهـــا	عندى ولمْ يفخرْ عليَّ كرامُهَـــا

فالناظر المتعمقُ -فيما سبق- يلمسُ غلبةَ النزعةِ الإنسانيةِ لا سيما الأخلاقيةُ على تصرفاتِ الشاعر الذى يجنبُ الحنكة السياســةَ والمصــلحةَ الشخصيةَ كثيراً عن طريقه، خصوصاً ما يصطدمِ منها مع المصلحة العامة هذا من جانبٍ.

---

(١) راجع: الأغانى ح١٦ صـــ ٥٧٢١ ، ٥٧٢٣.

(٢) راجع: ديوانه صـــ ٨، ٩. دار صادر بيروت.

على الجانبِ الآخر- فإنه بتقديمه العمومةَ على الخؤلـــة- يجعلنـــا نعتقدُ بأنه يحافظُ على قيمِ العروبةِ بكل تقاليدها وأعرافها، وقيمها ومثلها، وكل ما ورثته القبيلة عن أجدادها هذا أولاً.

ثانياً: كان يتمتعُ بتجردٍ وموضوعيةٍ حيثُ يبدو هذا واضحاً من خلال موقفه مع جواب، والربيــع، وكل هذا ساعدَ على تشكيل شخصيته الاستقلالية بكل أبعادها الواقعيةِ، وأطيافها الجماليةِ تلــك التــي منحتــه ســمةَ التفرديةِ والتميزيةِ.

ثالثاً: إن مثل هذهِ المقاماتِ استطاعت أن تخلِّقَ -فى داخلــه- شخصــيةً مركبةً من مزيجٍ متكافئٍ من القيم والأعراف أو المبادئ مضافاً إليها غيرةٌ وقد رفدت هذا المزيج المتشرب بالثقــةِ والاعتــدادِ بــالنفْسِ تجاربُ واسعةٌ كفلت له تقدير القبيلة.

من صفاته الخُلُقية:

لقد كان لبيدُ جواداً شريفاً في الجاهلية والإسلام، وقــد آلــى فــى الجاهلية أن يطعمَ ماهبت الصبا- وتلك عادة كريمةٌ، قد تعود عليهــا منــذ الجاهلية، ثم استمرت فى إسلامه- حيثُ كانت له جفنتــان يغــدو بهمــا، ويروح فى كل يوم على مسجد قومه فيطعمهم فهبت الصبا يوماً والوليــد من عقبة على الكوفة أميراً، فبينا هو يخطبُ فى الناسِ إذ هبت الصــبابينَ ناحية المشرقِ إلى الشمالِ فقال الوليد في خطبته على المنبر: قــد علمــتم حال أخيكم أبى عقيل، وما جعل على نفسه أن يطعمَ ما هبت الصبا، وقــد

هبت ريحَها فأعينوه، وهذا يومٌ من أيامه، وأنا أولُ من يفعلُ، ثم نزل عــن المنبرِ، وانصرف فبعث إليه بمائة من الجزر واعتذر إليه فقال:

أرى الجَــزّارَ يَشْــحَذُ شَــفْرَتَيْه إذا هبَّــتْ ريــاحُ أبــى عَقيــلِ

أَشَــمُّ الأنْــفِ أَصْــيَدُ عــامريٌّ طويلُ الباعِ كالسَّــيْفِ الصَّــقِيْلِ

وفَى ابــنُ الجعفــريِّ بحِلْفَتَيْــه على العــلاّتِ والمــالِ القَليــلِ

بِنَحْرِ الكُومِ إذا سَــحَبَتْ عليْــه ذُيولَ صَبَاً تُجَــاوِبُ بالأصــيلِ(١)

فلما وصلت الهدية إلى لبيد قال له الرسولُ: هذه هدية ابن وهــب، فشكره لبيد وقال إنى تركت الشعرَ منذُ قرأتُ القرآنَ. وطلبت من ابنتــه أن تكتب إلى أميرِ الكوفهِ رداً على مكرمته قائلاً لها:

أجيبه وقد رأيتنى وما أعيا جوابُ شاعرٍ.

وكانت الابنة عند حسنِ ظنِّ أبيها، فردت على الأميرِ بهذهِ الأبيات:

إذا هَبَّــتْ ريــاحُ أبــي عقيــلِ دَعَونْــا عنــدَ هَبَّتِهَــا الوليْــدا

أَشَــمَّ الأنْــفِ أَصْــيَدَ عَبْشَــمياً أعــانَ علــى مُرُوءَتِــه لَبِيْــدَا

بأمثــالِ الهضــابِ كــأنَّ رَكْبــاً عليها مــن بنــي حــامٍ قُعُــودا

---

(١) الكوم: جمع أكوم، وهو البعير الضخم، ذو السنام الكبير. وتجــاوب بالأصــيل: أى تهب وتتردد عند الغروب. والبيت كله إشارة إلى كرم "لبيد" وسخائه الزائد عــن الحدّ، إذ تخفت ريح الصبا، ويخف هبوبها عند غروب الشمس.. وبينمــا الليــل يتأهبُ ليشملَ الكونَ بظلامه: نجد "لبيداً" وهو لم يفرغ بعدُ مــن نحــر ذبائحــه؛ لكثرة عددها وعظم حجمها!

أبـــا وهـــبٍ جـــزاكَ الله خُيـــراً   نحرْناهـــا وأطعمْنـــا الثَّرِيْـــدا
فَعُـــدْ إن الكـــريمَ لـــه مَعَـــادٌ   وظَنِّى يا بـــنَ أروى أن تعـــوْدا

هذا ولقد استحسن لبيد نظم ابنته وإن كان قد أخذ عليها شئ مـــن المبالغةِ فعبر عن ذلك قائلاً: أحسن لولا أنك استطعمتيه

فأجابته مبررة قولها: إنه ملكٌ وليسَ بسوقه، ولا بأسَ باســـتطعام الملوكِ.

وممعن النظر فى ذاك الإلف أو تلك العادة يستطيعُ أن يلمسَ عـــن كثبٍ- أن ما قدم عليه ليس بدافع منطقٍ سلوكيٍّ، إنما هي نمـــطٌ شخصـــي شكَّلَ أبعاده مزيجٌ متكافئٌ أو متعادلٌ من المعطى الاجتماعى القبلى، وتركيب الشخصية الشعرية الذي ينزعُ دائماً منزعاً إنسانياً مفعماً بالحسِّ الحـــار أو الشعورِ المسئولِ.

مشاركاته الحربية:

لقد جاء أن قبيلته كانت قد سارت إلى المعاركِ قبيل النعبةِ بعشرين عاماً تحت قيادةِ عامر بن الطفيل، وكان لبيد مشاركاً فيها حيث أبلى بـــلاءً حسناً في هذه المعاركِ وقد شاركَ فى انتصاراتها مسجلاً إياها مفتخراً بتلك الأيام، وببلاء بني عامر فيها.

أجـــل: لقد شارك -في شبابه- مع قبيلته في الغارات على أعدائها، وفى شيخوخته افتخرَ بما قدم لها من تأييدٍ بلسانه، وروعة بيانـــه، ولمـــا طارت شهرته، وذاع صيته بقى وفياً لقومه، وهذه نتيجة طبيعيةٌ لشاعرية

أعانت على تشكيلها قيمٌ ومعانٍ إنسانيةٌ، وقد تفردت متميـزة مـن بـين شعراء جزيرة العرب... فهذه الشاعريةُ هي التـي ازدرت مهنـة الشـعر المتجول بالمدح المتملق الطامع فى طلب الجوائز أو الهبات والعطايا وفـى الإسلام لم تصل إلينا أخبارٌ تعنى مشاركاته الفاعلـة أو تنفـى حضـورَها الفاعلَ على مسرح الفتوحاتِ الإسلامية.

وعلى كلٍّ فلقد كان واحداً من المعـدودين اللـذين اسـتطاعوا أن يصنعوا تاريخاً حافلاً بالصدق الواقعيِّ والفنيِّ، ومتشـياً بالأمانـة وغايـة الإجادة.

وفاتــه:

لما حضر لبيداً الموتُ، دخل بنو جعفر فقال: أبكوا حتـى أسـمعَ. فأرموا ساعةً فقال شابٌ منهم: قد قلت: قال: فأنشدنى: وقال: وكـان لبيـد حلف ليطمعنَّ كلما هبَّت الصبا!. فقال:

لبتكِ لبيداً كلُّ قدرٍ وجفنةٍ *** وتبكى الصبا من فاد وهو حميدُ

فقال: يا ابن أخي، أحسنت فزدنى فقال: ما عندى مزيد: فقال (مـا) أسرع ما أكديت، وقال لبيد في هذهِ الليلةِ الأبياتَ التى توفي فيها يوم قـدم الكوفة[1] ومنها:

---

(١) راجع: شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات "لأبى بكر بـن القاسـم الأنبـارى بتحقيق الشيخ عبد السلام محمد هارون. طـ٥ صـ ١١٥دار المعـارف بمصر سنة ١٩٦٣م.

أبُنَــيّ هــل أحْسَنْــتَ أعــــ	ــــماي بنـــى أمّ البنينـــا
وأبـــي الــــذي كــــانَ الأرا	ملُ فـى الشــتاءِ لــه قطينـا
الفتْيـــةَ البـــيضَ المصـــا	بــحَ أكملـــوا كرمـــاً ولينـــاً
لـــم تبـــقَ أنفسَـــهُمْ وكـــا	نـــوا زينــــةً للناظرينــــا

وكما كان مولدهُ مثارَ اختلافٍ فلقد جاء عمرهُ مجال اضطراب بـين مكثرين منحوه العمر الطويل فرأ وأنه مائة سبع وخمسين سـنة ومقللـين رأوا أنه مائةً وعشر سنواتٍ لكننى أميل- توسطاً- لما جاء به هشام بـن محمد الكلبى عندما قال أخبرنى رجل من بنى جعفر يقال له علقمـة أنـه "لبيداً" عاش مائةً وثلاثين سنةً[1]"

إسلامه:

لما أدرك لبيدُ الإسلام قدم على رسول الله صلى الله عليـه وسـلم، وذلك فى السنة الثامنة من الهجرة -في وفد بني كلاب بعـدَ وفـاةِ أخيـه أربد[2] وعامر بن الطفيل- حيثُ قيل: إن لبيد حمل رسالة إليه من عمـه؛ فأسلموا ورجعوا إلى بلادهم، بعد أن حسنَ إسلامُهم، فرجع بنوه إلى الباديةِ

---

(١) راجع: المصدر نفسه صـ١١٢.

(٢) راجع: تاريخ الأدب العربى العربى ح١ صـ ١١٤٥.

هذا ويقال: إنه لما ذهب إلى رسول الله كان مضمراً غدراً وكان معه عمرو بـن الطفيل؛ لكن أمرهما افتضح ولما حاول أربد الانسحاب أصابته صاعقة أحرقته.

بعد ذلك أقام لبيدُ فى المدينة إلى أن ماتَ بها، فدفن في صحراء بني جعفر ابن كلاب[1].

مهما يكنْ من أمرٍ فلقد أقبل على القرآن، ولم ينظم بعد إسلامه إلا قليلاً من الشعر حتى زعمَ بعضُ مؤرخى الأدبِ أنه لم ينظمْ من الشعرِ سوى بيتٍ واحدٍ وهو[2].

الحمدُ للهِ إذ لَمْ يأتِني أجَلِي   حتَّى لَبِسْتُ من الإسلامِ سرْبالا[3]

لكننا نرى أن لبيداً نظم شعراً إسلامياً دعا فيه إلى تقوى الله والزهد فى متاع الحياة والإقبالِ على العملِ الصالحِ، وقد عاش مدةً فى المدينة، ثم تحول إلى الكوفة فى خلافة عمر وكان عطاؤه من بيت المال ألفى درهم فى العام فإن كنا سنعولُ على ما وصلَ إلينا من تراثٍ فإننا سوف نقدمُ أحكاماً

---

(١) قيل إنه رجع إلى المدينة بعد عام، ثم نزل الكوفة أيام عمر بن الخطاب، ليلة نزول معاوية بالنخيلة؛ لمصالحةِ الحُسَين بن عليّ وهو ابن مائة سنة، فأقام بالكوفة ومات بها فى أواخر أيام معاوية..... راجع: الأغانى ج١٦ ص ٥٧٢٠ وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ج١ص١٤٥.

(٢) لقد ذكر المؤرخون بيتاً آخر وهو:

ما عاتَبَ المرءَ الكريمَ كنفسه   والمرءُ يُصلحهُ الجليسُ الصالحُ

هذا ويضيف ابن الأثير فى كتابه" أسد الغابة" بيتاً ثالثاً قاله فى الإسلام

(٣) جاء الشطر الثانى فى ديوانه برواية: حتى كسانى من الإسلام سر بالا

جزافية[1]طالما أننا نحكمُ على مجهولٍ إذ لم تكتملْ صورته لعدم وجوده بينَ أيدينا.

إن ما يؤكد حسن إسلامه هو ما قاله عمرُ بنُ الخطاب رضـــي اللهِ، عنه الذى كتب إلى المغيرة بن شعبة وهو على الكوفة: أن استنشـــدْ مـــن قبلك من شعراء قومك ما قالوا فى الإسلامِ، فأرسل إلى الأغلـــب العجلـــي فاستنشده قائلاً[2]:

---

(١) لقد ذهب الدكتور يحيى الجبوري فى كتابه "لبيد العامري" إلى القولِ بأن كلَّ شعرٍ– وردَ له عن الإيمان باللهِ، وتوحيده –ليسَ شعراً إسلامياً صرفاً، كما أن كلَّ شـــعرٍ له خلا من النفحاتِ الإسلاميةِ ليس شعراً جاهليًا على إطلاقـــه! هـــذا ولقـــد راحَ يتلمس وسيلةً لمعرفةِ القصائدِ الإسلاميةِ من الجاهلية حيث استراحت نفسه إلـــى ضرورةِ وجود منهج توثيق للقصائد حتى يتأكدَ من صحتها، وذلك بفحـــصِ كـــلِّ قصيدة ومعرفة تاريخها، وأسلوبها... على هذا التصور خرج لنا بأن هناك تسعَ عشرةَ قصيدةَ إسلامية غير القطعِ المنسوبةِ إليه، أو القصائدِ الجاهليةِ التي عـــادَ إليها ح الإسلام وزاد فيها أبياتاً إسلاميةً....

والناظر –بعين النقد– فيما سبق يرى أنها لا تعدو أن تكون أكثر من فرضـــية نسبية يجيئ الشكُّ سداها، والقصور لحمتها؛ لأن الحكمَ أو الفحصَ بربط الأحداث أو التواريخ بالقصيدة واستنطاقها أمرٌ شأنك طالما أن معرفة التاريخ أمرٌ متعذر، وغالباً ما يكون غير دقيقٍ وهذا يسوقنا إلى القول بأن الحكم على المجهول يجئ غيرَ مقبول..!!

(٢) جاء أم قريضاً ولعل المقصود منه هنا الشعر.

لَقَدْ سَـــأَلْتَ هينــاً موجـــوداً أرَجَـــزاً تريـــدُ أم قصـــيدا؟

ثم أرسل إلى لبيد فقال له: إن شئت ممـــا عفـــا الله عنـــه -يعنـــى الجاهلية- فعلت قال: لا، أنشدني ما قلت فى الإسلام فانطلق لبيـــد فكتـــب سورة البقرة فى صحيفة، وقال لقد أبدلنى الله -عز وجل بهذه فى الإسلام- مكان الشعر.

فكتب المغيرةُ بذلك إلى عمر، فنقصَ عمـــرُ مـــن عطـــاء الأغلـــب خمسمائة، وجعلها فى عطاء لبيد فكتب إلى عمر: يا أمير المؤمنين اتنقص عطائى إن أطعتك..!! فرد عليه خمسمائة، وأقر عطاء لبيـــد علـــى ألفـــين وخمسمائة ويستطرد قائلاً.

نحنُ الكرامَ فـــلا حـــيٌّ يعادلنـــا منا الملوكُ وفينا يقســـمُ الربـــعُ

ثم دخل الأغلب على عمر، فلما رآه قال: هيه أنت القائل:

لقد ســـألت هينـــاً موجـــوداً أرجـــزاً تريـــد أم قصـــيدا؟

فقال: يا أمير المؤمنين إنما أطعتك، فكتب عمر إلى المغيرة أن أردد عليه الخمس المائة، وأقر الخمس المائة للبيد[1].

فإن صحَّ ما أوردته كتبُ الأدب والأخبار فيما سبق ذكـــره فإنـــه يمكننا أن نستخلصَ العديدَ من القيمِ تلك التى تكشف عنها الروايةُ ومنها ما هو:

---

(١) راجع: كتابنا الأدب فى صدر الإسلام اتجاهاته وقضاياه وخصائصه صـــ٩٩.

أولاً: عقدي: ويتمثل في أن عقيدةَ الإسلام ما كانت لتغلغل وتتجذر وتترسخ إلا بوجود تربةٍ حنفيةٍ خصبةٍ تشربت روحَ الإسلام الحق، وراحــت تؤصل، وتكلل مساعيها الدؤوبة نحو معرفةِ الخالقِ فــي طواعيــةٍ وشفافية وقد انعكس هذا كلُّه على شاعريته التي ترجمت كــلَّ مــا سبق في عفويةٍ وتساوقيةٍ وتناغميةٍ ذات أطيافٍ وظلالٍ نفسيةٍ.

ثانياً: فنـي: ويتمثل فيما حصل عليه من شاعرية مجنحــة ذات التمامــة، ولمحة فنية، وإحساس عالٍ بالجمال وأفانين البيان جعله يستشــعرُ عظمةَ القرآنِ الكريمِ المنزل بلفظه ومعناه على محمد (ص) فكانت معجزته التى تحدى بها بلاغة الإنسِ والجنِ وقد جاء رصيناً فــي سبكه، سلساً في معانيه، جزلاً فى عباراته، عذباً متأنقاً في ألفاظه آخاذاً فى خيالاته.. لهذا فلقد أسرته طلاوته ومكامن روعته وشدة تأثيره وقوة إقناعه، وتأجج عاطفته، ومطلق إحساسه الأدبى.

ثالثاً نفسى: ويتمثلُ فى مركبه النفسي المتعادلِ حيثُ ينظمُ عقده حنكةٌ وثقةٌ واقتدارٌ وثقةٌ واعتدادٌ بالنفسِ، وتجردٌ وموضوعيةٌ وكل هذا جعلــه يصدرُ حكمه على شعره، ويضعه فى المترتبةِ التى يستحقها قياساً بالقرآن الكريم؛ ولأنه يعلم أنه لن يستطيع أن يجئَ بحــرفٍ واحــدٍ مثل القرآن الأمر الذى جعله يغضُّ الطرفَ عــن نظمــه منســحباً بهدوء إلى غير رجعةٍ من حلبة المنافسةِ، ويذهب لتــدبر معــانى

القرآن الكريم وحفظه، إن ذهبنا إلى الاعتقاد بأنه عزف عن قـول الشعر فى هذه الفترة، فإننى زعيم بأنه إذا صدقَ هجـرهُ للشـعر فلربما كان هذا للتدليل على صدق إسلامه، وعمق إيمانه؛ ولربمـا لأنه الشيخوخة تحول دون البقاء على استمرار عطـاء شـاعريته وشدة توهجها، إذ لم تفلحُ فى إعادةِ زمامِ الأمورِ؛ ليلتقط أو يسمع جزئيات أو أدق تفاصيلِ الشاعرية برنينها وجرسها، وإذا اعتبرنـا أنه استمر أو مضى ينظم الشعر وإن كنا لا نجد أدنى تعارض بـين الإسلام والشعر، طالما أن الشعر ينطلقُ من مبادى الدين الراسخة، ويكون منضبطاً ومحدداً بحدودِ الإسلامِ، وتعاليمهِ وآدابهِ السـمحةِ فى هذا الصددِ -فإن احتمال مضيه ينظم الشعر له ما يعضـد هـذا الاحتمال ويجدر بنا أن نجملها فى أمرين:

الأول: أن له قصيدة قالها فى الثناء على "سلمان بن ربيعة الباهلي "قاضى الكوفة وذلك من قتلِ عمرَ.

الثـانى: لقد جئ عنه أن نظم قصيدتين قبل وفاته.. أى أنه قالهما وذلك فى زمنٍ متأخرٍ من عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنـه وأرضـاه؛ ربما؛ لأن بينَ وفاةِ لبيد وبين عهد عمرَ بن الخطاب زمناً طـويلاً، هذا ولقد قال القصيدتين فى مناسبةِ وصيةٍ أوصى بها قبل وفاتـه وهو ما سنعرضه لاحقاً.

عوداً على بدء فلقد أُختُلِفَ في شعره الذي حمل الطابع الإسـلاميَّ فتحدث عن الخالقِ ربِّ السمواتِ والأرضِ، وخير الأعمـال التـي تقـرب الإنسانَ إلى الله -فقيل إنه: كانت لديه أفكارٌ نصرانيةٌ شأنه فى ذلك شـأن النابغة وزهير والأعشى، وذهب البعض إلى القول بأن النصرانية احتلـت مكاناً كبيراً فى عقيدة لبيد حتى كان لها نصيبٌ من التـأثيرِ الفاعـلِ فـى محصول الثقافة العقلية التى استرفده الشاعرُ مـن مخـزونٍ ولاجٍّ والتـى ترجمه شعره.

لكننا نرى أن مثل هذه الآراء مبالغ فيها مبالغةً ممقوتةً حتى إنهـا تصل إلى حد الشطط؛ لأنه من غير المعقول أن نحكم على شاعرٍ مجرد أنه قد تعرَّفَ على دينٍ من الأديانِ... ليس معناه اعتناقه لتلك الديانة، فضـلاً عن انسياق البعض وراء الأب لويس شيخو الذى راحَ يصنفُ أغلبَ شعراء الجاهلية فى النصرانية، وهذا وهمٌ كبيرٌ منه لا يرقى إلى العلمية الصحيحةِ.

على كلٍّ فلبيدُ واحدٌ من أبرز الشعراء المخضرمين الـذين أدركـوا الجاهلية والإسلام، حيثُ كانوا قبل ظهورِ النبي صلى الله عليه وسلم، وقد اشتغل بالمسائلِ الدينيةِ مما يؤكدُ إلمامه بالحنفيةِ العظمى، وتمثله بها فـى شعره.

ثانياً: شعره:

لقد اختلف الأدباءُ والشعراءُ قديماً فى تقديرِ ملكةِ لبيـد الشـعريةِ اختلافاً وصل إلى حدّ تفاوتِ وجهاتِ نظرهم -فى هذا الشأن- ولعـل فـى الاختلافِ هذا يصادقُ على روعةِ مكامنِ شعره الولاجةِ حيثُ إنها كانـت - ولم تزل- قادرةً على المناوشةِ المحاورةِ فى غيبةِ فارسها الأصيلِ، فضـلاً عما أباحت، أو أفضت إليه هذه الشعريةِ من تخليدِ وتمجيدِ لفكره الصـافى ومنطقه العذبِ وقد استقامت معه مبادئُ القصيدةِ الإسلاميةِ.

على كلٍّ فلقد رأينا الأصمعيَ راحَ يشبههُ بطليلسان طيرانى أى أنـه محكم الأصل ولا رونق له[1]. ويكشف أبو عمرو بن العـلاء عـن مـدى أعجابه بقيم لبيد التوحيدية فى شعره قائلاً: ما أحد أحبَّ إلى شعراً من لبيد ابن ربيعةَ لذكره الله عزَّ وجلَّ، ولإسلامه، ولذكره الدينَ والخيـرَ، ولكـن شعره رحى بَزْر[2]"

هذا ويمارس النابغةُ نقده فيتناول شعرَ لبيدِ قائلاً فيه: بعد أن سمع إحدى قصائده -وقد شهدُ له- بأنه أشعر العرب[3].

---

(١) راجع: الصناعتين للعسكرى: صـ١٢٨، والموشح للمرزبانى صـ٧١.

(٢) راجع: الموشح" للمرزبانى صـ٧١.

(٣) انظر: ديوان لبيد " صـ١٢.

ويسجلُ المعتصمُ مدى حبِّه لشعرِ لبيدٍ وإعجابــه بحســن ألفاظــه، وصحة إنشاده، وجودة اختياره عندما جلسَ يوماً للشــرابِ فغنــاه بعــضُ المغنيين قوله:

وبنـــو العبـــاسِ لا يـــأتون لا وعلـــى ألْسُـــنهم خفــت نَعَــمْ

زيَّنَـــت أحلامُهـــم أحســـابَهم وكـــذاك الحلـــم زيـــنٌ للكـــرم

فقال: ما أعرف هذا الشعرَ، فلمن هو؟ قيل: للبيد، فقال: وما للبيــد وبنى العباس؟ قال المغنى: إنما قال: وبنو الديان لا يأتون لا

فجعلتُهُ" وبنو العباس" فاستحسن فعله ووصله، وكان يعجب بشــعر لبيد، فقال: من منكم يروى قوله "بَلِيْنا وما تَبْلَى النجومُ الطوالِعُ"

فقال بعضُ الجلساءِ: أنا؛ فقال: أنشدنيها، فأنشد:

بَلِيْنا وما تَبْلَى النجومُ الطوالــعُ وتبقى الجبالُ بعْدَنا والمصـــانعُ

وقد كنتُ فى أكنافِ جارِ مَضِـــنَّةٍ ففـــارَقَنى جـــارٌ بأربَـــدَ نـــافعُ

فبكى المعتصمُ حتى جرت دموعه، وترحمَ على المـــأمونِ، وقـــال: هكذا كانَ رحمةُ الله عليه، ثم اندفعَ وهو ينشدُ باقيها[1].

ومثلما أُختلف الأدباء واللغويون والشعراءُ والأمراءُ -فى تقــديره شعره ومكانته فنرى أن منهم: من رأى شـــعره ســـهلَ المنطــقِ، رقيــقَ الحواشي، ومنهم من: عده مثالاً لخشونة الكلامِ وصعوبته...

---

(١) راجع: الأغانى" صـــ٥٧٣٢.

فالذين وصفوه بالرقة ربما أقاموا مقاييسهم على شعره الذى اتشى بالطابعِ الدينىِّ الذي هذبَ كثيراً من ألفاظه الوعرةِ، وأنّقَ أساليبه، وبسطَ معانيه، أما الذين وصفوه بالخشونة فقد نظروا إلى شعره الذى يصورُ فيه مناظرَ البادية، ويسجلُ مفاخرة وانتصاراته، وكان طبيعياً أن يلمَ ألفاظه من فلواتها الوعرة- فإن ما سبقَ لا يغضُّ الطرفَ عما تمتعَ بهِ شعرُ لبيد حتى عُد من أجود أشعارِ البدو، ولعل ما يؤكدُ صحةَ هذا القول أن اختيرت قصيدةٌ من شعره في المعلقاتِ.

وعلى الجملةِ يستطيعُ الناقدُ أن يلمسَ -بوضوح- قدرَ لبيدِ على صياغةِ موضوعاتِ البداوة صياغةً ساحرةً، لا نجدُ فيها وعورةً، ولا شذوذاً ولعل ما يزيد من نفاسه هذا الشعر، وخلوده بقاء الدهر هو ما ترددَ فيه من نغماتِ ذاتِ إيقاعاتِ دينيةِ تحركُ المشاعرَ وتهذبُ الأحاسيسَ دوماً وحسبه أنه كان شاعرَ قومه يدافعُ عن أحسابهم، ويذود عن حياضهم ويذكر أيامهم، حتى أنه أمتع -بشعره- ملوكَ الشام، ونال الحظوةَ لديهم بعدما وثقوا به.

أغراضه الشعرية:

إن الناظر -بعين الإحصاء- فى ديوانه أو مجموعه الشعرى دونَ المعلقة يرى أنه جاء موزعاً كالتالى على حسب الموضوعِ:

١ـ الرثاء: حيث تناول رثاء أخيه أربد، وقد رتب قصائده عن عشر جاء أكبرها في ثمانية أبياتِ، وأصغرها فى خمسة.

٢ـ **الفخر**: وقد تضمن سبعةً، أكبرها ستون بيتاً، وأصغرها عشرةٌ.

٣ـ **الوصف**: وفيه قدم أكبرَ قصائده أبياتاً إذ كان أكبرها ثمانين وأقلها ثلاثين.

٤ـ **الزهد والحكمة**: وقد استوعبته خمسُ قصائدَ أكبرها ثلاثون وأصغرها تسع.

هذا بالإضافة إلى قصيدة طويلة في الحماسة ومقطوعة في العقاب أما أراجيزه فلقد جاءت موزعةً كالتالي: ثلاث في الرثاء، وثنتان في الفخر وواحدة في المدح، فضلاً عن هذا كله فلقد جاءت أبياتٌ متفرقاتٌ لا تقدم أدنى إشارة إلى قيمة موضوعية وهذا أمرٌ طبيعي طالما أنها متزعةٌ أو مجتزأةٌ من تراث ضائع أو إرث مهمش.

واللافتُ للنظر أن لبيدَ لم يتوقفْ عند الجانب النظميِّ، بل أمتدَّ نشاطه الأدبيُّ حتى شملَ الفنَّ الخطابيَّ حيثُ قيل: إنه كان واحداً من المتحدثين الرسميين عن قومه- أفراد القبيلة- ووقائعهم وفرسانهم منصفاً إياها في أكثر قضاياها، مدافعاً عن شرفها.

من هنا فإنه لم يتخلَّ بموهبته الشعرية عن قبيلته، بل سكب على تاريخها مجداً وفخراً من عنفوان أو عرامة شعره وجنان خطبه الكثيرَ؛ لتظلَّ شامخةً في جزيرة العرب، لا تستطيع قوًى أن تخترق جدارها الأمني.

إننا لما نعيدُ النظرَ -كرةً أخرى فيما سبقَ- سوف تطلُّ من ثلة الإحصاء ملاحظتان:

الأولى: أن أبرز موضوعين قد استوعبا شعره هما الرثاء والفخر. **فالأول**: يتناسبُ شكلاً مع تشبثه بالقبيلة، ويجئ نتاجاً طبيعياً للفخر الذى ينمُّ -هو الآخر- عن تمسك بالقبيلة، ودفاع عن حياضها.. فالذى

يفتخر لابدَّ أن يرثى يوماً مَنْ افتخرَ به؛ لأن الحياةَ لا تبقى على حال مطلقاً.. هذا على جانب.

على الجانب الآخر فإنه إذا كان الفخر سلوكاً طبيعياً لشاعر اشتهر أبوه وأعمامه بالكرم وقد كان مثلهم فإن الرثاء يتناسبُ مع طبيعته النفسية المترعة بالحزنِ لبكورةٍ فى اليتم منحته قدرةً عاليةً على التأملِ فى الكون والحياة والناس وذهاب الأشياء وكأن شيئاً لم يكن ولا يبقى منها إلا حديث الذكريات مثلما حدث لأبيه، فلعل وحدويته قد فصلته عن مدارات المعتقد الوثنيِّ الذى دار الجاهليون؛ فى فلكه فساقته إلى استقلالية فكرية، وهدته إلى فهم العقيدة الحنيفية تلك التي ظهرت في شعره حيثُ تميزَ بها عن غيره من شعراء الجاهلية.

إننا إذا اعتبرنا أن رثاءه -أحد موضوعى شعره- فإنه يقتربُ حثيثاً من الحكمة التى يستمدُّها من الحياةِ الخادعةِ بزخرفها وزينتها التى ما تلبث أن تنقضى عجائبها، فما تترك غيرَ الحسرةِ فى نفوسِ الأهل.

عوداً على بدء فإن فخره كان محدداً بحدود المنطقِ، وقيود الواقع، حيثُ إنه لم يجنحْ إلى المبالغةِ والتهويلِ أو التوهيمِ طالما أنه مؤمنٌ بالحياة وجبروتِ الموت الذى لا يقف أمامه شئ...... فضلاً عن هذا كله فإن صبغة الفخر الذاتى قد تماهت تماماً فى فخره القومى اللهم إلا الافتخار بشهامته فى إنجاد من يستصرخُ عونه أو يستمطر كرمه فينطلق، متفاخراً بأعماله وأعمال آبائه وأجداده مشفوعةً بالوصف وفى هذا دليلٌ على ذوبانه فى المرجعيةِ الحنفية وأنصهاره فى بوتقة المساواة على الرغم من جنوحه قليلاً إلى الفخر.

أما الأخرى فهى ندرةُ قصائد الهجاء ولعل هذا يدفعنا إلى حتمية القول بـــأن تركيبته النفسيةَ وما جبلت عليه حنكةٍ وسماحةٍ ووقار وعفة نفس كل هذا يجعله ينأى عن السِباب المقذعِ، وغيره مما يتنـــافى مـــع مبادئ الإسلام.

العوامل المؤثرة فى شعره:

أولاً: العامل البيئى:

وفيه يلعبُ هذا العاملُ دوراً كبيراً فى تحديد التطلعات الاجتماعيـــة والقيم الأخلاقية؛ فلبيدُ قد نشأ فى بيتٍ شريفِ النسب، مرهوبِ الجانب فكان شريفاً، جُمَّالاً سخياً حليماً وهذا ما جعله يفخر بالقيم والمبادئ، وآية ذلــك أن ورودت أبيات فى معلقته تعدُّ أجوبَ ما قيلَ فى الفخرِ، نذكرُ منها قوله:

إنّا إذا التقت المجامعُ لَــمْ يــزَلْ   منَّا لِزَازُ عظيمـــةٍ جُشَّـــامها[1]

وَمُقَسِّمٌ يُعْطِى العشــيرةَ حقَّهَــا   وَمُغْذْمِرٌ لحقوقِهـــا هَضَّـــامُها[2]

فَضْلاً وذو كَرَمٍ يُعِينُ على الندى   سَمْحٌ كَسُوبُ رَغَائِبٍ غَنَّامهـــا[3]

من معشر سنت لهـــم آبـــاؤهم   ولكل قـــوم ســـنة وإمامهـــا[4]

ثانياً: العامل الفطرى:

---

(١) لزاز عظيمة: يلزمها ويعتمد عليه فيها، جشام: المتكلــف للأمـــور، القـــائم بهـــا والمعنى أنه إذا اجتمع الناس للفخار أو لأمر عظيم فإن الذي يقوم بذلك منهم.

(٢) مقسم: أي ومنا نقسم الحقوق، مغذمر: هو الذى يحكم فلا يرد حكمـــه، الهضـــام: الذى ينقص قوماً ويعطى قوماً فيوثق به فى ذلك.

(٣) فضلاً: أى يفعل ذلك رغبة فى الفضل، الندى: السخاء والبـــذل، الســـمح: الســـهل الأخلاق، كسوب رغائب: أي يكسب الرغائب من المحامد.

(٤) السنة: الطريق والأمر الواضح؛ الإمام: المثال.

وفيه نرى ان فطرته السلمية قد هدته -منذ نعومة أظفاره- إلى التدين حتى صار لديه معتقد حيث أكسبه ذلك اخلاقاً عالية، استطاع أن يتمثل بها شعره، وخصوصاً ذكرَ الألوهية تلك التي سكب عليها من عرامة فكره البكر، على صفحة أشعاره وقد استمد معانيها من الأخلاق والفضائل والمبادئ والمثل السامية وهذا ما سنعرض له حديثاً لاحقاً فى لاميته... والدليل على ذلك قوله[1]:

إنما يحفظُ التقى الأبرارُ ... وإلى اللهِ يستقرُّ القرارُ

وإلى الله ترجعون وعندَ ... اللهِ وِرْدُ الأمورِ والإصدارُ

وقوله[2]:

ألا كلُّ شئٍ ما خلا الله باطلٌ ... وكلُّ نعيمٍ لا محالةَ زائلُ

وكلُّ أناسٍ سوفَ تدخلُ بينهمْ ... دُوَيْهِيةٌ تصفرُ منها الأناملُ.

ثالثاً: العامل الحربي:

وفيه يعيشُ ما تعرضَ له قومه من أحداث متقلبة، ومعاركَ عنيفةَ انتصرت القبيلةُ فى بعضها، وخصوصاً على بنى تميم وهزمت فى بعضها الآخر إنه على إثر ذلك قد تركتَ القبيلة مساكنها حيناً من الزمن ليس مذكوراً، هذا ولقد ترجمت أشعاره هذا العاملُ ترجمةً صادقةً.

---

(١) انظر: ديوانه صـ ٧٦.

(٢) انظر: ديوانه صـ١٣٤.

رابعاً: العاملُ الشِّعْريّ:

وهنا نستطيعُ القولُ بأن هذا العاملَ أنضج موهبته الشعريةَ حيثُ جاءت تجاربه الشخصيةُ -وما حصل منها على ثقافات ومعارف- وقوداً جزلاً فعل وخلق منها مشكلاً منها ما يميزها وقد رأينا النظرات الصائبة فى الحياة ماثلة فى شعره نذكر منها قوله[1]:

وما المالُ والأهلون إلا وديعةٌ ... ولا بُدَّ يوماً أن تُـرَدَّ الوَدَائعُ

وما الناسُ إلا عاملان، فَعَامِلٌ ... يُتَبِّرُ مَـا يَبْنِـى، وآخَـرُ رافِـعُ

فَمِنْهُمْ سَعيدٌ آخِـذٌ لنَصيبِه ... ومِنْهُمْ شَقِـىٌّ بالمعيشةِ قَانِعُ

وقوله[2]:

إنْ يَكُنْ فى الحياةِ خيرٌ فقـدْ أنْـ ... ـظَرْتُ لوْ كانَ يَنْفَـعُ الإنْظَـارُ

عشتُ دهراً ولا يَدُومُ على الأيـ ... ـامِ إلاَّ يَرَمْـرَمٌ وتِعَـارُ

خامساً: العاملُ التواصلى:

حيثُ تحقق من خلال اتصاله بسادة وأشراف الجزيرة العربية لاسيما النعمانُ الذي أفادَ من مجالسته أو مخالطته إفادةً جلّى إذ كان أحد ندمائه أو جلسائه المتميزين، وقد اكتسب منزلةً عظيمةً من هذه المخالطة.

---

(١) انظر: ديوانه صـ ٨٩.

(٢) انظر: ديوانه صـ ٧٧.

سادساً: العامل الإسلامي:

حيثُ طبع حياته وأدبه بطابعٍ جديدٍ حتى أصــبحَ لا ينطــقُ إلا بمــا يصدرُ عن روحِ الإيمانِ المتعمقِ أو المتجذرِ في صدره حتى رأيناه يتحدثُ عن التقوى والأبرارِ والعملِ الصالحِ، وأن الناسَ معرضون على الله يــومَ القيمة، وقد أحصى كلَّ شئ في كتابه، وأن الموتَ حقٌ لذا على الإنسانِ أن يفكر في مصيره.

هذا بالإضافة إلى جملة عوامل أخرى أهمها بكورةُ القيم وقد كفلـــه أعمامه فضلاً عن حسه الفطريّ العالي بالحياةِ والناسِ كل هذا أثــر علـــى شعره فرأيناه شاعراً مجيداً، وفحلاً عظيماً من الفحول المخضرمين...

ما جاء عن جمال شعره:

روى القلقشندى[1]: أن النبي صلى الله عليه وسلم لما سمع قــول لبيد بن ربيعة العامري.

ألا كلُّ شئ ما خــلا الله باطــلُ وكـــلُ نعــيم لا محالـــةَ زائـــلُ

قال: أصدقُ كلمةٍ قالها شاعرٌ كلمةُ لبيدٍ وقد أورد الشطر الأول..!

وكون أن رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم يسجل إعجابه بهــذا القول – نظراً لتوفر مقياسِ الصدقِ الفنيّ فضلاً عن إجادته لقيمة الشــعر التعبيرية الرائعة – فإن هذا دليلٌ على عمق إيمانه وصدقِ إسلامه وسلامة منطقه، وكمال رؤيته، وروعة مسلكه.

---

(١) راجع: صبح الأعشى صــ٦١.

أما وقد يُتَّخذَ من قول أبى بكر الصديق -رضى الله عنــه- عنــدما قدم علمه لبيد فأنشده الشطر الأول من البيت السابق، ورد عليه "أبو بكر" قائلاً: صدقت، فلما أكملَ لبيدُ الشطرَ التالي "وكلُّ نعــيمٍ لا محالــةَ زَائــلُ" قال الصديقُ: كذبت عند الله نعيم لا يزول. (يعنى نعيم الجنــة)! - ذريعــةً تلوي من خلالها أعناق مقاصده، فإن هذا دليلٌ على فهم أعــرج وســوء استدلال من الباحثين، ونردُّ عليهم بقولنا:

أولاً: أن "لبيداً" ربما قال ذلك على سبيل الحكمة، لا سلامة المعتقد قبــل أن يُسلم، فيكون فى اعتقاده أن الجنة لا وجــود لهــا، أو كــان يعتقــدُ وجودها ولا يتوقعُ دوامها.

ثانياً: هو أن يمكن أن يكون أراد به ما سوى الجنة من نعيم الــدنيا علــى اعتبار حذف (ما خلا ما جاء به الله) فى وكل نعيم -لا محالة- زائــل لفهمه من السياق يفسرُ ذلك أنه كان يصدد ذم الدنيا وبيــانِ ســرعةِ زوالِها.

عوداً على بدءٍ فلقد وردَ كما جاء أن عمر بن الخطاب كــان يــأمرَ برواية قصيدة لبيد:

إنَّ تقــوى رَبِّنــا خيــرُ نفــلْ   وبــإذنِ الله ريثــي والعجــلْ

والناظر -بعين التأمل- فى هذهِ اللاميــةِ يــرى أنهــا أســتوعبت الصورةَ الكلية، أو المبلغَ الإجماليَّ لنظرة لبيد للحيــاة، والنــاس خاصــة،

وسائر المخلوقات عامة، كما جسدت رؤيةَ الشاعرِ حول تقــوى الله التــى يجب أن يتقربَ بها العبدُ إلى الله.

كذلك فلقد جاء أن عائشة -فيما نقل عن هشام بــن عــروة عــن أبيه[1]- كانت تكثر من تمثلِ البيتين الآتيين:

ذهبَ الذين يعاشُ فــى أكنــافِهم　　وبَقَيْتَ فى خَلْفٍ كجلد الأجــربِ

يتـــأكَّلون مَلامَـــةً ومذَمَّـــةً　　ويُلامُ قــائلهم وإن لــم يَشْــغَبِ

يقول هشام قال أبي: فكيف لو بقيت عائشة رضى الله عنها إلى هذا اليوم؟

ثم أردف قائلاً وأنا أقولُ: كيف لو بقى أبي إلى هــذا اليــوم، وأنــا الباحث -حسام علم- أقول كيف لو بقي هشام إلى هذا اليومِ.

هذا ويقال إن عائشةَ قد قالت -بعد أن روت البيتَ الأول: رحم الله تعالى لبيداً، إنى لأروي له ألف بيتٍ من الشعر.

وبالغ آخرون فى تقدير شعرِ لبيدٍ ومنزلته الشعريةِ لا سيما فى قول الفرزدق[2] عندما قدم الكوفه فمرَّ بمسجد بنى قيصر وعليه رجل ينشدُ.

وجلا السُيُولُ عن الطُّولِ كأنهــا　　زُبُــرٌ تُجِــدُّ متونهــا أقلامُهــا

---

(1) راجع: تهذيب التهذيب ح٩ صـــ ٥٣٩.

(2) راجع: المصدر نفسه ح١٢ صـــ٢٩٩.

فسجد فقيل له: ما هذا يا أبا فرس؟ قال أنتم تعرفون سجدة القرآنِ وأنا أعرفُ سجدةَ الشعر[1]"

على كلٍ فإن الرواياتِ تتعددُ لتؤكد على صدق لبيدِ الفني، وروعة قيمه التعبيرية والتصويرية وسمو قيمةِ الفكريةِ والأخلاقيةِ.

ديوانه:

لقد جمع ديوان لبيد كثيرٌ من مشاهيرِ الأدباء، ولم يبقَ من رواياته إلا روايةَ على بن عبد الله الطوسى تلميذ ابن الأعرابى "المتوفى ٢٣١/٨٤٤" مع شرح العشرين قصيدةً فى أوله:-

أ- طبقات ابن سعد ٦: ٢٠ - ٢١؛ الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٤٨؛ المؤتلف و المختلف للأمدى ٢٥؛ شرح شواهد المغنى للسيوطى ٥٦؛ الروائع للبستانى رقم ٢٤؛ دائرة المعارف الإسلامية "الألمانية" جـ٣ ترجمة لبيد.

ب- وجمع يحيى بن على بن يحيى بن أبى منصور أخبار الشعراء المخضرمين، وأكمل هذه المجموعة أبنه أحمد "المتوفى ٣٢٧/ ٩٣٨"، انظر: الإرشاد لياقوت ١/١٥٤س ١٣

حسن الصحابة فى شرح أشعار الصحابة جـ١ طبع بإستانبول ١٣٢٤- ١٣٢٥، من تأليف على بن شاكر فهى الموسترى حاجى زاده الجلبى زاده.

---

(١) شرح المعلقات السبع الجاهليات صـ١١٥.

ب)

- ديوان لبيد العامرى، رواية الطوسى، الطبعة الأولى بحسب النسخة الموجودة عند طابعه الشيخ يوسف ضياء الدين الخالدى المقدسى، فينا ١٢٩٧/ ١٨٨٠.

- وانظر: حول أشعار لبيد بقلم فون كريمر:

- أشعار لبيد، مع ترجمة وتعليقات على أساس طبعة فينا، وجدت فى تركة الدكتور هوبر، ونشرها بروكلمان فى ليدن ١٨٩١.

- ديوان لبيد ترجمة وتعليقات على أساس نسختى شترا سبورج وفينا، من تركة الدكتور هوبر، نشره بروكلمان فى ليدن ١٨٩١؛ مع ترجمة وتعليقات.

- وهناك مخطوطان آخران لم يطبعا بعدُ، أحدهما فى مكة، وكتب ١٢٨٧م، والآخر في القاهرة ثان ٣: ١٤٤ وكتب بالقاهرة ١٢٩٣[1]

---

(١) راجع: تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ط٥ ج١ ص ١٤٦- ١٤٧ دار المعارف بمصر سنة ١٩٩٥م.

ثانياً: القصيدة شرحاً وتعليقاً:

يستهلُ الشاعرُ قصيدته بالحديثِ عن الله، وعلوِّه ورسوخه وبقائــه حيًّاً ديوماً لا يموتُ .. ثم ينتقل بعد ذلك للحديث عن مخلوقاته، وكيف أحكمَ اللهُ صنعها .. فالسماوات السبعُ التى تعلو الجبالَ الراسـيات، والحصـونَ المنيعةَ، والأرضُ التى تثبتها الجبال .. كل هذا يشهدُ على قدرته.

ثم يستكملُ بعد ذلك الحديثَ عن آياته لا سيما الماءُ الذى جُعِلَ منه كلُ شىءٍ حيّ، والنيرانُ التى تجئ آيةً دالةً على خلقه. ثم يعرجُ الشـاعرُ على التقوى مؤكداً على أنها: هى العمل الباقي، ثم يذهبُ بعد ذلـك إلــى موضوعِ القصيدةِ .. وهو جبروت الموت الذي يحيلُ كلَّ شىء إلــى فنــاءٍ معتبراً بمن فني من عظماءِ الناسِ أمثال أبرهةَ والحارث، وهو ابن عمرو ابن حجر الكندي، ومرقشي بن قيس بن ربيعة.

والواضحُ من خلال ما سنقدمه من عــرضٍ وتحليــلٍ أن الشــاعرَ حنفيٌّ، كثيرُ التأملِ، والنظرِ في الحياةِ والناسِ، حكيمٌ يستمدُ حكمتــه مــن الحياةِ الخادعةِ بزخرفها وزينتها التى ما تلبثُ أن ينطفئ بريقها فما تخلف وراءها غيرَ الضياعِ، والحســرةِ والحــزنِ العميــقِ فــى أنفــسَ الأهــلِ والأصحاب.

هذا وتبدو النظرةُ أكثرَ وضوحاً، إذا ما حللنا شعره؛ لنؤكد لأنفســنا أنه استغرق في العقيدة الحنيفية استغراقاً مهده لتقبل الدينِ الجديدِ، وحسن فهمه على ضوءِ الخلفيةِ التوحيدية التى استقرت في أعماقه منذُ الجاهلية.

يقول الشاعر[١]:

لله نافلـــةُ الأجَــلِّ الأفضـــلِ ... ولـــه العلـــى وأثيـــثُ كـــلِّ مؤثَّـــلِ[٢]

لا يستطيعُ الناسُ محــوَ كتابــهِ ... أنّـــي ولـــيس قضـــاؤهُ بمُبـــدّلِ[٣]

سَوَّى فأغْلَقَ دُونَ غُرَّةِ عَرْشــه ... سَبْعًا طِباقــاً فَــوْقَ فَــرْعِ المَنْقَــلِ[٤]

---

(١) التخريج:

راجع: ديوان لبيد صـــ١٢٦ – ١٢٨. دار صادر، بيروت.

(٢) المعانى:

الأثيث: الكثير، والعظيم من كل شئ...راجع: اللسان "أثث"

المؤثل: كل شئ له أصلٌ قديمٌ، أو جمع حتى يصيرَ له أصل، وهى هنـــا بمعنـــى الأصيل القديم.

الشرح:

يقول الشاعر: إن الله سبحانه جل وعلا شأنه ذا الفضل الكبير إليه يرجع كلُّ شئ عظيم، فهو الدائمُ الباقى.

(٣) المعانى:

الكتاب: مطلق التوراة، وجائز أن يكون القرآن. المبدل: مغير.

الشرح:

يقول الشاعر: إن كتابه سيبقى خالداً، ويتعجـــب ممـــن يريـــدون تغيـــرَ قضائه؛ لأنَّ ما قضى الله من أمرٍ سوف ينزل لا محالةَ.

(٤) المعانى:

سوى: مستوى الخلق المنقل: ظهر الجبل المعقل: الحصن أو الجبل

الشرح:

يقول: لقد أحسن الله صنعه حيث رفع سمع سماوات تعلو ظهور الجبال الراسيات، والحصون المنيعة.

وَالأَرْضَ تَحْتَهُمْ مِهَاداً راسِيًا ثَبَتَتْ خَوالِقُها بصُمِّ الجَنْدَلِ[1]

والمَاءُ والنِّيرانُ مِنْ آيَاتِهِ فِيهِنَّ مَوْعِظَةٌ لمَنْ لَمْ يَجْهَلِ[2]

بَل كُلُّ سَعيِكَ باطِلٌ إلاَّ التُّقَى فإذا انقَضَى شئٌ كأنْ لم يُفْعَلِ

لَوْ كانَ شئٌ خالِداً لَتَوَاءَلَتْ عَصْماءُ مُؤلِفَةٌ ضَواحيَ مأسَلِ[3]

---

(١) المعانى:

مهاد: فراش مبسوطة، والجمع أَمْهِدَة ومُهُد خوالق: الجبال الملس

الجندل: هو المكان الغليظ فيه حجارة. والجمع الجنادل

الشرح:

يصفُ الشاعر الأرض التي ثبتها الله سبحانه بالجبال الراسيات، بعد أن فرشها وبسطها؛ حتى لا تميدَ كذلك فلقد ثبت الجبالَ الملسَ بالحجارةِ الغليظةِ.

(٢) المعانى:

آياته: علاماته

الشرح:

لقد جعل الله الماءَ والنيران علامتين دالتين على قدرته وعظمته، وفى هذا وذاك عبرةٌ لكل من يتأملُ فى خلق الله.

(٣) الشرح:

يرى الشاعر أن كلَّ الأعمالِ تنقضى إلى زوال، وكأن شيئاً لم يكنْ إلا تقوى الله فإنها الشيء الذي لا ينقضي.

المعانى:

تواءلت: نجت. عصماء: أروى أى أنثى الوعل. ضواحي: نواحي بارزة

مأسل: اسم جبل معروف.

بظُلُوفِها وَرَقُ البَشَامِ ودُونَها　　صَعْبٌ تَزِلُّ سَرَاتُهُ بالأَجْدلِ[1]

أوْ ذو زَوائِدَ لا يُطافُ بأرْضِهِ　　يغشَى المُهجهجَ كالذَّنوبِ المُرْسَلِ[2]

في نَابِهِ عِوَجٌ يُجَاوِزُ شِدْقَهُ　　ويُخَالِفُ الأعْلَى وَرَاءَ الأسْفَلِ[3]

---

(١) المعاني:

الظلوف: الظَّلْفُ من الأرض الغليظ الذي لا يؤدى أثراً، ويقال الشديد من الشىء راجع: اللسان مادة ظلف. البشام: شجر طيب الريح والطعم، تتخذ منه المساويك. الصعب: الجبل الصعب المرتقى. السراة: المتن الأجدل: الصقر.

الشرح:

يصف الشاعر أرضاً غليظةً نبت بها شجرٌ طيبُ الريح والطعم، حيث تعلوها جبالٌ، لا يصعد إليها نفرٌ وقد وقف على أعلاه صقر قوىٌّ.

(٢) المعاني:

ذو زوائد: قيل هو الذي يتزيد في الزئير　يغشى: يهجم عليه، ولا يبالى به المهجهج الذي يصيح بالأسد؛ ليزجره إذ يصب عليه كالدلو مسرعاً راجع: اللسان "هج". الذَّنوب: المرسل الدلو المنطلق.

الشرح:

يتحدث الشاعر هنا عن كلِّ ماله ناب من السباع - كالأسود والذئاب والفهود والنمور- عندما يصيحُ بها المهجهجُ أى الرجل؛ كى يزجرها فيجئ الزجر سريعاً، كماء الدلو الذي يُصب بسرعة.

(٣) المعاني:

الشدق: جانب الفم.

فأصابَهُ رَيْبُ الزّمانِ فأصْبَحَتْ أنْيابُهُ مثلَ الزّجاجِ النُّصَّلِ[1]

ولَقَدْ رَأى صُبْحٌ سَوادَ خَليلِهِ منْ بَينِ قائمِ سَيْفِهِ والمِحمَلِ[2]

صَبَّحنَ صُبْحاً حينَ حُقَّ حِذارُهُ فأصابَ صُبحاً قائفٌ لم يَغْفَلِ[3]

فالتَفَّ صَفْقُهُما وصُبّح تَحتَهُ بَينَ التُّرابِ وبَينَ حِنْو الكَلكَلِ[4]

= الشرح:

يصف الشاعر هنا هذا السبعَ، وما أصابه من شيخوخة وقد غيرت من تضاريسِ فمه، حتى إذا انطبق فكه الأعلى على الأسفلِ تخالفتَ أنيابه ومع ذلك لا تستطيعُ الفريسة أن تتخلص من هذا الإطباقِ.

(١) المعاني:

ريب الزمان: صروفه وحوادثه.

الزجاج المنصل: الحديد المنتزع من أسفل الرمح.

الشرح:

ما زال الشاعر يتحدث عن السبع. حيثُ أصابتهُ صروفُ الدهر فصارت أنيابه متفرقةً، وكانت من قبلُ قوية فصارت أشبه بالحديدة التي انتزعت من أسفلِ الرمحُ.

(٢) المعاني:

صبح: اسم ملك من ملوك الحبشة بقر الأسدُ بطنه، وهو حيُّ فرأى سواد كبده.

خليله: هنا بمعنى كبده.

(٣) المعاني:

القائف: متتبع الأثر يعنى الميمنة.

(٤) المعاني:

الصفق: الجانب الحنو: الإعوجاج الكلكل: الصدر

ولَقد جرَى لُبَـدٌ فـأدرك جَرْيَـهُ رَيْبُ الزَّمـانِ وكـانَ غَيـرَ مُثقَّـلِ[1]

لمّا رَأى لُبَدُ النُّسُـورَ تَطـايَرَتْ رَفَـعَ القَـوادِمَ كـالفقيرِ الأعـزَلِ[2]

منْ تَحتهِ لُقْمانُ يَرجـو نَهضَـهُ ولَقـد رَأى لُقمـانُ أنْ لا يـأتَلي[3]

---

(١) المعاني:

لُبَد: اسم آخر نسور لقمان بن عاد سَّماه بذلك؛ لأنه لبد – أى أقـام بالمكـان– فبقى، لا يذهب ولا يموت، كاللبد من الرجال اللازم لرحله لا يفارقه. ولبـد ينصرف؛ لأنه ليس بمعدول، وتزعم العرب أن لقمان هو الذي بعثته عاد فى وفدها إلى الحرم يستسقى لها فلما أهلكوا خير لقمان بين بقاء سبع بقرات سمر من أظب عفر فى جبل وعر لا يمسها القطر أو بقاء سبعة أنسر كلما أهلك نسر خلف بعده نسر، فاختار النسور فكان آخر نسوره يسمى لبداً.

غير مثقل: غير ثقيل.

الشرح:

يقول: إن لبداً كان نسراً من نسور لقمان عاشَ ما عاشَ حتى عمر ثمانين.

(٢) المعاني:

رفع القوادم: القوادم أربع ريشات في مقدم الجناح، الواحدة القادمة.

الفقير الأعزل: الذى كُسرتَ فقراتُ ظهره، والأعزل المائل الذنب.

(٣) المعاني:

لا يأتلى: لا يقصر ولا يبطئ أى كان يظن أنه لن يخذله بالعجز عن الطيران.

يرجو نفعه: يرجع سعيه

غَلَبَ اللَيالي خَلْفَ آلِ مُحَرَّقٍ   وكمَا فَعَلْنَ بتُبَّعٍ وبهِرَقْلِ[١]

وغَلبْنَ أبْرَهَةَ الذي ألفَيْنَهُ   قد كانَ خلَّد فوقَ غُرْفَةِ مَوْكلِ[٢]

- الشرح:

لم يزل الشاعر يصف لنا هذا النسرَ الذي عاش ثمانين عاماً، ثم أدركته المنيةُ وقد كان غيرَ ثقيلٍ؛ ربما لخفته في الطيران، حتى إذا هرمَ عجزَ على النهوض، ولم يستجب لأمر لقمانَ، وهو يقول له: "انهض لبد".

(١) **المعاني**:

خلف: البقية من الناس.

آل محروق: ربما إنه يريد المحرق عمرو بن هند؛ لأنه حرق مائة من بني تميم تسعة وتسعين من بني دارم، أو المحرق لقب الحارث بن عمرو ملك الشام من آل جفنة، وإنما سمى بذلك؛ لأنه أول من حرق العرب في ديارهم.

تبع: جمعها تتابعة، سموا بذلك؛ لأنه يتبع بعضهم بعضاً، كلما هلك واحد قام مقامه آخر تابعاً له على مثل سيرته وزادوا الهاء في التبابعة، لإرادة النسب .. راجع: اللسان مادة تبع.

هرقل: من ملوك الروم، وهو أول من ضرب الدنانير، وأول من أحدث البقعة.

راجع: اللسان مادة "هرق".

الشرح:

لم يزل الشاعر يتحدث عن جبروتِ الموتِ الذي أهلك آل محرق، وقوم تبع، وكذلك هرقل ببطشه وغترسته.

(٢) **المعاني**:

أبرهة: ملك حبشى، جبار وغاشم.

ألفينه: وجدنه   خلد: أقام وسكن   موكل: قيل اسم بيت كانت الملوك تنزله وقيل غرفة.   موكل: موضع باليمن.

والحارثُ الحرَّابُ خَلّــى عــاقلاً	داراً أقــامَ بهــا ولــم يتنقَّــلِ[1]
تَجري خَزائنُهُ على مَــنْ نَابَــهُ	مُجرَى الفراتِ على فِــرَاضِ الجــدولِ[2]
حتّــى تحَمَّــلَ أهْلُــهُ وقَطينُــهُ	وأقــامَ سَـــيِّدُهُمْ ولــم يَتَحَمَّــلِ[3]
والشّاعِرُونَ النّــاطِقونَ أراهُــمُ	سَــلَكوا سَــبيلَ مُــرَقِّشٍ ومُهلهِــلِ[4]

---

(١) المعاني:

الحارث الحراب: ابن عمرو بن حجر الكندي، وقيل رجل من غسان.

عاقل: من ديار كندة، وكان حجر أبو امرئ القيس يسكنه.

(٢) المعاني:

نابه: قصده واعتفاه الفراض: فوهة النهر، أى يفيض مــن كرمــه، كمــا يفيض النهر من مائه على السواقي.

(٣) المعاني:

تحمل: ارتحل القطين: تباع الملك ومماليكه.

(٤) المعاني:

المرقشان -الأكبر والأصغر-: شاعران من بنى قيس بن ثعلبة البكرية.

المهلهل: أخو كليب بن وائل الشاعر المشهور.

الشرح:

فى الأبيات السابقة يتحدث الشاعرُ عن العظماءِ السابقين الــذين مــلأوا الدنيا صيتاً وشهرةً حيثُ اخترمهُ سهمِ الموتِ بجبروته.

ثالثاً: الحنيفية في القصيدة تحليلاً ونقداً:

لم تفلحْ المصادرُ ذاتُ الأحاديةِ النوعيةِ أن تقدمَ للحنيفيةِ المعطى الدلالي الذي يمثلُ المبلغَ الإجماليَّ للمفهومِ كمحاولةٍ دؤوبةٍ لكشفِ النقاب عنها .. فالمعاجم اللغويةُ – مثلاً – تلك التي تمخرُ عبابَ العربيةِ راحت تتفق على معنىً واحدٍ، ذي مدلول واحد مفادهُ: الميل أو التحولُ من حالةٍ إلى أخرى، أو من وجهةٍ إلى أخرى[1]، ويلتقط أهلُ الأخيارِ الخيطَ وذلك؛ لتنسجوا على منواله تصوراً– في ضوءِ منظورٍ إسلاميٍّ– مؤكدين أن الذي يتحنفُ عن الأديانِ، هو مَنْ يميلُ إلى الحقِ، حيثُ يستقبلُ قبلةَ البيت الحرامِ على ملةِ إبراهيمَ، وقد أسلمَ في أمرِ الله.

أما أهل التفاسيرِ فلقد اقتربوا حثيثاً من التصورِ عندما رأوا أنها الميلُ لملةِ إبراهيمَ الخليلِ عليه السلامُ، وتركُ عبادةِ الأوثان، ومنها جاءت الحنيف. بمعنى المتتبع لابنِ إبراهيمَ، وجمعه حنفاء أو أحناف أو متحنفون[2].

والجديرُ بالذكرَ أن يتلاقى هذا التصورُ مع مفهومِ عربِ الجاهليةِ حولَ الحنيفيةِ حتى وجدنا منهم من يقول – عن عقيدته الدينية، نحنُ حنفاءُ على دينِ إبراهيمَ، وقد كانَ ذلكَ قبلَ مبعثِ الرسولَ "ص"[3].

---

(١) راجع: اللسان مادة "حنف"

(٢) راجع: الشعر والشعراء لأحمد جمال العمري ص٧٨.

(٣) راجع: بلوغ الأرب ج٢، ص٢٥٢.

ويعاودُ علماءُ التفسيرِ التوسعةَ في المفهومِ، وإضفاءَ العديـد مـن المداليل الاستكشافيةِ تلك التيَ تُقعّدُ -بمدِّ التشكيل، وجزر التاصيل- فقالوا: الحنيفُ هو المسلمُ المستقيمُ الطريقةِ أو المائلُ - عن رغبةٍ - إلى الـدينِ المستقيم[1]. وقد فسَّر ابن كثير مضمونَ الحنيفِ بالاستقامة هنا[2].

ولأياً تتفقُ وجهاتُ النظرِ، وتتقاربُ الأبعادُ، وتتمازجُ الجهـودُ فـي تآلفيةِ بعد توهمٍ وذلك لترسيخ المفهومِ وتقعيده لاسيما عندنا نجدُ علمـاءَ اللغةِ والمفسرين، وأهلَ الأخبار يقرّون بأنَّ الحنيفَ هو الإنسانُ الذي نبـذ عبادةَ الأصنامِ والأوثان، وسائرَ العبادات، واتبع ملةَ إبـراهيم وسـننه[3]، وآمنَ بعقيدةِ التوحيدِ وتاريخيًا: نقول إن الحنيفية دعوةٌ توحيديةٌ لم تكـنْ وقفاً على أشخاصٍ، أو أمةٍ من الأمم، أو عهدٍ من العهود؛ لكنهـا أصـولٌ تضربُ بجذورها فى أعماقِ البشريةِ منذُ دعوةِ إبراهيمَ الخليلِ عليه السلامُ، وهذه حقيقةٌ تؤدي إلى نتيجةٍ أخرى وهي – أن الحنيفية – كدعوة عقيديةٍ لابدَّ أن تكون قد مَّرت بطورين بارزين:

---

(1) راجع: خزانة الأدب ح1 ص123 طبعة بيروت.

(2) راجع: تفسير ابن كثير ح1 ص186.

(3) راجع: الملل والنحل ح1، ص210. هذا ولقد عضد أبو ذر الغفـاري مـا سبق بقوله: هو الخروج من الحنث أى الإثم، وذلك من الشـىء. راجـع: السيرة النبوية ح1، ص235.

الأول قديمَ حيثُ يرجعُ إلى عهدِ إبراهيمَ ممتداً إلي عهدِ إسماعيلَ وولـده، وما تلاه من أنباءٍ فكانت الدعوةُ صرخةً في ضمير البشرية ضدَ الأوثانِ أو العبودية، إذ رفعت المكانةُ الإنسانية إلى ميزانِ التوحيد، وإعلاء العقدية بوصفها أنها الحقيقةُ الفضلى أو المثلى.

إنها فتحٌ جديدٌ في تاريخِ العقيدة حيثُ كانت الدعوةُ النبويةُ التى اصطبغت بصبغتها، وكان من شأنِ التوحيدِ فيها أن رفع مكانةَ الإنسانِ في ميزانِ الخليقة، فليس في الكونِ إلا خالقٌ ومخلوقٌ، وهو أشرفُ مخلوقٍ عندَ الله، بفضيلةٍ واحدةٍ، وهي فضيلةُ الضمير، الذي يميزُ بينَ الخيرِ والشرِّ، وعملِ الخيرِ، هو وسيلته إلى الله[1].

على كلٍّ فلقد جاءَ هذا الطورُ فتحاً عظيماً - إذ ظهرَ أثره كليًّا عندما اقترن هذا بدعوة الخليل إلى الحنيفية، واقترنت الدعوةُ بالتوحيد، والتنزيه لله ربِّ العالمين، كما اقترنت بميزان العدلِ الإلهيِّ بإعلاء العبادة، فسادت عصرَ إبراهيمَ ومجتمعه، وقد انعكس هذا الأمرُ -بجلاء- على تقديس الكعبة التي بناها بأمرِ الله، كما انعكسَ على تقديسِ بئر زمزم، ولم يقفْ هذا التقديسُ على العرب فحسب، بل تأثرَ بهذا التقديسِ أممٌ أخرى كثيرةٌ خاصة الفرسُ والهنود[2].

---

(١) راجع: عباس محمود العقاد - أبو الأنبياء - طبع دار الكتاب العربي - بيروت سنة ١٩٦٧، ص٣٠٩.

(٢) راجع: مروج الذهب ومعادن الجوهر ح٢، ص٤٨.

هذا ولم يكتبْ لذاك الطورِ الفلاحُ بسبب الانتكاسة، الكبـرى التـى حدثت آنذاك... إنها نكسةُ الوثنية التى كان من حصادِها المرِّ أن طُمسـت معالمُ الحنيفيةِ حيثُ ارتد الناسُ إلى عبادة الأصنامِ، وجهلوا كلَّ ما جاءَ، أو نادى به إبراهيمُ عليه السلامُ.

أما الآخر فكانَ قبيلَ ظهورِ الإسلامِ

وهنا ظهر بوضوح عندما فقدت فيه الوثنيةُ العربيةُ قوّتها، وفتَّ فى عضدِها الضعفُ والوهنُ، وأصبحت مجردَ مجموعةٍ من الخرافاتِ والأوهامِ. لقد كان العرب يقدسون آلهتهم، فيحجون إلى أماكنها المقدسة، ويقـدمون الأضحيات في معابدها ويخضبون – بدماءِ هـذهِ الأضـحياتِ – الهياكـلَ المصنوعةَ من الأحجارِ أو الخشب، ويسألونهم عما يخبئه المستقبلُ؛ ولكن هذا كانَ تظاهراً وتصنعاً، فلم يكنْ هناك شعور بإيمان حقيقـي؛ طالمـا أن العربي يظهرُ غضبه لأتفه الأشياءِ على الآلهة، ويخاطبهم وكأنـه يعـرفُ حقيقتهم فيسخر منهم .. وهذه الحقائقُ توضح أن عربَ ما قبـل الإسـلامِ كانوا في حالةِ قلقٍ ديني قبلَ ظهورِ الإسلامِ، إذ كانوا غيرَ راضـين عـن نظامهم الديني، وعاجزين عن الوصول إلى ما هو أحسنُ بحيـثُ يرضـي حاجاتهم ومطالبهم، وكانوا حتماً يمارسون عبادة الأوثـان، ولكـن بـدون شعور بإيمان حقيقي[1].

---

(١) انظر: الشعراء الحنفاء للدكتور أحمد العمري ص١١٣.

والناظر المتأملُ في هذا الطور يرى أنه يمثلُ الدعوةَ إلى البحثِ عن الحنيفية النقيةِ، المعزولة عن كلٍّ ما دونها من براثنِ الشركِ أو العبودية .. إنها الإرهاصات الدينيةُ والاجتماعيةُ التى تـأذن بـالتخلى عـن الوثنيـة والتيارات الإلحاديةِ .. وهذا الطور يبشرُ بقربِ ظهورِ عقيدة توحيدِ حنيفيةٍ جديدة حمل لواءها الرسولُ الكريمُ..

والمتتبعُ لأخبارِ الحنفاءِ يرى أنهم اتفقوا اتفاقاً – لا مريـةَ فيـه – على قواعدَ وأصولٍ مرعيةٍ منها عقيدةُ التوحيدِ والإصلاحِ الاجتماعي، ونبذ عبادةِ الأصنامِ .. فلعل تفاوتَ أزمانهم وأمكنتهم وطبيعتهم الفعليـة .. كـلّ هذا لم يفلحْ في تأليفِ جماعةٍ معينةٍ على نحو مـا رأينـا فـي اليهوديـة والنصرانية والمجوسية؛ لكنهم على الأرجح كانوا يلتقون في مسائلَ مثـل "التأملِ في الكونِ والتفكرُ في خالقِ هذا الكونِ والإقرارُ بوجوده، ووجـوب العبادة له والإيمان بالبعث والحساب والثواب والعقاب والبحث عن طريـق العبادة، وإن كانوا يفتقرون إلى وحدة الهدف والغاية ..

مهما يكن من أمرٍ فإن المدقق أو ممعن النظر في لامية لبيـد بـن ربيعة يستطيعُ أن يلمس –بوضوح – ظهورَ عقيدةِ الحنيفيةِ فـي شـعره وذلك من خلال أنماطه التعبيرية والتصويرية.. هذا وسوف تعرضُ الدراسة لأهم تلك الأبعاد التى تؤكدُ سلامةَ حنفيته .. **من هذه الأبعاد نذكر:**

البعد الأول: عقيدة التوحيد:

وهذا مجالٌ خصبٌ واسع المدى، عالي الصدى إذ تظهر فيه عقيـدةُ لبيد واضحةً جليةً محاولةً التأكيدَ والحرص على إثبات أن الإلهَ واحـدٌ، لا يُعبد سواه فى هذا الكون بأسره، وفى هذا البعد يتخذ طابعُ التوحيدُ الخالص المنزه، الذي لا تشوبه أي شائبةٍ، أو يخامره أدنى شك فى تلك الوجدانية؛ لذا فإنه يقر بأن:

لله نافلـــةُ الأَجَـــلِّ الأفضـــلِ ... وله العلـى وأثيـثُ كـلِّ مؤثـلْ.

أى أنه دائم وقديمٌ، وذو فضل عظيمٍ على الخلائق جميعهـا، حيـث يرجعُ إليه كلُّ أمرٍ عظيم فى هذا الكون، واستكمالاً لتلك القيمةِ التوحيدية – تلك التى سعى إليها– راح يفرده بكتابه والقضاء قائلاً:

لا يستطيع الناسُ محـوَ كتابـهِ ... أنّـيَّ ولـيس قضـاؤه بمبـدلِ.

إن كتابه سيظل باقياً حتى يرثَ اللهُ الأرضَ، ومن عليها، ويتعجـب مستنكراً من حال الذين يعبدون آلهةً أخرى غيرَ الله؛ ولأن مقاليد الأمـور بيديه يصرفها متى وحيث شاء؛ لذا فإن قضاءه نافذٌ لا محالةَ، ولا يستطيع أحدٌ إنكاره طالما أن الأمر بقبضة يديه.

هذا ولا ينسى التقوى أساسُ الفلاحِ في الحياة، كما أنها هي الشيء الباقي الذي تصدر عنه الأفعال.. إننا أن خلنا فى ذلك فلننظرْ إليـه وهـو يقول:

بل كُلُّ سـعيكَ باطـلٌ إلاَّ التُّقَـى ... فإذا انقضَى شئٌ كـأنْ لـم يُفْعَـلِ

أن الأعمال تنقضى بفنائها، وكأن شـيئاً لـم يكـن إلا مخافـةَ الله سبحانه وتعالى، فإنها الصنيع الباقي الذي يمكثُ في الأرض فينفع صاحبه؛ لذا فالشاعر يوجه خطابه التوجيهيَّ لكلِّ من يبالغُ في السعي، وهو عـالم بعدم جدواه محدداً ومؤكداً على أن تقوى الله هي العملُ الصالحُ والسـعى النبيلُ.

فالناظرُ إلى المسالكِ التعبيريةِ في الأبياتِ السابقةِ وحركتيها الدلاليةِ يستطيع رصد عدة موثيقات أسلوبيةٍ نذكر منها:

القصر بأصباغه المبرقشة، إذ تتكررُ هنا ثلاثَ مراتٍ فـي الأبيـات الأربعة مع تنويع الأداة فنجدُ مثلاً:

١) التقـديم والتـأخير في "لله نافلة" حيث تقدم الخبر شبه الجملة على مبتدئه "نافلة" التي جاءت مضافةً إلى اسم التفضيل "الأجل"، وموصوفةً لاسـم التفضيل الأفضل؛ لينسب الجلالة لله وحده، ويجعل الفضل من صـفاته العلا – متميزاً عن سواه– وذلك في صياغةٍ اتشت بالحرفيةِ والجماليةِ. وكذلك "له العلا" حيثُ تقدمَ –عوداً– شبه الجملة على مبتدئه المـؤخر، ثم نجدُ الدورَ الإيجابى لحرف الواو الدال على الجمع، حتى يتمكن مـن إحصاءِ صفات الله وخلعها عليه فـى سـياقتها وخصوصـاً اللغويـةَ والعاطفيةَ، ثم العودة لأسلوبِ القصرِ الذي اعتمد على خاصـية حـذف خبره المقدم وتقديره "وله أثبت كل مؤثل"؛ كى يضيفَ صفتين أخـريين وهما العلا والقدم لله سبحانه وتعالى.

هذا ويستطيعُ المتأملُ أن يلمسَ امراً هو " أن جوازية التقديم والتأخير فى "لله نافلة الأجل، لله العلا" يشيرُ إلى جواز صفاته أو أسمائه محله، وهــذه قيمةٌ توحيدية فضلى.

٢) النفى والاستثناء الماثل في قوله "بل كل سعيك باطلٌ إلا التقــى" حيــثُ قَصرَ السعىَ على النفي أملاً فى تحديدها وتخصيصها وقصــر الحكــم عليها.

إننا لما نعيد النظر -كرة أخرى- فى أساليب القصر فإنها جــاءت جملاً اسمية؛ لتدلَّ على تقرير حقيقة التوحيد، وتثبيتها فى الــذهن إلحاحــاً على خصوصيتها، ولعل هذا يتناسب ضمناً مع تثبيــت عقيــدة التوحيــد، وترسيخها فى القلب، وتبيان مدى أهميتها فى المسألة الحنيفية.

هذا وتلعب عدةُ حروفٍ فى -صياغاتها اللفظية- أدواراً بالغة الدقة، والحساسية فى الأبياتِ السابقة وفقَ نظامها الدلالى والصياغى، فــالواو - مثلا- تكررت ثلاثَ مراتٍ في هذا البعد حيث جاءت في البيت الأول مرتين، لتدل على محاولة جمع وإحصاء صفات الله وأسمائه الحسنى، كذلك "بــل" حيث تجئ للاستدراك ولتثبت أو تقرير المعنى لما بعدها هذا بالإضافة إلــى الباء فى "بمبدل" حيث كانت حرفاً زائداً للتوكيد؛ لأنها واقعة فى خبر "ليس" هذا ولقد لاحظنا بروز الضمير هاء "الغيبة" المتصل باللام الجارة فى "له"، والاسمين فى "كتابه، "قضاؤه" فلعل هذا يتناسب مع توحيــد الله ســبحانه

وتعالى حيث إنه كائن حاصل ماثل في ضمائرنا وقد تجئ تصرفاتنا معبـرةً عن وجوده بشكلٍ ملمحٍ ودائم.. وهذه قيمةٌ توحيديةٌ جُلّى.

البعد الثاني: التأمل في مخلوقات الله:

إذا كان لبيد قد أقر -فى أكثر من بيت- بتوحيدِ الله وتنزيهه، وأثبت صفاتِ الجلالةِ والعلوِّ والقدمِ والقدرةِ له فقد حفزه هذا الأمر، ووجهه إلـى التأمل في مخلوقاته التى شغلت الكون جميعه؛ فكان أولَ شيء تقع عينـه عليه عندما شخص بصره إلى أعلى السماء فقال:

سَوَّى فأغْلَقَ دُونَ غُرَّةِ عَرْشِـهِ سَبْعًا طِباقـاً فَـوْقَ فَـرْعِ المَنْقَـلِ

حيثُ هالَهُ بناءُ السماوات السبعِ المتسقِ التـى سـوَّاها سـبحانه وتعالى، وقد رفعت بلا عمدٍ، نراها تعلو ظهورَ الجبال .. وهـذه الـدعوة التأملية -بكل توجهاتها وتداعياتها- تضرب بجذورها فى أعمـاق التربـة الحنيفية، فتجئ غرساً مأمول الثمر، عالي الفائدة، يبهجُ النظرَ ..

ولما يخفضُ بصرَهُ سيسقطُ النظرُ على الأرضِ التى قالَ فيها:

وَالأرْض تَحْتَهُمُ مِهَـاداً راسِـيًا ثُبِّتَـتْ خَوالِقُهـا بصُـمِّ الجَنْـدَلِ

موجهاً الأنظار إلى الأرضِ التي ثبتها اللهُ بالجبال الرأسيات الملسِ بعد أن بسطها أو فرشها؛ حتى يسيرَ الناس عليها، ثم لا يتوقف النظر عند هذا الحدِّ من التدبر بل يوجه النظر إلى ما يرسخ الجبال من حجارة غليظة في تأمليةٍ دقيقة راصدةٍ ومحللةٍ وكاشفةٍ لكل المخلوقاتِ التى أبدعَ صـنعها فى هذا الكونِ.

ثم تُستكمل دائرةُ التأملِ بذكره الماء والنيران فيقول:

والمَــاءُ والنِّيــرانُ مِــنْ آياتِــهِ فيهِنَّ مَوْعِظَــةٌ لمَــنْ لــمْ يَجْهَــلِ

حيثُ يؤكدُ على أن الماءَ والنيرانَ آياتان دالتــان علــى خلــقِ الله وقدرته لاسيما أنَّ فيهما الموعظةَ والتدبرَ لمــن أُعْطِــي نعمــة العلــمِ أو المعرفةِ واليقين..

فالناظر إلى كلِّ هذه التأملاتِ الصادرةِ عن فطرةٍ سليمةٍ يرى أنهــا أكثرت، بل أدامت التفكير في مخلوقات الله كمحاولة للرجوع إلى خالقها أو مبدعها الذي أحسنَ كلَّ شيءٍ صنعاً.

ونحاول أن نذهب إلى المسالك التعبيرية، إذ نسعى إليهــا لمعرفــة دورها في الصياغة الدلالية وأثرُ ذلك على دائرة التعبيرِ فنجد إكثار الشاعر من الجمل سواءً أكانت فعلية مثل: "سوى، فــأغلق، ثبتــت خوالقهــا"، أو اسمية في: "الماء والنيران من آياته"... فلعل ميل الشاعر إلى اســتخدامها يجئُ رغبةً في تقرير المعنى في الذهن، وتثبيت الحقيقة بقصد ترســيخها بشكل تأسيسيٍّ في معتقدِ الشاعرِ حتى يتشكلَ من خلالها -جوهرُ العقيــدةِ الغائي، هذا ولقد قدم الشاعر السماء على الأرض في عرض وجهة نظــره التأملية؛ وذلك للإيحاء بالرغبة في التحول من المعتقد الوثني إلى المعتقــد الحنيفي في ثباتٍ وأريحيةٍ، ثم أن البدءَ بالسماءِ التى خلقها اللهُ أولاً يؤكــدُ على الدقةِ فى الفهمِ والبلاغة فى رصدِ مخلوقاته..

هذا ويعاود الشاعر الرجوعَ إلى أسلوب القصر، وخصوصـــاً الــذي يعتمد على التقديمِ والتأخيرِ في "فيهن موعظة" حيث قدم الخبرَ شبه الجملة "فيهن" على المبتدأ المؤخر "موعظة" وذلك للتخصيص والتحديد والتوكيد.

عوداً فلقد تساوقت الألفاظ فى إيقاعيةِ ذات جماليةٍ، وكأن لبيد كان يمتحها من نبع المعجم القرآنى الصافي، علماً بأن تلك القصيدة نظمت في الجاهلية.

البعد الثالث: الموت وفناء الأشياء:

وفيه رأى لبيد أن كلَّ كائن حيٍّ مصيرةٌ إلى زوال، ولا يبقى لـــه إلا آثاره وما أراد الله أن يبقى مما عمرت الأرض به، هذا ولقد صدر لنا رأيه في منطقٍ هادئٍ قدمَ فيه النتائجَ على الأسبابِ وذلك في حكمهِ ترجمت مـــا استوعبه من التجاربِ الشخصيةِ لاسيما المعارفُ والخبرات فقال:

والحقُّ تقولُ: إن الحكمة كانت جرياً على سننِ أو نسق القدماءِ في الرثاء. تلك التى تؤكدُ لنا أن الموتَ نهايةُ كلِّ حيٍّ حتى الوعولِ التى تعتصمُ بالجبالِ العاليةِ .. لكن ما زاد عليه هنا ذكره هي الأسبابِ التى قالَ فيها:

ولَقد جرَى لُبَــدٌ فـــأدرك جَرْيَـــهُ	رَيْـــبُ الزَّمـــانِ وكـــانَ غَيـــرَ مُثَقَّـــلِ
لمّا رَأى لُبَدُ النُّسُـــورَ تَطـــايَرَتْ	رَفَـــعَ القَـــوَادمَ كـــالفقيرِ الأعـــزَلِ
منْ تَحتِه لُقْمانُ يَرجـــو نَهضَـــهُ	ولَقـــد رَأى لُقمـــانُ أنْ لا يـــأتَلي
غَلَبَ اللَيالي خَلْـــفَ آلِ مُحَـــرِّقٍ	وكمَـــا فَعَلْـــنَ بتُبَّـــعٍ وبهِرْقَـــلِ

وغَلبْنَ أبْرَهَةَ الذي ألفيْنَهُ ... قد كانَ خلَّد فوقَ غُرْفةِ موْكلِ

والحارثُ الحرّابُ خلَّى عاقِلاً ... داراً أقامَ بها ولم يتنقَّلِ

تَجري خزائنُهُ على مَنْ نابَهُ ... مْجرَى الفراتِ على فِراضِ الجدولِ

حتّى تحمَّلَ أهلُهُ وقطينُهُ ... وأقامَ سَيِّدُهمْ ولم يتحمَّلِ

والشاعِرُونَ النّاطِقونَ أراهُمُ ... سَلَكوا سَبيلَ مُرَقِّشٍ ومُهلهِلِ

حيثُ قدمت الأبياتُ حواريةً مع النفسِ ذات طبيعة ملحميةٍ، وقد كان موضوعها الصراعَ بين جبروتِ الموتِ مع بانوراما الحياةِ الغرائبيةِ أو العجائبيةِ تلك التي ينطفئ بريقها على مسرح الزمان، وتنزوى منسحبةً بهدوء وكأن شئ لم يكن.

هذا ولقد تبلورت نظراته الصائبة، وتجسدت من خلال مشاهدَ دراميةِ تتسم بالواقعيةِ الشديدةِ الحساسيةِ الرافضةِ لكلِّ المزايداتِ الشكليةِ أو الصبغيات ذات الألوان المبرقشة.

ففي المشهد الأول: يصف لنا أرضاً غليظة نبت فيها الشجر الطيب الرائحة، وكانت بها جبال عاليةٌ لا يرتقى إليها أحدُ وقد وقف فى أعلاها صقر جرئٌ ومع ذلك لم يفلت من قبضة الموت، وكذلك نسر لقمان الذي عاش ثمانين عاماً، حتى إذا هرم عجز عن النهوض ولم يستطعْ أن يستجيبَ لأمرِ لقمانَ.

وفى المشهد الثانى: يجئ أبطاله من ذوات الأنياب من السباع الضارية كالأسود والذئاب والنمور والفهود التى يزجرها صاحبها فيجئ ردُّ فعلها سريعاً، فيكون أشبه بماء الدلو الذي يصبُ بسرعة.

مثل هذه السباع عندما تصابُ بالشيخوخة وذلك بفعل الزمان القاسى فإن تضاريسَ فمها تتغيرُ حتى إذا انطبق الفك الأعلى على الأسفل، وتخالفت أنيابه، لم يستطع الفريسةُ -على الرغم مما سبق- أن تتخلص من الإطباق، فإذا ما أصابته ظروف الدهر أو حدثانه تفرقت أنيابه.

وفى **المشهد الثالث** ينتقلُ الشاعرُ -متدرجاً من الطير والحيوان إلى الإنسان في متوالية منطقيةٍ هادئة ربما يهيئُ القارئ لمعرفة ما يستجد من العرض ذى القرع الشديد والملح على ذاكرته- فإذا كان جبروت الموت لا يرحم الطير والحيوان فهل ينجو منه الإنسانُ، لذا فإن الملوك والأمراء لابد أن ينتهوا إلى زوال، ولم تبق إلا آثارهم شاهدةً فآل محرق، وقوم تبع، وهرقل، والحارث بن عمرو بن حجر الكندي، وغيرهم من الشعراء العظماء أمثال المرقش الأكبر والمهلهل بن ربيعة التغلبي .. فكل هؤلاء اخترمهم الموتُ بعدَ أن ملأوا الدنيا صيتاً أو شهرةً وقد بلغَتْ الآفاقُ.

إنه من خلال المشاهد السابقة نستطيع القول: بأن الشاعرَ - بوعيه الفكري الوثَّاب نحو العقيدة الحقَّة، - والتأمل في قضايا الناس التى ليس لها حدودٌ، وأسرار الكون التى لا تنفى عجائبه - يحاولُ جاهداً سنَّ نظمٍ أخلاقيةٍ .. إنها حقائق مجردة، كونتها الشخصية المجربة والمشاهد الفردية المخابرة من خلال تلاعبِ الأقدارِ، وفجيعةِ الموتِ التي تجذبُ الأحياء وتأخذهم إلى اللارجوع.

إننا بالنظر إلى المسالك التعبيريةِ في الأبياتِ السابقةِ نرى استمرار الشاعر في بثِّ نظامه الصياغي والدلالي وفق ثبات نسبيٍّ في الإكثار من الأساليب القصرية التى نذكر منها:

("بظلوقها ورقَ البشام" – دونها صعب – في نابه عوج)، كما نلحظ – أيضاً – استمرارَ الوسيلة، وهى تقديم الخبر شبه الجملة على المبتـدأ، وذلك لتحديد وقصر الحكم عليه وذلك بتخصيصه وتوكيده.

وندققُ النظرَ – فيما سبق من أساليب– فنجد إصراره على الحضور المكثف للجملِ الاسمية، وذلك للتأكيد على تقريرِ الحقيقـةِ وتثبتهـا فـي الذهن، لتصبح مثلاً تقترب حثيثاً من القوانين ذات الثوابـتِ أو المعطيـات التقريرية تلك التى يتعاورُ عليها الفكرُ الإنساني، فتجئ ناموساً أشبه بمعتقد يُرَسَّخُ في الأذهانِ .. ولعل هذا ما يقربُ الشاعر إلى القيمة العقدية ..

كذلك فإن تنويع الصياغة –بما توجب الدلالة – إلى تقديم المفعـول به على الفاعل في:

(أصابه ريبُ الزمان – أدرك جريه ريبُ الزمـان) ربمـا للاهتمـام الزائد بالمفعول به سواءَ أكان سبعاً أو نسراً، وقد دخلا في صراع قد تقدم ذكره؛ لكن التركيزَ على المخلوقين، وما ستسفر عنها الأحداثُ.

كذلك فلقد لعب تبادل الأفعالِ الماضية والمضارعة دوراً كبيراً فـي إبرازِ المناوشة والترددية والصراع الدائم بين الحياةِ والموتِ بمـا يؤكـد تفاعلهما.

عوداً على بدءٍ فإنَّ الخيالَ قد وظِّف توظيفـاً رائعـاً فـي إيضـاحِ المعنى، وتقريبه على الرغم من ترشيد اسـتخدامه؛ ربمـا لأن الحقـائقَ تفرضُ نفسها...

وهنا نذكر من ذلك التشبيه الماثل فى قوله:

أوْ ذو زَوائدَ لا يُطـافُ بأرْضِـهِ   يغشَى المُهجهجَ كالذَّنوبِ المُرْسَـلِ

حيثَ شبَّهَ تفرقَ الأنياب، وتساقطها بسقوطِ النصلِ من قنانه، وقد ربطَ الماديَّ بالماديِّ في لقطةٍ إبداعيةٍ استطاع الشاعر – من خلالها – أن يجمعَ بين عنصرين مركبين ماثلين في الطبيعة، ليظهر لوحته الفنية الرائعة تلك التى شكلتها ريشةُ خياله العبقرى.

ثم البعد الاستعارى فى قوله:

فأصابَهُ رَيْبُ الزَّمانِ فأصبَحَتْ　　أنْيابُهُ مثلَ الزَّجاجِ النُّصَّلِ

حيثُ تخيلَ ريب الزمان إنساناً يصيبُ فحذفَ المشَّبه به، وجاء بلازمةٍ من لوازمه، أو صفةٍ من صفاته، وهي الإصابة، وسر جمالهِ هنا التشخيصُ للإيحاءِ بفعل الزمانِ، وأثره القاسي على الإنسانِ.

وكذلك في قوله:

ولَقد جرَى لُبَدٌ فأدركَ جَرْيَهُ　　رَيْبُ الزَّمانِ وكانَ غيرَ مُثَقَّلِ

حيثُ تخيل "ريب الزمان إنساناً يدركُ النسر وقد جاءَ بلازمةٍ من لوازمه، وهو الإدراك، وسرُ الجمالِ التشخيصُ.

والواضح أنه يجمع عناصر استعارتيه من بيئته؛ ليصوغَ الواقعَ اللغوي والمعرفي، وقد استثمر خصوصية التراكيبَ اللغوية، مبيناً مسألةَ إنمائها، وما تتضمنه من طاقاتٍ لخدمةِ أفكاره وعواطفه، وقد شخصَ المعنويَّ، بعد أن خلع عليه صفاتِ البشرية في دبيبِ الحياةِ وديمومتها.

البعد الرابع: القضاء والقدر:

وهذا الموضوعُ شغل الحنفاءَ كثيراً حيث ذكروه في شعرهم لا سيما المصيرُ المجهولُ الذى يقلقهم حتى استحوذ على تفكيرهم.

ننظر إليه وهو يقول:

لا يستطيعُ الناسُ محـوَ كتابـهِ أنـيَّ ولـيس قضـاؤه بمبـدلِ.

حيث يثبت لله العلي القدرةَ على كلِّ شيء؛ لذا فإن بيديـه مقاليـد الأمور، ولا يستطيع أحدٌ أن يغير شيئاً منه مهما كانت قوته.

فهذه الحقيقة الحنيفية تفضي إلى حقيقة توحيدية جلي تؤكد علـى وحدانية الله سبحانه وتعالى، وتقضي على الخرافات التي جثمت على صدر الجاهلية حيناً من الدهر كان مذكوراً.

وننظر إلى المسلك التعبيري هنا فنرى اسـتخدامه للنفيـين الأول: جاء موجباً في "لا" الآخر: جاء سالباً متضمناً معنـى النفـي الماثـل فـي الاستفهام المصدر في "أنّي" حيثُ "إن" نفي النفي يفيـد إثبـات الحقيقـة، وترسيخها في الذهن، فضلاً عن هذا كلّه فإن الاسـتفهام بكـل تداعياتـه ومكنون إسراره قدم قيمة طلبية، الغرض منه التعجب والاستنكار هنا.

هذا ولا ننسى "الباء" حرف الجرِّ الزائد الواقع في خبر "ليس" وقـد جاء به هنا للتوكيد الذي رنا الشاعر إليه.

على كلٍّ فإن لامية لبيد بن ربيعة استطاعت أن تقـدمَ - بأبعادهـا الفكرية وأنماطها التعبيرية والتصويرية - قيمةً عقديةً وقد استثمرت فـي عرض واقعه المعرفي مؤكدةً على وعيه الفكري الوثَّاب وموطئـةً لعقيـدةٍ سماويةٍ أخرى ألا وهي الإسلام.

المبحث الثانى

أبعادُ التجربةِ الفنيةِ

فى

عينيةِ حسان بن ثابت



أولاً: بطاقة الشاعر المعرفية:

اسمه ونسبه: هو حسانُ بن ثابت بن المنذر بن حرام[1] بنْ عَمْرو بن زيد قَنَاة بن عَدِيّ[2] بن عمرو بن مالك بن تَمْيم الله"[3] بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج[4] بن حارثة ابن علبة بن عمرو مزيقياء بن عامر بن ماء السماء بن حارثة الغطْريف بن امرئ القيس بن ثعلبة بنْ مازن بن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ ابن يشجُبُ بنْ يعْرُب بنْ قحطان[5] أمه الفريعة بنت خالد الخزرجية، أدركت الإسلامَ، ودخلت فيه، ولها صلةُ قرابةٍ برسولِ الله (ﷺ).

---

(١) قيل: إن المنذر بن حرام هو الذي تحاكمت إليه الأوسُ والخزرجُ في حربهم.

(٢) أمه مَغَالة بنت فُهيرة بن عامر بن بياضة بن عامر بن زُريق بن عبد حارثة بن مالك بن غَضْب بن جشم ابن الخزرج فتنسب إليها.... راجع: جمهرة أنساب العرب ص٣٤٧.

(٣) لقِّب بالنجار؛ لأنه ضرب رجلاً اسمه العنتر بقدُّوم فنَجره، وبنو النجار أخوال عبد الله والدُ الرسولِ "ص"، وهم من أكرم بطونِ الخزرجِ.

(٤) أمهم قيْلة بنت الأرقم بن عمرو بن جَفْنَة بن عمرو مزيقَباء أي أن الأم خزرجية.

(٥) راجع: جمهرة أنساب العرب ط٥ ص ٣٤٧ دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٢م.

فالمدققُ في نسبِ الشاعرِ يلمسُ صلته الوثيقةَ "بآل جفنـــة" ملــوك الشام، وكذلك إلى اللخميين ملوك الحيرة؛ لأنهم -جميعاً- من نسلِ عمـــروِ بن عامر[1] بن ماء السماء،..

---

(١) يذكرُ رواةُ الأخبار قصةً هي أقربُ للأسطورة مـــن الواقـــع، ومفادهـــا: أن عمرو بن عامر كان رئيسَ القومِ في بلاد اليمن السعيدة، ثم حدث أن توفي قبل سيل العرم فخلفه على الرئاسة أخوهُ عمران بن عامر، ولم يكن له ولدٌ، وقد كان ذا ثروة هائلةٍ حتى قيل: إنه أصابَ من الغنى ما لم يكن عند أحـــد من الملوك مثله، هذا ولقد كان في قومه كاهنةٌ اسمها طريفة فأنبأته يومـــاً بقرب انفجار سدِّ مأربٍ، فأسرَّ الخبر في نفسه حتى يدبر حيلةً يرحل بها إلى بلاد أخرى؛ لذا اتفق -مع أولاد أخيه- على أن يخاصموه بعد فاصـــلٍ مـــن إهانتهم له، ثم يتظاهر هو بالغضب ثم ينوي -على إثر ما سبق- على تنفيذ ما عزم عليه، وهنا يعرض أملاكه للبيع فيقبل الناس على شرائها ويقـــبض أثمانها وقد تحقق له ما أراد هو وأبناء أخيه حيثُ ارتحلا، وتفرقا في البلاد فنزل جد الأوس والخزرج يثرب، ونزل حارثة بن عمر بن عامر مكة وهـــم خزاعة، وذهب عمران بن عمر إلى عمان وهم أزد عمان، وسار جفنة إلى الشام وهم الغساسنة، وقصد لخم العراق ومنهم المناذرة.

على كل فإن المتأملَ في هذه القصة -إن صحت- يرى أنهـــا تفســـرُ مـــدى فخره بانتمائه إلى آل جفنه، وبالتالى فإنه كان كريم النســـب، ومـــن أهـــل البيوتات في العرب.

على هذا يُفَسَّرُ فخرُ الشاعرِ، وزهوهُ بنفسه حيثُ إنه حـــازَ علـــى نسب تليدٍ، ومجدٍ عريقٍ.

كنيته: يُكنى حسانُ أبا الوليد، وأبا عبيد الرحمن، وأبا الحُسام"

فبالنظر إلى الوليد فلربما يكون هو الابنَ الأكبرَ، وقد تُـــوفي صـــغيراً وبالتالى حلَّ محلَّه أبو عبيد الرحمن في الدرجة والمكانة والأســـبقية. أمـــا الأخيرة فلعلها كنيةٌ مجازيةٌ تؤكد أنه لسانُ الإسلامِ الصارمِ الذي جاء وقعه أنكى على أعداءِ الإسلامِ من وقعِ السنانِ.

من أخوته أوسُ بن ثابت، من جلَّة الصحابة (رضى الله عنه) شهد العقبة الكبرى مع سبعين من الأنصار، وقد اُستُشهِدَ يوم "أُحد"، وكان لأوس ابنٌ يدْعى شداد حيث كانت له صحبةٌ محمودةٌ، ووَلَدُ حسانٍ عبدُ الـــرحمنِ، وهو ابنُ خالةِ إبراهيمَ بن رسول الله[1].

مولده ونشأته: وُلدَ حسَّان قبلَ مولدِ الرســـول (ﷺ) بســـنوات، أي نحو عام ستين قبل الهجرة، ونشأ -بيثربَ بين قومه من الخزرجِ والأوس، ويهودِ المدينة- نشأةً حضريةً، وقد شهد كثيراً من الحروب وقد شاركَ فيها مشاركةً لسانيةً منافحاً للخزرج وهاجياً خصومها بجانبِ مشـــاركاته فـــي المواسم والأسواق[2] الجاهليةِ حيثُ ظهرَ الطـــابعِ البـــدويُّ عليـــه رغـــم حضريته، وذلك في ديوانه الشعريِّ الضخمِ.

---

(١) أمه سيرين أخت مارية أم ولد رسول الله (ﷺ).

(٢) كان يترددُ على المواسم والأسواق يوزع شعره فيها على النقاد، ويقال إنه عرض شعره فى سوق عكاظ على النابغة فأعجب به، وأثنى عليه، حيثُ أنه قدَّم -مفاضلةً- على الأعشى والخنساء.

لقد ذُكِرَ أنه اتصل "بآل جفنة" ملوك الشام حيثُ كان يقيمُ بالمدينة عاماً، ويفد إليهم -في عواصمهم- كجِلَّق والجَولان وبُصرى وغيرها- عاماً فيمدحُ أُمراءهم، واتصل أول ما اتصلَ بالأمير الغساني جبلة بن الأيهم ثم طمع في الملكِ الغساني نفسه عمرو بن الحارث بحيثُ كان يجد -في رحابه- احتراماً وتقديراً، وكان يفيض عليه من نعمه، كذلك فلقد مدحَ المناذرةَ وخصوصاً النعمانَ بنَ المنذر، وظلَّ هؤلاءِ الملوكُ يحفظون عهده، ويرعون ودَّه ويرسلون له الهدايا السنيةَ مثلما حفظَ جميلهم، أو عظيم فعلهم حتى آخر حياته، وذلك بأن أبدعَ في مدحِ الغساسنة والمناذرة معاً إبداعاً واضحاً.

ولما ظهر الإسلامُ -وهاجر النبي إلى يثرب- أسلمت الأوس والخزرج، وأسلم حسان فكان من الأنصار حيث ناصرَ الدينَ الجديدَ بلسانه الوحيدِ[1] الذي أشهره على أعداء النبى فصار -بذلك- شاعر الرسول

---

(١) انتهى كثيرٌ من النقاد إلى الزعم بأن جهاد حسان كان لسانياً بغض النظر في أنه كان متأصلاً أو طارئاً فهذا أمرٌ لا يعنينا كثيراً؛ لكنَّ ما يجبُ أن نسلمَ به هو أن حسان مثَّل دورين مهمين حقَّ التمثيل:

الأول: أنه تفرغ للتعبئة المعنوية أو النفسية وذلك بتحفيز جنود الإسلام وهذا سلاح من أقوى أسلحة الحروب في عصرنا الحديث وعلى العكس مع المشركين فلقد كان يثبط مساعيهم وذلك بكشف مخططاتهم الآسنة؛ ليهزمهم نفسياً.

يمدحهُ، ويردُ على مَنْ يهجوه من شعراءِ قريش، وكان النبي يقــولُ لـــه: "أهجهم وروحُ القدسِ معك" حتى جاء هجاؤه -للمشركين- فيه كثيرٌ مـــن الفحشِ والإقذاعِ وقد استخدم المعانيَ الجاهليةَ أكثرَ من الإسلامية.

لقد أصبح -في وقت قصير- شاعرَ الإسلام بحق، حيثُ هزمَ جميعَ الشعراءِ المشركين وأخرس ألسنتهم، ويكفى أنه كانَ محلَّ احترامِ رســـولِ اللهِ وذلك؛ لقوة شعره في الدفاع عن الإسلام حيثُ أظهرَ صـــورةً مناضـــلةً للإسلام على الشرك، كما يعطينا صورةً من تهاجي الأنصـــار والقريشـــيين وهنا نجد نوعاً جديداً من الهجاء ألا وهو الهجاء السياسي المستندُ علـــى عقيدةٍ متينةٍ؛ ولأنه من أخوال أبيه نقلَ النبيُّ زوجاته حين هوجمـــت إلـــى حصنِ حسان، وكان يقسّمُ له من الغنائم، وقد أهداه سيرين أخـــت ماريـــةَ القطبيةِ، كما أهداه بستاناً، وظلَّ الخلفاء بعد رسول الله يقـــدرون حســـاناً، ويقسمون له نصيباً من الغنائم. وفي خلافةِ عثمانَ كان حسانُ شديدَ الحب للخليفةِ فلما قُتل رضى الله عنه" ثارت ثائرةُ حسانُ وانضم إلى مـــن طـــالبوا بثأره وقدم نظمَ قصيدتَه النونيةَ التي قال فيها:

لتســـمعُنَّ قريبـــاً فـــي ديـــاركُمُ	اللهُ أكبـــرُ يـــا ثـــاراتِ عثمانـــا

وفى أواخر أيامه كُفَّ بصره، ومات في المدينة في خلافة معاويـــةَ سنة ٥٤هـــ، وكان من المعمرين، وقيل: إنه عاش مئةً وعشـــرين ســـنة ستين منها في الجاهلية، ومثلها في الإسلام.

طبقته: لقد عدهُ ابنُ سلامٍ أشعرَ شعراءِ القرى العربيةِ حيثُ ذكره بقوله:

الآخر: أنه ساهم بالنصيب الأكبر في حفـــظ تـــراث الانتصـــارات الحافلـــة للمسلمين على أعداء الله المشركين.

"هو كثيرُ الشعرِ جيدُه، وقد حُمل عليه ما لم يُحملْ على أحــد، لمــا تعاضهت قريشٌ واستتبت وضعوا عليه أشعاراً كبيرةً لا تُنقَّى"[1].

هذا ويقول أبو عبيدة "فُضِّلَ حسّان على الشعراءِ بثلاث: كانَ شاعرَ الأنصار في الجاهلية، وشاعرَ النبيِّ في النبوةِ، وشاعرَ اليمنِ كلِّهــا فــي الإسلام[2].

ويأمرُ الحطيئة الأنصار فيقول: ابلغوا الأنصــارَ أنَّ شــاعرهم أشــهرَ العرب حيثُ يقول:

يُغشَون حتى ما تهــرُّ كلابُهــم لا يسألونَ عــن السّــوادِ المقبــلِ

على كلٍّ فلقد استحق حسان -عن جدارة- لقبَ شاعرِ الإســلام، أو شاعرِ رسولِ الله وقد عاش فترةً إسلاميةً يناضلُ أعداءَ الإسلامِ من قريشٍ واليهود، وجميع مشركي العرب بسهامِ قوله الصائبة حتى قالَ رسولُ الله- وهو يستمعُ لبعضِ هجائه-: "لهذا أشدُّ عليهم من وقعِ النَّبل" وكــان (ﷺ) يحثُّه على النيل من المشركين، ويدعو له بمثل قوله " اللهم أيِّــده بــروحِ القُدُس"

---

(١) راجع: ديوان حسّان ص٦

(٢) تعاضهوا: تناهشوا ورمى بعضهم بعضاً بالعضيهة وهي الإفــك والبهتــان والشتيمة.

راجع: طبقات فحول الشعراء س ١ص ٢١٥ قراءة وشرح أبو فهــر محمــود محمد شاكر دار المدني جدة سنة ١٩٧٤م.

ورُوي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أمرتُ عبد الله بن رواحةَ بهجاء قريش فقال وأحسَن، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن، وأمرت حسّان بن ثابت فَشَفَى واشتفى. لقد كان يُنشدُ الرسول شعره في المسجد، وإذا جاءَ أيُّ وفدٍ من المشركين يفاخرُ رسولَ الله (ﷺ) ردَّ عليهم حسّان بما يسكتُهم.

ولما افتخر بنو عبد المدان في حضور رسول الله بأنهم أطولُ العرب قامات هجاهم حسّانُ برائيته المشهورة التي يقولُ فيها.

لا بأسَ بالقومِ من طولٍ ومن عِظَمٍ جسمُ البغالِ وأحلامُ العصافير

فلم يفتخرْ بعدها أحدُ بطول قامته.

وجاء وفدُ بني تميم لرسول الله ووقف شاعرهم مفاخراً بقومه التميميّن يفاخرُ فأمرَ النبيَّ (ﷺ) حسّان أن يردَّ عليه، وبالفعل نفَّذ حسانُ ما أُمرَ به حيثُ أثبت بلاغةَ الرسول، وقوتَه العسكريةَ .. كلُّ ما سبق – من قولٍ – يؤكدُ لنا أنه شاعرٌ فحلٌ متصرفٌ في فنون الشعر كلِّها حتى أجمعَ الروادُ على أنه أشعرُ أهلِ المدر؛ لكن كثيراً من النقاد يزعمون أن شعره في الجاهلية أقوى منه في الإسلام، ونحنُ نشايعُ هذا الزعمَ لأسبابٍ كثيرةٍ أهمها:

أولاً: أن حسانَ أدركَ الإسلامَ في سن الستين حيثُ خبت جذوة الشعر عنده، ولربما كسد سوقه حيثُ إن الطاقةَ الشعريةَ تبلغُ مدى قوتها أو غاية طاقتها ما بين الثلاثين والستين، ثم تبدأ في الضعف، وهنا يصابُ العملُ الشعريُّ – بالركاكةِ والضعفِ والابتذالِ.

ثانياً: أن الإسلام حارب كثيراً من الموضوعات القبلية التى طرقت من قبلُ كالفخر القبلي والشطط والمبالغة فى المـديح والمنـاظرات ووصـف الخمر والعصبيات والغزليات.. وتلك أمور كان الجـاهليون – ومـن بينهم حسان – يحسنون صنعتَها يؤكد هذا ما قاله الأصمعي: إن شعر حسان فى الجاهلية من أجود الشعر فقطعَ متنَه الإسلامُ، وقـد قيـل لحسان "لانَ شعرُك أو هرم في الإسلام يا أبا الحسان" فأجاب : "يا ابن أخي "إن الإسلامَ يحجزُ عن الكذب، أو يمنـعُ الكـذبَ، وإن الشـعرَ يزينُه"[1] يريدُ أن يقولَ: إن الشعرَ يدخله الكثيرُ والكثيرُ من المبالغة، وتجاوز الحقيقة أو المعقولية.

ثالثاً: أن السمت الارتجالي الذي اتبعه حسانُ في نظمه أفقده بعضـاً مـن جماليات الإبداع، وغاية الدقة والإمتاع الشعري؛ لأن الارتجالَ يفتقـرُ إلى التركيز الشديد، والإعداد والتنظيم أو حسن الترتيب.

وتأسيساً على ما سبق فإن شعرَهُ الإسلامي جـاء صـورةً لحيـاة الكفاح أو النضال ضدَ أعداءِ الإسلامِ بحيثُ أحسـنَ تصـويرَها، والتعبيـر عنها.

---

(١) راجع: ديوان حسَّان ص٦

ثانياً: القصيدة وشرحُها:

إنّ الذّوَائبَ منْ فِهْــرٍ وَإخْــوتَهمْ   قَــدْ بَيَّنُــوا سُــنَّةً للنّــاسِ تُتَّبَــعُ[1]

---

(1) المعاني:

الذوائب: جمع ذُؤابة وهى الناصية، أو منبتها من الرأس، والمراد السادة والأعيان والعظماء والأشراف راجع: اللسان مادة "ذأب"

فهر: هو فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خُزَيمة بن مُدْركه بن إلياس بن مُضربن بن نزار بن معدِ بن عدنان بن إسماعيل عليه السلام، والمراد بفهرِ هنا "قريش" راجع: جمهرة أنساب العرب ط٥ ص١٢ دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٢م.

إخوتهم: لعل المقصودَ بها هنا أنصار النبى (ص) حيثُ غلبت عليهم الصفةُ فجرى مجرى، الأسماء وصار كأنه اسم الحي، ولذلك أضيف إليه بلفظِ الجمع فقيل: أنصاري... راجع اللسان مادة "نصر".

سنة: السنة والسيرة والطريقة وسنة الله أحكامهُ وأمره ونهيه.... اللسان مادة "سنن"

تتبع: يتبعها الناس، ويدينون بها.

الشرح:

إنَّ سادة المهاجرين والأنصار -وعلى رأسهم الرسول الكريم- قد بينوا للناس طريقةً للخير، ومنهجاً للصلاح والفلاح والهدي والرشاد.

التخريج:

جاء الشطر الثاني برواية   : تقوى الإله وكلُّ الخير يُصطنعُ.

يَرْضى بها كُلُّ منْ كانَتْ سريرَتُهُ تَقْوى الإلهِ وَبالأمرِ الذي شَـرَعُوا[1]
قَوْمٌ إذا حارَبُوا ضَـرُّوا عـدُوَّهُمُ أوْ حاوَلُوا النَّفْعَ في أشْياعِهِم نَفَعوا[2]

---

(1) المعاني:

السريرة: كالسر وهو ما يكتمُ من الأسرار، ومـا يسـتكن مـنُ الضـمائر، والخاصُ من الإحساس والشعور، وقيل السريرة عمل السّر من خيرٍ أو شرٍ، والجمع السرائر.

التقوى: من وقي، حيثُ إن التاء مبدلةٌ من الواو، ومعناها الحذر والخوف.

شرعوا: سنوا، أو وضعوا للناس منهاجاً.

الشرح:

إن الذي -يرضى بهذا الدينِ الجديدِ، والمناهجِ التي وضعها الرسـولُ "ص" للناس- هو كلُّ من يخشى الله تعالى، ويعمل جاهداً على مرضاته.

(2) المعاني:

القوم: الجماعة: من الرجال والنساء جميعاً، وقيل: هو للرجال خاصـة دون النساء ولا واحدَ من لفظه، والقوم يذكر ويؤنث راجع: اللسان مادة "قـوم" ويجمع على أقوام، وجمع الجمع أقاوم، وأقاويم.

حاربوا: عادَوا جاولوا: هنا بمعنى راموا وطلبوا

الأشياع: جمع شيعة وهي أتباع الرجل وأنصاره وفرقته، تطلق على المذكر والمؤنث مفرداً أو مثنى أو جمعاً، وغلبت على أتباع عليٍّ- كرّم اللهُ وجهـه حتى صارت علماً عليهم.

=

سَجِيَّةٌ تِلْكَ مِـنهُم غَيْـرُ مُحْدَثَـةٍ   إنَّ الخلائِقَ حَقّـاً شـرُّهَا البِـدَعُ[1]

- الشرح:

يصف الشاعر بني فهرٍ وإخوتهم بأنهم جادون في تعاملهم مع الناس، فمتى أُنتدبوا لحربِ عدّوهم بذلوا كلَّ مرتخص وغالٍ في سبيل الظفـر بعـدوهم، وإلحاق الخسارةِ بهم، وإذا عاملوا إخوانهم في الدين وأتباعهمَ كانوا رحماء نافعين كلَّ النفعِ.

(1) التخريج:

هكذا جاء البيت فى ديوانه ج1 ص102 أما في الأغاني ج4 ص363 طبعة دار الشعب فقد جاء الشطر الثاني

:إن الخلائق فاعلم شرُّها البدَعُ

فلعل "فاعلم" محرفة من "حقاً"

المعاني:

السجية: الطبيعة والخلُق من غير تكلفٍ، مأخوذةٌ من سجي إذا سكن ودامَ.

غير محدثةٍ: أي تليدة فيهم غير جديدةٍ بحيثُ جاءت متوارثةً عـن الآبـاءِ والأجداد منذُ القدم.

الخلائق: جمع خليقةٍ، وهي الطبيعة التي يُخلقُ بها الإنسان.

البدع: جمع بدعة وهي الأشياءُ المسـتحدثة المخالفـةُ للطبـائعِ، والأذواقِ السليمةِ.

الشرح:

يقول الشاعر: إن شجاعتهم وكرمهم ونجدتهم أمور متأصلةٌ فـيهم بحيـث سرت في حناياهم مسرى الدم فى العروق، ولا شك أن الطبـائع الأصـيلةَ والسجايا الكريمة خيرٌ من المحدثات الخارجة عن أصول أو أطـر الـذوق والطبع والفطر السليمة.

لا يَرْفَعُ النَّاسُ ما أَوْهَـتْ أكفُّهُـمُ	عِندَ الدفَّاعِ، ولا يوهونَ ما رَقَعَـوا[1]
إنْ سَابقُوا الناس يوماً فاز سَبقُهُمُ	أَوْ وازَنُوا أهلَ مَجْدٍ بالندى مَتَعُـوا[2]

---

(1) **التخريج**:

ذكر الأغاني ح٤ ص١٣٦٣ طبعة دار الشعب رواية أخرى للبيت وهـي. لا يرفع ..:عند الرقاع.....

فلعل "الرقاع ومعناها ما على المرء من الحقوق المكتوبة فى الرقاع محرفة من الدفاع"..

المعاني:

يرقع: من رفع الثوب إذا أصلحه بالرقاع، أو ألحم خرقه.

أوهت: خرَّقت وشققت من الوَهْى وهو الشق في الشئ وهي كوعى ووهَـى بمعنى تخرَّق وانشق، وتجئ بمعنى أرخت رباطه، والمراد أسقطت"

الدفاع: الزحام في ميادين الحياة، وشؤونها المختلفة.

الشرح:

إن هؤلاء المؤمنين الصادقين المخلصين الموفين إذا عاهدوا يرفعون مـن شاءوا ويخسفون من أرادوا بينما لا يستطيع الناس أن يغيروا فيما صـنعوا شيئاً؛ لأن الكلمة والسبق والواجهة العليا لهم حيثُ إنهم أهلها في كلّ محفلٍ أو ميدان.

(2) **التخريج**:

جاء هذا البيت في ديوان حسان ح١ ص١٠٢؛ لكن الأغاني لم يشر إليه من قريبٍ أو بعيدٍ.

=

إن كان في الناس سبّاقون بعـدَهُمُ   فكُلُّ سَبْقٍ لأدنَـى سَبْقِهِمْ تَبَـعُ[1]

= المعاني:

سابقوا: تنافسوا مع الناس.

فاز سبقهم: انفردوا بالصدارةِ   وازنوا: وازن الناسُ بينهم، وبين منافسهم.

الندى: الكرامة والجمع أنداء وأندية "على غير قياسٍ.

متعوا: أشبعوا ضالةَ الناس.

الشرح:

إن نافسوا الناس فى أي مجالٍ أو ميدانٍ من ميادين الحياة انتزعوا الفوز بقوةٍ، وكذلك الأمر إن أحدث الناس موازنةً بينهم وبين غيرهم- ممن اشتركوا في صفة المجد والكرم- غلبت هذه الصفاتُ عليهم، ثم كانت المفاضلةُ من نصيبهم.

(1) المعاني:

سباقون: جمع سباق وهو المتقدم على غيره من الناس في الميدان أو الحلبة   الأدنى: الأقرب سواءً أكان القرب نفسياً أو مكانياً.

تبع: أي تابع

الشرح:

يتشكك الشاعرُ في وجود من يستطيعون سبق هؤلاء الأكارم، إذ لا يوجدُ من يسبقهم فى أي مجالٍ من مجالات الحياةِ.. إنه أن كانَ في الناسِ سباقون إلى المجدِ والعلا فإنهم يحتلون المرتبة الثانية بعدهم.

وَلا يَضِنُّونَ عَنْ مَـولًى بفَضْـلِهِم   وَلا يُصيبُهُمُ فـي مَطْمَـعٍ طَبَـعُ[1]

لا يجهلونَ وَإن حاولْـتَ جَهلَهُـمُ   في فَضْلِ أحلامهِمْ عن ذاكَ مُتَّسَعُ[2]

---

(١) التخريج:

جاء الأغاني ح٤ ص ١٣٦٣ برواية أخرى للشطر الأول غير ما أثبتها فى المتن وهي:.... عن جار..

فلعل "جار" محرفة من "مولي" لا سيما أن اللفظتين معناهما متقاربان.

المعاني:

يضنون: من ضنَّ بمعنى أمسك وبخل.

المولى: المُوالي والمناصر والمُحالف.

المطمع: ما يطمع في تحقيقه وتحصيله من الأماني الطيبة.

الطبع: الدنس والعيب والأوساخ.

الشرح:

يقول: إن هؤلاء العظام لا يبخلون عن حليف أو نصـير بفضـل؛ لأنهـم لا يدنسهم فيما يطمعون في تحقيقه من الآمال العظيمة أي ينسب فيه دنسٌ أو وسخٌ أو عيبٌ.

(٢) المعاني:

لا يجهلون: لا ينصرفون تصرفاً يتسم بالخفة والنزق والحمية والحماقة في تعاملهم مع الناس.

حاولت: تعمدت وقصدت

فضل أحلامهم: جمال وجوههم، وكمال أجسامهم، والحلم هو الأناةُ والعقـلُ، وجمعه أحلام وحُلُوم ونقيض الحِلْم السَّفَه....... راجع: اللسان مادة "حلم" =

أعِفّةٌ ذُكِرَتْ في الــوَحيِ عفّــتُهُمْ لا يَطْمعــونَ وَلا يُــرْديهمُ الطّمَــعُ[1]
كم من صَديقٍ لهمْ نالوا كرَامَتَهُ، ومَنْ عَدُوّ عَليهمْ جاهــدٍ جــدعوا[2]

= الشرح:

يقول الشاعر: إنهم عقلاء يتوخون الأناة والصبر والاحتمال؛ لذا فإنه لا يقع غضب يدخلهم فى دوامة البطش أو الحماقة فلو قصد أحد إخــراجهم عــن صوابهم، أو طبيعتهم الحكيمة وتصرفاتهم المهذبة المتعقلة فلن يســتجيبوا له، وستبقى أخلاقهم نموذجاً أصيلاً تتلاشى أمامه صــور جهــل الجــاهلين المشوّهة أو المنبوذة...

(١) التخريج:

هكذا جاء فى الديوان أما فى الأغانى ص ١٣٦٣ ط دار الشعب فلقد جــاء الشطر الثاني برواية :

لا يطبعون ولا يرديهم الطمعُ..

المعاني:

أعِفّة: جمع عَفّ وعفيف وهو من كَفَّ عما لا يحل له، ولا يحسنُ به.

الوحي: يقصد الموحى به، وهو القرآن الكريم.

لا يُرْديهم: لا يحقرهم.

الشرح:

يقول الشاعر: إن أصحاب الرسول شمُّ الأنوف، أعفة بحيثُ يترفعــون عــن صغائرِ الأمورِ، ويرفضون الطمعَ؛ لذلك أثنى علــيهم مــولاهم، وأعطــاهم القرآن في ألمعِ بيانٍ.

(٢) المعاني:

نالوا: حصلوا وحازوا.

كرامته: احترامه وتقديره. =

أعطَوْا نبيَّ الهُدي وَالبرّ طاعَتَهُمْ، فمَا وَنَى نَصرُهُمْ عنْهُ ومَا نَزَعـوا[1]
إن قال سـيرُوا أجَـدُّوا السَّـيْرَ أوْ قالَ عُوجُوا علَينْا ساعةً، رَبَعُوا[2]

= جدعوا: الجدع: القطع البائن فى الأنف والأذن والشفة واليد، والمراد به هنا قطع دابرهم بعد أن حبسوا.

الشرح:

يقول الشاعر: إن المنعة والقوة والعزة والكرامة يفيد منها صديقهم بينما لا يكسب عدوهم منهم غير الضعف والذل والهوان.

(1) المعاني:

أعطوا: انقادوا له　　الهدى: الرشاد والدلالة على الخير والشر.

البرُّ: الصلة والخير والإحسان.

الطاعة: الانقياد　　ونى: فتر وتأخر.. اللسان مادة "وني"

النصر: المعاونة　　نزعوا: انفضوا

الشرح:

يقول الشاعر: لقد أسلموا أنفسهم لله، وألقوا قيادتهم لرسـول الله وقـدموا أرواحهم وأموالهم في سبيل الله، فما وهنوا وما استكانوا في موقـف مـن المواقفِ، أو موضع من المواضع.

(2) المعاني:

أجدُّوا: اجتهدوا، وبذلوا كلَّ ما في وسعهم ولم يتخاذلوا.

الجهد: الطاقة والقدرة

عوجوا: قفوا.　　ربعوا: انتظروا........ راجع: اللسـان مـادة "ربع"

الشرح:

يقول الشاعر مصوراً طاعتهم الكاملة وانقيادهم التام لرسول الله (ص): إنهم تحت أمره، حيثُ يبذلون كلَّ مرتخص وغالٍ في سبيل نيل رضاه.

ما زَالَ سَيْرُهُمُ حتّى استقادَ لهـمْ أَهْلُ الصّليبِ، ومنَ كانتْ لهُ البيَـعُ[1]
خُذْ منهُم ما أتى عَفْواً إذا غَضبُوا ولا يكُنْ همُّك الأمرَ الـذي مَنَعُـوا[2]

---

(١) التخريج:

جاء الشطر الثاني برواية :أهل الصّليب ومَنْ كانت لهم بيعُ

المعاني:

زال: من الزوال بمعنى الذهاب والتحول، ومازال هنا معناها ما تغير سيرهم.

استقاد: انقاد واستسلم وخضع. وأهل الصـليب: النصـارى بحيـثُ إنهـم يتخذونهم قبيلة

البيع: جمع بيعة وهي كنيسة النصاري وقيل: كنيسة اليهود راجع اللسـان مادة "بيع"

الشرح:

يقول الشاعر: لقد استمر أصحاب رسول الله (ص) في طاعتهم وانقيـادهم للرسول حتى ذل النصارى، وخضع اليهود، وآمن المشركون ورفرفت ألوية الإسلام على دولته القوة.

(٢) المعاني:

العفو: أحلُّ المال، وأطيبه. الهم: الحزن.

الشرح:

يقول الشاعر: إنهم يحاربون أبطالاً ويقاتلون شجعاناً، فإذا غضبوا هاجـت الدنيا، وإذا ثاروا أطاحوا بكلِّ من يقف أمامهم، ولا مجالَ لإثنائهم عما هـم ماضون فيه.

فإنّ في حَرْبِهِمْ، فاتْرُكْ عداوتَهَمُ، شَرَّاً يُخَاضُ علَيْهِ الصّابُ والسَّـلَعُ[1]

نسَمَوْا إذا الحرْبُ نالتَنْا مَخالِبهُـــا إذا الزّعانِفُ منْ أظفارِها خَشَـعُوا[2]

---

(١) المعاني:

عدواتهم: مخاصمتهم. يخاض:فعل مبنى للمجهول من خاض بمعنى المشـــي في البحر، وخضت الغمرات بمعنى اقتحمتها.

الصَّاب: هو عصارة شجر المرّ، وقيل هو شجر إذا اعتصر خرج منه كهيئة اللبن واحدته صابة .. راجع اللسان مادة "صوب".

السَّلَع: شجر مر أو ضرب من الصبر، أو بقلة خبيثة الطعم.

الشرح:

يقول الشاعر: إن من يحاربهم يركبُ مركبَ الشرِّ الوعرِ، ثم يخوض به فيه من عصارات الصاب وقطراته من شراب السلع.

(٢) التخريج:

جاء الشطر الأول في الأغانى ج٤ ص١٣٦٣ كالتالي: يسمون للحرب تبدوا وهي كاحلة.

المعاني:

نسموا: نعلو ونرتفع. مخالب الحرب: أسلحتها.

الزعانف: جمع زعنفة وهي الجماعة التي ليس أصلها واحداً، أو الأرذلـــون من الناس، أو القطعة من الثوب.

الشرح:

يتحدث الشاعر قائلاً إن لدينا من القوة والمهارة ما يمكِّننا من الارتفاع فوقَ حدِّ الخطرِ، فإذا وصلت إلينا مخالبُ الحربِ فإننا نبذلُ كلَّ ما لدينا من طاقات حتى يُكْتَبَ لنا النصرُ...... إننا لا نفعلُ مثلما تفعلُ الزعائفُ التــي تخـــافُ نارها.

لا فَخْرَ إنْ هُـمْ أصَـابوا مـن وإن أصيبُوا فَلا خُـورٌ وَلا جُـزُعُ[1]
كأنهُمْ في الوَغى وَالموْتُ مُكتَنِعُ أسْدُ بِبيشَةَ فـي أرْسَـاغِها فَـدَعُ[2]

---

(١) **التخريج**:

جاء الشطر الأول برواية: لا فخر إنْ هُمْ أصابَهُم من عدّوهم.

المعاني:

الخور: الضعف.

الجزع: شدة الخوف.

الشرح:

يقول الشاعر: إن المسلمين عندما ينتصرون على عدوهم فإنهم لا يفخرون، أو يبالغون في الفرح مبالغةً تصلُ إلى حدّ الغرورِ والكبرياء، وإذا أصـابوا عدوهم وانتصروا في المعركة ونالوا منهم عدوّهم لا يتسرب إليهم الضعف وفي هذا أكبر دليلٍ على اعتدالهم واستقامة أمورهم واتزان نفوسـهم فـي النصر والهزيمة.

(٢) **المعاني**:

الوغى: الحرب. مُكْتَنِع: لازم وضروري.

بيشته: مأسدة في وادٍ بطريق اليمامة.

الأرساغ: جمع رُسْغ، وهو المفْصل الذى بين الساعد والكف.

الفدع: إعوجاج الرسغ، وميل قرب الفاصل.

الشرح:

يقول الشاعر: إنهم فى ساحة القتال حيثُ تحيط بهم الفرسانُ من كل جانـب يزأرون كأسود بيشة التى أعوجت أرساغها بسبب قوتها وشدة صـلابتها، وقتل عضلات أجسادها علماً بأن هذه الإعوجاج يجئ من كثـرة المداومـة بالوقوف الطويل والانتظار أو الترقب لاصطياد الفريسة.

إذاَ نصَـــبنَاَ لِقَـــومٍ لا نـــدَبُّ لهُـــمْ ... كما يَدِبُّ إلـــى الوَحْشِـــيّةِ الـــذَّرَع[1]

أكْرِمْ بقَـــومٍ رَسُـــولُ اللهِ قائِـــدُهُمْ ... إذَا تفَرّقَـــتِ الأهْـــوَاءُ وَالشِّـــيَعُ[2]

---

(١) **المعاني**:

نصبنا لقوم: عاديناهم. ندب: نمشى على مهل وهينة.

الوحشية: واحدة الوحوش، والمراد بها البقرة الوحشية.

الذرع: الناقة التي يستتر بها الصيادُ عندما يرمي الصيد والناقة التـي تعـد لذلك تعوَّد الاختلاط مع الحيوانات التى تُصاد حتى تأنس إليها، وتقف بينهـا ثم يأتى الصائد ويتدرَّأ بهذه الناقة ويرمى صيده بما معه من سلاح.

الشرح:

يقول: إننا إذا عادينا أناساً فإننا نجاهرُهم بالعداء وعندما نجئ إليهم فإننـا نقابلهم في الميـدان مقابلـة الصـناديد لا نـأتيهم مخـاتلين فهـذا فعـل الجبناء.....الذي نتمثلُ به.

(٢) **التخريج**:

جاء الشطر الأول برواية: أكرم بقوم رسول الله شيعتهم.

فلعل "شيعتهم" محرفة من "قائدهم".

المعاني:

الأهواء: مفردها هوى، والمراد بها الآراء والميول والاتجاهات أو النزوات.

الشيع: مفردها شيعة، والمراد بها الآراء أتباع الرجل وأنصاره وفرقته.

الشرح:

يتناول الشاعر حديثاً عن القوة التي يمد الله بها المسلمين حيث إنــه بهـا ناصرهم وآزرهم حتى كانوا أكرم القوم، وأروعهم لا سـيما فـى اتحـادهم عصبة بينما يتفرقُ الآخرون بعواطفهم وميولهم وآرائهم الموزعة.

أهْدَي لهم مِدْحَتى قلبُ يُؤازرهُ فيماً يُحِبُّ لسانُ حائِكُ صَنَعُ[1]

فإنهم أفْضَلُ الأحْيَاءِ كُلِّهِمِ إن جَدَّ بالناسِ جِدُّ القولِ أو شمعوا[2]

---

(١) التخريج:

جاء في الديوان الشطر الأول برواية: أهدي لهم مِدّحي قوم

فلعل "قوم" محرفة من "قلب"

المعاني:

يؤزاره: يساعده ويعضده. حائك: صائغ أو صانع ماهر.

صنع: حاذق حكيم.

الشرح:

يقول الشاعر: إننى أقدم خالص مدحي وأصدق قولي من عواطفي القلبية النبيلة وما يمليه عليّ ضميرى حيث يدلل عليه ويصادق ما فيه لسانٌ حاذقٌ يحسن رواية الشعر واستنشاده.

(٢) التخريج:

جاء الشطر الثاني : إنّ جدَّ بالناسِ جدُّ القولِ أو سمعوا

المعاني:

الأحياء: جمع حيّ وهو البطن من بطون القبائل.

جدّ: ضد الهزل. القول الجاد: الصادق.

شمعوا: لعبوا أو فرحوا.

الشرح:

إن أصحاب الرسول أفضل الخلائق والجميع يعرفون هذا، ونحن نعرفه في حدّ الناس ومزاحهم.

ثالثاً: مناسبة[1] القصيدةِ:

من بين الوفود التي قدمت من أنحـــاء الجزيــرة -إلـــى المدينـــة المنورة- التي كان الرسول (ﷺ) مقيماً بها؛ وذلك لتعلن إسلامها- وفدُ بني تميمٍ المكونُ من سبعين رجلاً[2] على رسولِ الله يتقدمهم الأقرعُ بن حابس، وقيسُ بن الحارث، وعيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري الذي شهد -هو والأقرعُ بن حابس- فتحَ مكةَ مع رسول الله (ﷺ) وحنين والطـــائف، وكان من عادة الوفود اصطحابُ شـــعرائها وخطبائهـــا وفقهائهـــا؛ لأنهـــم المحدثون الرسميون بلسانهم حيثُ إنهم السفراء الفعليون لقبائلهم، فلمـــا دخل الوفد المسجد نادوا الرسول (ﷺ) -من وراءِ حجراته بصـــوتٍ عـــالٍ جافٍ: أن اُخرج إلينا يا محمدُ فقد جئنا لنفاخرك، ومعنا شاعرنا وخطيبنـــا؛ فخرج إليهم رسولُ الله (ﷺ) فجلس، فقام الأقرع بن حابس فقال: "والله إن مدحي لزينٌ، وإن ذميّ لشينٌ، فقال النبيُّ (ﷺ) ذلك الله؟... فقال: أنا أكـــرم العرب فقال رسول الله ص: أكرم منكم يوسفُ بن يعقوب بن إســـحاق بـــن إبراهيم عليه وسلم فقالوا: فأذنْ لشاعرنا وخطيبنا، فقامَ رسولُ اللهِ فجلس، وجلس معه الناسُ فقام عطارد بن حاجب بن زرارة خطيب بنى تميم فقال:

"الحمد لله الذي له الفضلُ علينا، وهو أهله الـــذى جعلنـــا ملوكـــاً، ووهب لنا أموالاً عظاماً نفعل منها المعروفَ، وجعلنا أعزَّ أهلَ المشـــرق،

---

(١) راجع: الأغاني ح٤ ص١٣٦١ وما بعدها.

(٢) جاء في الأغانى ح٤ ص١٣٦١ أن الوفد مكونٌ من ثمانين رجلاً.

ليس فى الناسِ مثلُنا، ألَسْنا برءوس الناسِ، وذوى فضلهم! فمن فاخرنــا فليُعَدِّد مثل ما عدّدْنَا، ولو نشاء لأكثرنا، ولكننا نستحي من الإكثــار فيمــا خولّنا اللهُ وأعطانا، أقول هذا فأْتوا بقولٍ أفضل من قولنا، أوأمر أبينَ مــن أمرنا، ثم جلس فقال رسولُ الله (ﷺ) لثابت بن قيس الأنصاري الخزرجــي يا أخا بني الحارث قُمْ فأجب الرجل في خطبته.

فقام ثابت بن قيس بن شماس فقال: الحمــدُ لله الــذي الســمواتُ والأرضُ خَلْقُه، قضى فيهنّ أمرَه ووسِعَ كرسيّه وعلمه، ولم يقض شيئاً إلا من فضله وقدرته، فكان من قدرته أن اصطفى من خلقه لنا رسولاً أكرمهم حسباً وأصدقهم حديثاً، وأحسنهم رأياً، فأنزل عليه كتابــاً وآئتمنـــه علــى خلقه، وكان خيرَه الله من العالمين، ثم دعا رسولُ الله (ﷺ) إلــى الإيمــان فأجابه من قومه، وذَوي رَحِمه المهاجرون أكرمُ الناس أنســاباً، وأصــبح وجوهاً، وأفضلُ الناس فِعالاً؛ ثم كان أولَ من اتبع رســول الله (ﷺ) مــن العرب واستجاب له نحنُ -معشر- الأنصــارِ، فــنحن أنصــارُ الله ووزراءُ رسولهِ، نقاتل الناسَ حتى يؤمنوا ويقولوا: لا إلهَ إلا الله، فمن آمــن بــالله ورسوله منَعَ مناً مالهَ ودَمَه، ومن كفرَ باللهِ ورسوله جاهَــدْناه فــي الله، وكان جهادُه علينا يسيراً، أقــول قــولي هــذا واســتغفر اللهُ للمــؤمنين والمؤمنات.

فقام الزبرقان بن بدر بالتميمى شاعر بني تميم فقال:-

نحنُ الملوكُ فلا حَــيَّ يُقاربُنــا ... منّا الملوكُ وفينا يؤخَذُ الرّبُــعُ[1]
تلك المكارمُ حُزناهــا مُقارَعــةً ... إذا الكرامُ على أمثالِها أقترعُوا[2]
كم قد نُشْدنا من الأحياء كلِّهــم ... عند النِّهاب وفضلُ العــزّ يُتَّبَــعُ[3]
وتنحَرُ الكُومَ عُبْطاً فى منازِلنــا ... للنازلين إذا ما أستَطْعموا شَبِعواُ[4]
ونحنُ نُطعمُ عند المَحْل ما أكلوا ... من العَبِيط إذا لم يظهر القَــزَعُ[5]
وننصرُ الناسَ تأتينــا سَــرَاتُهُمْ ... من كلِّ أوْبٍ فَتَمضى ثــم تُتّبَــعُ[6]

ولما بدأ الزبرقان فى أبياته تفقد رسول الله (ﷺ) حسان فلم يجــده فبعث إليه.

قال حسان فلما جاءني رسولُ رسولِ الله وأخبرني أنه إنما دعــانى لأجيب شاعرَ بنى تميم خرجتُ إلى رسولِ الله، وأنا أقولُ:

مَنَعْنَا رسول الله إذا حَلَ وسْــطَنَا ... على كُلَّ باغ من مَعَــدٍّ وراغِــمِ

---

(١) الربع: أي المرباع وهو ربع الغنيمة، وكان ينفرد بها رئيس القبيلة.

(٢) مقارعة : منازلة

(٣) قسرنا: القسر الإكراه النهاب: الغنائم

(٤) عبطاً: اعتباطاً دون علة الكومة: جمع أكوم وكوماء وهي الإبل العظيمة السنام الأروحة: الأصل

(٥) المطعم: الطعام الشواء: اللحم المشوي

يؤنس: يرى ويعرف القزع: المطر

(٦) السراة: الأشراف.

منعناهُ لمَّـا حَـلَّ بَـيْنَ بيُوتنـا بأسْيَافنا من كُـلِّ عَـادٍ وظَـالم

بحَـيٍّ حَريـدٍ عـزُّهُ وثَـرَاؤُهُ بِجَابيَةِ الجَوْلَانِ وَسْطَ الأَعَاجِمِ[(١)]

هل المجـدُ إلا السُـوْدَدُ الْعَـوْدُ وجَاهُ المُلُوك واحتِمَالُ العَظَـائِمِ

قال فلما انتهيت إلى رسول الله (ﷺ): وقال شاعر بني تميم ما قـال عرضت في قوله وقلتُ على نحو مما قال ... فلما فرغ الزبرقان بن بـدر من قوله.... قال النبي: أجب شاعر القوم قلت: ماذا قال؟ قـالَ: فـأمره فأعاد قوله، فلما فرغ، قلتُ في معارضته":

"إن الذوائب من فهر................" مرتجلاً إياها..........)

ولما فرغ حسانُ من قصيدته، قال الأقرع بن حابس: "وأبى" إن هذا الرجل- يعنى رسول الله- لمُؤْتَى له، لخطيبُه أخطبُ من خطيبنا، ولشاعرُهُ أشعرُ من شاعرنا، ولأصواتُهم أعلى من أصواتنا" ولم ينفض المجلـسُ إلا بدخولهم في الإسلامِ وتصديقهم الرسول (ﷺ) وانقيادهم وطاعتهم له حيـثُ مكثوا عند النبي زمناً يتعلمون القرآن، ويتفقهون في الدينِ، وهؤلاء الذين نزل فيهم قوله تعالى: (إنَّ الذينَ ينَادونَكَ من وراءِ الحُجُـراتِ أكثـرُهُم لا يَعْقلون).

رابعاً: تجربة الشاعر وأبعادها:

اجتهدَ كثيرٌ من الباحثين والدارسين فى إيجاد تعريفِ حدِّي للتجربةِ يمكِّنُهم من رسمِ صورة تقريبية للشعر، تسهمُ فى ترسيمِ وتشـكيل البوابـةَ

---

(١) حريد: متفرد عن القبائل؛ لأنه قـوي بنفسـه الجـولان: جبـل بالشـام الأعاجم: الروم.

الرئيسيةِ التى يمكن من خلالها الولوج إلى مضمونه وبعد مدَّ الإسـهابات وجزر التفنيدات اتفقوا على أنه "عبارةُ عن صياغةٍ فنيةٍ لتجربة شعريةٍ"

فمادة الشعر – في تصورهم إذن – هي التجربة الصـادقة، لكـنهم اختلفوا حول تفسير مضمون التجربة هل هي الشخصـية التـى تتفاعـل وتتحاورُ في نفس الشاعر أو الأديب إذ يدوّنُ عنها هذا الحوارَ أثناء قراءة نفسه، أم هي التجربة الشخصية المنتجة على الإنسان، أم هـي التجربـة الذاتية التى يتمثلها الشاعر، وقد رآها أو رسمها بحيث يستوحيها ويتحدث عن طريق التعاطف ثم ينشرها فكراً.

على كل فإننا نرى أنها الذاتية التى لها صلة بالموضوعية أي تحمل طابعاً وجدانياً يجعلُ فيها الشاعرُ ذاتَه مصدرَ الموضوع.

ولمَّا نحاولُ التعرفُ على تجربة حسان فى "عينيته" فإننـا نجـدها ذاتيةً في صدورها عن مشاعر صاحبها ثم صارت غيرية؛ لأنها تمثل كـلَّ مشاعرِ المسلمين وفخرهم؛ لأنهم نصـروا الرسـول (ﷺ) وآووه وقـاتلوا المشركين حتى كُتِبَ لهم النصرُ بإذن الله تعالى، هذا ولقد استطاعت أبعادها أن تُتَرجِم -بأمانة- مضمونها وأهدافها على النحو التالي:

الأول: البعد الفكري:

لعلنا لا نخطئ الظن إذا قلنا: إن عينية حسان لم تأت عبثـاً؛ لكـن جملةَ بواعثَ مهمةٍ قد استطاع الشاعر تخليقها وتأطيرها أو صبُّها- فـي قواريرها أو قوالبها الفنية-؛ لتشكل بعدها الذي طمح أو سعى إليه شاعرنا وأهمها:

أن المهاجرين –من قريش الذين تركوا أهليهم وأموالهم وأولادهم وديارهم ومساكنهم التى نشأوا بها ولاقوا كثيراً من الأذى؛ وذلك حباً في رسول الله (ﷺ) –كانوا محاريثَ فعليةً وقد استطاعت أن تشق التربة اليثربية ليغرس فيها رسولنا الكريمُ القيمَ والمبادئ والتعاليم الإسلامية الحقة، ويرويها بعرقه حتى جنيِ المسلمون ثماراً طيبة أحالوها أو صاغوها– فيما بعد –غذاءً روحيّاً وفكريّاً معاً...... هذا أولاً.

ثانياً: استطاع الشاعر أن يبلور عدة رؤى فكرية، وقد شكلتها أدواته التقنيةُ و التعبيرية بكل مسالكها ومحاورها وإيحاءاتها... هذه الرؤى أسهمت بشكل كبير في رسم الخارطةِ المعرفيةِ والمنهجيةِ والعمليةِ للإسلام الحنيفِ نذكر منها:

أن تقوى الله عزَّ وجلَّ أساسٌ ضروريٌّ، بل قاعدةٌ أساسية تنطلقُ منها التصرفات أو الأعمال التى تحقق الرضا، والتقرب إلى الله سبحانه، وكذلك إن من سمات المسلم الحق أن يتحلى بالشجاعةِ والنجدةِ وروحِ البطولةِ والإقدامِ والكرمِ ونكرانِ الذاتِ؛ لأن الإسلام أعلى من شأنه عقلياً وفكرياً وروحيّاً ونفسياً، ليمنحه حياة كريمة بعيدةً عن الذلِ والهوان والاستسلام الذي جناه من غرس العبودية الجاهلية.

ثالثاً: أرست العينيةُ –بشكل تأسيسيٍّ بعضاً من الدروس التعليميةِ التي تعينُ المسلمين على إصلاحِ معايشهم في الحياة الدنيا، وتقربهم إلى ربِّهم جلَّ وعلا؛ حتى يفوزوا بالجنة التي وعدهم بها....... من هذه الدروس نذكر:

القوة تلك التى لا يجب التخلى عنها؛ لأنها سلاحٌ فتَّاكٌ فى الحرب ....

على الجانب الآخر فإنها تدعم النفسَ وتقويها وتمنحها الثقة سـلماً وحرباً فضلاً عن هذا كلِّه فإن الحلم والأناة والصبر مادةٌ أساسيةٌ لمقوماتٍ حقيقيةٍ للقوة وفنون التعامل الحياتية؛ لذا ينبغي علــى المســلم الحــق أن يمتلكَ تلك المقومات كي يعيش عزيزاً كريماً فِى مجتمعه الذي كثرت فيــه الصراعات وتعددت فيه الصبغيات التحالفية والتكتلات الماديــة، وغشــيته الضبابية الطمعية .. وعجباً على ما صرنا إليه.

أيضاً فإن التفاني والإخلاص وبذلَ الطاقات من أجل تحقيق الأهداف المنشودة لا يتم إلاَّ بحسن النياتِ، وسلامة المعتقد. وأخيراً نــذكر الوفــاء بالعهد الصادق الذي عاهد المسلمون الله ورسوله عليه حيث لاقــوا مــا لا قوة من أذًى في سبيل نصرةِ الدينِ الحنيفِ.

الثاني: البعد الموضوعي وأثر العاطفة فيه:

ما من شكٍّ فى أن الشاعر استطاع في عينيته أن يقدم قصيدته فى أحاديةٍ موضوعيةٍ لم تكنْ مطروقَةً من قبلُ فى الجاهليةِ حيث تناولت الفخرَ وقد جاء بين ثناياه المدح، متشياً بالسجايا النبيلــةِ، والأخــلاقِ الكريمــةِ والفضائلِ الساميةِ.

لقد أكدَ في فخره بأن قومــه نصــروا الرســول وآووه، وقــاتلوا المشركين، كذلك فإنه نصر الرسول بلسانه وشعره حتى استحقَ لقبَ شاعرِ الرسولِ.

وهو – بلا شك – فخرٌ مقبول طالما أنـــه لا يعلـــو علـــى ســـقفِ الأصولِ– أي لا يتجاوز الحدود أو الأطر التى رسمها الإسلامُ للشعر، إذ لا نجد إسرافاً أو غلوًّا فى القول الذي يصل إلى حدّ الإغراقِ في المبالغة التى تذهب بجمال أو روعة الأشياء.

صحيحٌ أن طبيعةَ الموقفِ فرضت أن يقول حسان هذا، لأنها جاءت ردّاً على الزبرقان بن بدر التميمي شاعر بني تميم بأمرٍ مـــن رســـول الله (ﷺ)؛ لكنه مع هذا كله استطاع أن يقدمَ الصورةَ الفضلى والمثلـــى للفخـــرِ الإسلاميِّ الحق.

لقد قيل: إنه ارتجلها فلم يمعن النظرَ فيها؛ ليعيدَ ويضيفَ ويجيـــدَ حيث دخل في موضوعه مباشرةً دونَ أن يمهدَ له بمقدمة طللية أو غزليـــة أو خمريةٍ على عادة التقليد الجاهلي بحيثُ اختفت المرأةُ – تلـــك الســـنةُ الجاهليةُ – من المقدمة؛ لأن الإسلام حرَّم مثل هذه الأشياء تحريماً قطعياً. على كلٍّ فالقصيدةُ موحدةُ الموضوع، جميلةُ العرضِ، جيدةُ السبك وســـوف نلمحُ كلَّ هذا وذاك في مواضعِ تحليلِ أبعادِ تجربته.

ولما نتساءل عن العاطفة هنا فإننا نجـــدها الفخـــرَ برســـول الله، والدين الذي جاءَ به؛ من أجل السموِ والعلوِ والرفعةِ للمسلمين تلك التـــي منحهم إياها ربنا جلَّ وعلا، عندما فضّلَهم على سائر المخلوقات حيثُ قـــالَ "وكنتُم خيرَ أمةٍ أخرجت للناسِ تأمرون بالمعروفِ وتنهَون عن المنكرِ".

إن الناظرَ المتأملَ فى النصِّ الشعريِّ يرى –عـــن كثـــب– مـــدى استفادةِ الشاعرِ من العاطفةِ كآليةٍ تعملُ باتساقٍ مع آليات أخـــرى، وذلـــك لخدمة النصِّ.

هذا ولقد جاءت كيميائية الألفاظ الدلاليةُ والإيحائية مسايرةً لها في طواعيةٍ وشفافيةٍ كالتالي:

(بينوا للناس سنة) حيثُ توحي بحسن قيادتهم وتصريفهم للأمورِ وذلك؛ لأنهم متزنون

(فاز سبقهم) حيثُ تدل على قبول التحدى بدافع الإصرار والثقة بالنفس وتوقع النصر.

(متعوا) تدل على أنهم على قدر ما يثق فيهم غيرهم حتى إنهم أدخلوا السعادة الكبرى عليهم.

(لا يضنون) توحى بالكرام الزائد والإيثار العظيم وعدم إدخار شئ فى وسعهم من أجل النصر

(أعفة) توحى بالسمو والترفع عن الدنايا وصغائر الأمور، وهذا ما جُبِلَت عليه نفوسهم.

(لا يطمعون) تدل على الاعتزاز بالنفس وعدم النظر إلى ما متَّع اللهُ به غيرهم، وهذا دليلٌ على مطلق القناعة والرضا.

كذلك نجد الألفاظ (أعطو- نسمو- أُسد- أفضل الأحياء) تعضدُ العاطفةَ، وتقدم له قيمتها الإيحائية فى دقةٍ وإحكامٍ وسلاسةٍ وانسجامٍ.

الثالث: البعد الاجتماعى ومسالكه التعبيرية:

من نافلة الحديث نقول: لقد سجلت هذه العينية الخالدة أروع التطلعات، مثلما وحددت أكثر التصورات القيم الاجتماعية التي ينشدها المجتمع المسلم سعياً نحو حياةٍ كريمةٍ تسمو بإنسانيته، وتحافظ على

سلامة شفافيته حتى يظل على المحجة البيضاء التي رنـا إليهـا رسـولنا الكريم.

هذا ولقد ظهر هذا البعد جليًا من خلال عرض الشاعر لقصـيدته إذ حملت بين أطوائها الكثير من القواعـد الاجتماعيـة التـى ينضـبط بهـا المجتمعُ، وتنصلح أحواله، وتستقيمُ أموره في شتى شؤونه .... مـن هذه الأمور نذكر:

- الأخوَّة سواءٌ أكانت عربيةً أو إيمانيةً صادقةً وقد ألمح الشـاعر إليهـا كثيراً فى معرض قصيدته وخصوصاً فى مفتتحها وذلك فـى قولـه "إن الذوائب" أي السادة والأشراف من فهـر – أي قـريش وإخـوتهم- أي الأنصار – يقيناً منه بأن الأخوةَ الإيمانيةَ الصادقةَ المتينةَ التـي ترسـخ وتؤصل قواعد سليمة للمجتمع القويم- هي أنفعُ وأصدقُ بكثيرٍ من أخوة النسب أو الدم حيث قال الله تعالى فيها "إنَّما المؤمنون أخوةٌ"؛ لأننا قـد نرى أخاً – في النسب – يقتل أخاه؛ لكن الأمر مستبعدٌ كل الاستبعاد فى الدين، فالإسلام يدعو إلى التواحد والتحابب والتوادد والتآخي والمسالمة لا إلى الشقاق والفراق والهوان المباعدة وهنا يظهـر العامـل الـدينى بوضوح حيثُ إن الرسول (ﷺ) حاربَ العصبياتِ والتبـاهى بالأنسـاب، وراح يؤكد في أكثرَ من موضع -في خطبة الوداع وغيرها إلى المساواة بين الناس جميعاً في الحقوق والواجبات، كمـا راح يؤكـدُ أن المعيـار الحقيقى بل إن الأفضليةَ الفعليةَ تكمنُ فيمن يرضـى بهـا مـن كانـت

سريرته: أي داخله تقوى الله والتقرب إليه بالطاعة والعمل بالأمر الذي شرعه حتى تتحققَ روحُ الجماعة أو الأمة متحدة .. هذا أولاً.

ثانياً: ساهمت قصيدة حسان فى صياغة أو تشكيل وبلورة بمساعدة أدوات التعبير قيمٍ اجتماعيةٍ كبرى هي -بمثابة منهـــاجُ الدولـــةِ الإســـلاميةِ الجديدةِ .. من هذه القيم نذكر:

- الصدق ووجوب التضحية، وبذل الجهد والإخلاص مع الأعـــداء حربـــاً وسلماً حيث أشار إلى ما سبق فى قوله:

قَوْمٌ إذا حَارَبُوا ضَرُّوا عدُوَّهُمُ   أَوْ حاولُوا النَّفْعَ في أَشْياعِهِم نَفَعوا

لأن الصراحة والوضوح هما من عوامل الفلاح والنجـــاح التـــى تأخـــذ بالمجتمع إلى الأمام دافعةً إياه إلـــى أعلـــى درجـــات الرقـــي والتقـــدم والازدهار.

والعكس قد يحدث إذ أن المبالغة والاستهتار يؤديان إلى التفسخ والتحلل والانهيار، وبذلك يتحرك المجتمع حركة خابطة في التيه، وتدفعـــه إلـــى مالا يحمد عقباه.

ثالثاً: أن الشاعر رسَّخَ الكثيرَ من التطلعات للمجتمع الجديد، هذا بالإضافة إلى العفة والتسامح والتسامي والترفع عن الدنايا وصغائر الأمور مثل قوله:

لا يجهلونَ وَإن حاولَتَ جَهلَهُمُ   في فَضْلِ أحلامِهِمْ عن ذاكَ مُتَّسَـــعُ

وكذلك ما يجب أن يكون عليه من الموازرة أو المساعدة والمســاندة في الحق بما يوجب التكافل الاجتماعي بحيث تختفي الطبقيةُ والملكيةُ والأنانيةُ، ويحلُ محلها الجماعةُ في معسكر واحدٍ تحتَ مظلةِ القائـدِ رسول (ﷺ)، وهنا تتلاشى كل عوامـل الصــراعِ والفســادِ والشـحِ والجشعِ والطمعِ التي كانت تعجُّ بها المجتمعاتُ الجاهليةُ بمواضعاتها الجامدةِ وشرائعها المتهالكةِ وسياساتها الفاشلة.

رابعاً: رسمت القصيدة سياسة الدولةِ الجديدةِ التي تهـدفُ إلــى ترسـيخِ وتقعيدِ سياسةِ صحابةِ رسولِ اللهِ نحو قائدهم لا سيما فى طــاعتهم، ولزوم انقيادهم له ولعل هذا ماثلٌ فى قوله:

أكْرِمْ بقَوْمٍ رَسُـولُ اللهِ قَائـدُهُمْ إذَا تفَرّقَـتِ الأهْـوَاءُ وَالشِّـيَعُ

على كل فلقد كان لهذا البعد حضوره الفاعل فى تسييس الدولةِ الجديدة، وتوجيهها، وتحريك سلطتها الفاعلة مدعمــةً بقـيمِ الإســلامِ الحنيـفِ، ومسترشدةً بآدابهِ وتعاليمهِ الكريمةِ.

الرابع: البعد الديني ومسالكه التعبيرية:

الناظرُ المدققُ فى عينية حسان يلمسُ -بوضوح- أن التأثرَ البــالغَ بالإسلام أحدثَ بُعداً شديدَ الغور في نفسه التي جاءت مترعةً بالإيمان حيث كان يمتحُ منه تجربته التي فاضت في شعره الإسلامي المتميــز بالصــدقِ والواقعيةِ وخصوصيةِ التجربةِ الشعوريةِ؛ لأنه كان يحبُّ رسولَ الله بصدقٍ، وكان الرسولُ (ﷺ) يحبُّه أيضاً.

إننا إن خلنا فى ذلك فنظرة إلى موضوع قصيدته الذي بدأه بوصف أصحاب النبي (ﷺ) والحديث عن شريعتهم التي رسموا أبعادها للناس، وتركوها لهم طريقاً معبداً.

والقصيدة – كما هو واضحٌ من أولها حتى آخر بيتٍ فيها – يمدحُ الشاعرُ فيها الرسول وأصحابه؛ لأنها جاءت تردُّ على شاعرِ بني تميم الذي راح يتباهى بأحسابه وأنسابه معدداً مناقبَ قبيلته، وهنا نجدُ أثرَ الإسلام واضحاً في الردِّ حيثُ يظهرُ البونُ الشاسعُ بين الشاعرين ربما؛ لأن الأول تفاخرَ بأدوات الجاهلية؛ بينما الآخر كان يفاخر بأخلاق الإسلامِ وقد تعصب له مثلما كان يتعصب لقبيلته في الجاهلية.

لقد كان حسان موفقاً فى الأمرين: الأول في اختياره لألفاظ قصيدته التى غلب عليها الطابع الإسلامي، الآخر في معانية التى اصطبغت بالصبغة الدينية البحتة.

فبالنظر إلى الأمر الأول فإنه ظهر التأثرُ الواضحُ بألفاظِ القرآنِ الكريمِ والسنةِ النبويةِ المطهرة مثل: "تقوى الله، شرعوا نبى الهدى"، وكذلك ننظر في قوله:

قَوْمٌ إذا حَارَبُوا ضَرُّوا عـدُوَّهُمُ   أَوْ حاوَلُوا النَّفْعَ في أشْياعِهِم نَفَعوا

فنجد أن الشاعر أخذ هذا المعنى من قوله تعالى: "أشداء على الكفار رحماء بينهم" وفى قوله:

لا فَخْرَ إنْ هُمْ أصَابوا من عَدُوِّهِمِ   وإِن أُصيبُوا فَلا خُـورٌ وَلا جُـزُعُ

"فنجد أن الشاعر أخذ هذا المعنى من قوله تعالى (فما وهنوا لما أصـــابهم في سبيلِ اللهِ وما ضعفُوا). وفي قوله: أعفة ذكرت في الوحيّ عفتهم: نجد أن الشاعر أخذ هذا المعنى من قوله تعالى: (يحسبهم الجاهلُ أغنياءَ مـــن التعففِ تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا).

كما تأثر الشاعر فى بعض ألفاظه بحديثِ رسولِ اللهِ (ﷺ) فـــى قولـــه "إن الخلائق فاعلم شرُّها البدع" حيث نجده أخذَ هذا المعنى من قولـــه: "ألا إن شرَّ الأمورِ محدثاتُها، وكلُّ محدثةٍ بدعةٌ، وكلُّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلُّ ضلالةٍ في النار"

أما عن -الأمر الآخر- المعاني فلقد قدمت القصيدةُ ثلاثـــةَ مفـــاهيمَ مستمدةٍ من روح الإسلام الخالصة وقد جاءت كالتـــالي "روح الجماعـــة - القوة - الأفضلية".

المفهوم الأول: وهو تأسيسي يتناولُ وحدةَ الجماعةِ أو الأمة التـــي حـــثَّ عليها القرآنُ فى قوله "واعتصموا بحبلِ اللهِ جميعاً ولا تفرقُوا" حيـــث تجلى فى مسالكَ تعبيريةٍ كثيرةٍ نذكر منها: قوله فى البيت الأول: "إن الذوائب من فهر وإخوتهم" حيث إن "الإخوان الأنصار الـــذين مـــنهم الشاعر" معطوفٌ على قريشٍ المعطوف عليه المقـــدم نظـــراً لمكانـــة قريشٍ الريادية، إذ يكفى أن الرسولَ الكريم ينتسبُ إليها. هـــذا ولقـــد جاء العطف عن طريقِ "الواو" وذلك؛ للجمع بينهما والمشـــاركة فـــى

السؤود والرفعة والسيادة .. وكلُّ هذا كان إيقاظاً لشـعور الانتمـاء، وإزكاءً لروح الجماعة والمساواة والمؤاخاة؛ لتحقيق الـروح الكليـةِ المتمثلة فى الذوبانِ في مرجعية الدين الجديد وإيذاناً بانتهاء النعـرة القبلية بأصباغها العصبية، ثم جاءت لفظـة "إخـوان" فـي سـياقها التعبيرى مضافة؛ لتكشف عن غايةِ التوحدِ، ومطلقِ التضامِ، وروعةِ التجانسِ، وقمة الالتئام في الصف البشرى وذلك لخدمة الـدين، ثـم ربطها الشاعر بضمير الغائبين (هم) ربطاً كيانـاً ومصـيرياً بحيـثُ يعضد، ويدعم بقوة فكرة المساواة، ثم يجئ الخبر في سياقة الـدلالي جملة فعلية، لتبرز – بوضوح – القيمة الحدثية الفعلية فـي البيـان المؤكد الذي يحتاج إلى كلِّ ما يوحـد؛ كـي تُقعـدَ للنـاس الطـرق أو المناهج الواجب اتباعها؛ ولأنه قد جاء "بسـنن" نكـرة للتهويـل والتعظيم فلقد قدم التركيبة الوصفية فى الجملـة التـي بنـى فعلهـا الماضى للمجهول وقد حذف فاعله إيجازاً وذلك لشمول وعموم مـن توجه إليهم الدعوة بحيث لا ينتقر منها واحداً دون الآخر هذا ويخشى الشاعر أن تنفلت أو تهمش تلكَ الفكرةُ الأساسيةُ؛ لذا راح يذكر بلفظة "كل" الزائدة التي تؤكدُ بدورها معنى الشمول والعموم لتزجى بالمعنى فى بئر الاستغراق الجمعي بإيحاءاته وأطيافه وأهدافه التى يرنو إليها الإسلام لتصبح المسؤولية سمناً جماعياً، ولا يفتأ يكرر الشاعر للتنبيه

والتوكيد ملحاً على وجوب الكلية وروح الجماعة وذلـك فـي قولـه سجية تلك منهم غير محدثة" حيث ذكر "منهم" ولم يقـل "فـيهم"؛ لأن "منهم" تقدمُ قيمةً تبعيةً إلزاميةً تحددُ وتشخصُ وتسائل على غير "في" التى تؤدي معنى الظرفية دون تحديد للمسؤولين بشكل تتماهى فيـه التبعات، ويضيع معه الثبت، وتختفي الحقائق، وتلاشي فيه الأمورُ.

الثاني: توليدي وهو القوة بشقيها المادي والمعنوى وقد أفرزتهـا شـعور الجماعة أو الأمة لاسيما المادى بكل مقوماته وأهدافه فى قولـه: "إذا حاربوا ضروا عدوهم" بحيث أن الضرر حصاد مرٌّ يجنيـه الأعـداءُ الذين خصوا بالضرر دون غيرهم، ولكي يؤكد الشـاعر علـى عـدم المشقة أو التكلفة والإرهاق في الحرب إذ يتساوى بالسلام تماماً فلقد اختار لفظة "أو" التي تدل على التخير، ثم إن تلك القوى المادية التى تعتمد على الأناة والحلم في إدارة المعركة والصبر حتى الفوز تمـنحُ الأبطال العظامَ الثقة في النفس وبالتالي ترتفـع المعنويـات، وتعلـو الهامات، ثم إنه ومن مجمل امتلاكهم للقوة استفاد لهم أهل الصـليب ومن كانت لهم البيع علماً بأن هـذه السـمات التـى تفـردت بهـا شخصيتهم بحيث أنهم حازوا عليها دون غيرهم قد لا يجعـل الكِبْـر يتسربُ إليهم؛ لأن الإسلامَ يحرُم هذا كلَّه.

إنه إن كان هذا كذلك فإن الشاعر راح يترجم قول الله تعالى "وكنتمُ خيرَ أمةٍ أُخْرِجَتْ للناس" وهنا يتحقق المفهوم الثالث الأفضلية التي جاء نتاجَ جهدٍ ودأبٍ وإخلاصٍ حتى تأكد للجميعِ أنهم أفضلُ الأحياءِ كلِّها.

الخامس: البعد الجمالي ومستوياته الفنية:

لقد استطاع هذا البعدُ - بتشكيلاته وتأويلاتهِ العديدةِ - استثمارَ ذاتيةِ وموهبةِ الشاعر استثماراً جمالياً، وهذا يستدعي الحديثَ عن بناها ومظهرها التوزيعي سواءً على المستويات التصويريةِ أو الأسلوبيةِ أو الزخرفيةِ.

فمن حيثُ استخدامه للصورة نجدُ أنه أكثر من الاستعارة ربما لإحساسه بأنها تعنى أن لدينا فكرةً لشيئين مختلفين -المشبه والمشبه به- بحيثُ يمتزجان امتزاجاً متكافئاً للتوضيح أو التجسيم أو التشخيص، معنى هذا أن الاستعارةَ لم تجئ تحويلاً فقط، أو نقلاً لألفاظٍ معينةٍ، وإنما هي تفاعلٌ بين السياقاتِ المختلفةِ؛ من أجلِ إبرازِ تجلياتِ فكر وبلاغة الشاعر التي تهدف إلى معرفة متميزةٍ؛ فضلاً عن أن جمالها هذا إنما يرجعُ قبلَ كلِّ شئ - إلى حسن الصياغةِ والتأليف وحسانُ شاعرنا يعي ذلك جيداً ...

إننا إن خلنا ذلك فنظرة إلى الأبيات؛ لنرصدَ مواقع خارطة الاستعارات كالتالي:

البيت الأول: في قوله "إنَّ الذوائبَ" حيث جاءت الاستعارةُ التصريحيةُ، وقد حذف المشبه وصرَّح بالمشبه به على سبيلِ التوضيحِ، وإبرازِ الشاعرِ لفكرةِ السؤددِ والرفعةِ والسموِ.

البيت السابع: في قوله: "فاز سبقهم" حيثُ جاءتُ الاستعارةُ المكنيـــةُ وقـــد حُذِفَ المشبه به وهو الإنسانُ، وجئ بشئٍ من لوازمهِ وهو الســـبق حيثُ جسمَ المعنويَّ وأبرزه فى صورةٍ حسيةٍ على سبيل التشـــخيصِ؛ للإيحاء بثقتهم وبأنفسهم، وخصوصاً قوتَهم الحربيةَ.

البيت السابع عشر فى قوله: إذا الحرب نالتنـــا مخالبُهـــا حيـــثُ جـــاءت الاستعارةُ المكنيةُ فشُبِّه الحربَ بالوحشِ، وقد حُذِفَ المشبهُ به وهـــو الوحش الكاسرُ، وجئ بشئ من لوازمه، وهي المخالب" وهنا جسَّـــمَ المعنويَّ وأبرزه في صورةٍ حسيةٍ علـــى ســـبيل التجســـيم، وكـــذلك "أظفارها" فإنها استعارة مكنيةٌ حيثُ شبَّه الحربَ في نشوبها بأظفـــار الوحوش الكاسرة التي تنشب فى فريسته فحذف المشبه بـــه وجـــاء بشئ من لوازمه وهى الأظفار على سبيل تجسيمِ المعنوي وإبرازه فى صورة حسية التجسيم.

البيت الثاني عشر في قوله: "فماوني النصـــر" حيـــث جـــاءت الاســـتعارة المكنية، وفيها شَّبه الشاعرُ النصر بشخصٍ يتأخرُ أو يتباطأ فُحِـــذفَ المشبه به وجئ بصفة من صفاته وهي البطء وســـر الجمـــال هنـــا التشخيص والإيحاء بالثقة فى النصر.

البيت العشرون في قوله: "تفرقت الأهواء" حيث جاءت استعارة مكنية وقد شبه الأهواءَ بأناسٍ متفرقين، فحذف المشبه به، وجِئ بشئ من صفاته وهو التفرق.

البيت الثاني والعشرون في قوله: "قلب يؤازره لسان" فإنها صورة مركبة وقد جاءت من استعارتين، الأولى: استعارة مكنية في "قلب يؤازره" حيث شبه القلب بإنسان يؤازر ثم تجئ الاستعارة المكنية الثانية في "يؤازره لسان حيثُ تخيل اللسان شخصاً يؤازر، فحذف المشبه به وجئ بشيء من صفاته وهى المساعدة، وسرُ الجمال التشخيصُ حيثُ إنها توحي بقوة ملكة اللسان والإفصاح والتبيان، هذا ويجوز مجئ "يؤازره لسان" مجازاً مرسلاً علاقته الجزئية وسر جماله هنا: الدقة والإيجاز في اختيار العلاقة. هذا ولقد جاء بالتشبيه التمثيلي -أيضاً- في "كأنهم في الوغى... أسدٌ" حيثُ جاء بالمشبه "المسلمين"، "وكأن" أداة التشبيه، والمشبه به "الأسود" الذي انتزعها من عدة صور....

بالنظر إلى المستوى السابق فإنه أكثرَ من الاستعارة، ولعله كان موفقاً فى حسن صياغته وتأليفه؛ لأن موضوعه الفخرُ الذي يحتاجُ إلى المبالغة، وهذا أمرٌ لا تحققه غيرُ الاستعارة التي تحدث عنها عبدُ القاهر في "نظريته" بحيثُ تقومُ على بثِّ الحركة والحياةِ فى المشبه للمبالغة.. هذا على الجانب الجمالي... إمَّا عن الناحية النفسية فإنها تحدثُ فى السامعِ متعةً وتجلب له أنساً.

وعلى المستوى الأسلوبى: نذكرُ أنه جاءَ بالأساليبِ الخبريةِ على سبيلِ تقريرِ المعنى في الذهنِ وإثباتِ الحقيقةِ.

وعلى كلٍّ فإنه أكثرَ إكثاراً واضحاً من أسلوبِ القصرِ الذي جاءَ أغلبُهُ في صورة:

أ- التقديم والتأخير وخصوصاً تقديمَ الخبرِ، أو خبرِ كانَ، أو إنَّ على المبتدأ، أو اسمها حيثُ أكدَ المعنى، وخصصه، وحدده ولعلَّ هذا ماثلٌ فى الواضع التالية في:

١- "إن كان فى الناس سباقون" حيثُ قدمَ خبرَ كان شبه الجملة "في الناس" على اسمها "سباقون" النكرة.

٢- "في فضلِ أحلامِهم -عن ذلك- متسعٌ" حيثُ قدمَ الخبر شبه الجملة "في فضلِ... على المبتدأ النكرة "متسعٌ"

٣- "كانت لهم بيع" حيثُ قدمَ خبرَ كانت "شبه الجملة" "لهم" على اسمها النكرة "بيع"

٤- فإن فى حربهم شَرّاً حيثُ قدم خبر إن شبه الجملة "في حربهم" على اسمها النكرة "شراً".

بالنظر إلى الأسماءِ المؤخرةِ في الجملِ السابقةِ نراها نكرةً كالتالي (سباقون- مكتنع- شر- بيع" ربما أنه جاء بها هنا للتهويلِ والتعظيمِ، ثم نعيدُ النظرَ فيها -كرةً أخرى- فنجد أنها مشتقاتٌ الأولى- صيغة مبالغة، والثانية- اسم مكان، والثالثة- اسم تفضيل، وقد جاءت كلها على سبيلِ الإيجازِ بالقصرِ؛ كي يُدَّعَمَ الأسلوبُ في تخصصيةً وتحديديةً علي سبيل التوكيد والاهتمامِ والعنايةِ بالمقدَّمِ.

ب- تقديم الجار والمجرور على الفاعل مثل: "ولا يصيبهم في مطمع طبع"، "لا يطمعون ولا يزري بهم طمع".

وتقديم الجار والمجرور على نائب الفاعل مثل: "ذُكرت في الوَحْي عِفَّـتهُم". شرّاً يخاضُ به الصابُ.

جـ- تقديم الفاعل على المعطوف عليه للضرورة الشعرية حيثُ تمَّ الفصلُ بينهما فى الشطرِ الأولِ من البيتِ الأولِ، وكان حقه أن يقولَ: يرضى بها – وبالأمرِ الذي شرعوا – كلُّ من كانت ســريرتُه... وإن كــان تقديم الفاعل "كل" قد اكتسبَ أهميةً خاصةً، وذلك أن السنة لا يرضــى بها إلا كلُّ من كانت سريرته تقوى الإلهِ، أما دونَ ذلك فقد أغشى اللهُ قلوبهم بالضلالِ وعدمِ التقوى.

كذلك نجد من أساليب التوكيد بإن فى: "إن الذوائب" ، "إن الخلائق" ، "فــإن في حربهم" ، "فإنهم أفضل" كما جاء التوكيد "بقد في": "قــد بيَّنــوا......." وكلُّ هذا يفيد التوضيحَ.

ومن الأساليب الإنشائية نجد الطلبية: "فاعلم، "خذ منهم ما أتى" كلٌّ منهما أسلوبٌ طلبيٌّ نوعه أمرٌ، الأول: غرضه البلاغي الالتماسُ، والآخر: غرضه البلاغي التحذير "وغير الطلبية نقرأ "أكرم بقوم" حيثُ جَاء بصــيغةِ التعجبِ "أكرمْ الفعل الماضي على صورةِ الأمرِ وبالباء حــرفِ الجــر الزائــدِ للتوكيدِ، وقوم المجرور لفظاً والمرفوع محلاً على أنه فاعلٌ وهو المتعجبُ منه

وعلى المستوى البديعي نلحظُ أن الشاعرَ ركزَ على ثلاثةِ أنواعٍ هي:

أ) الطباق الذي يوضح المعنى بالتضاد، فيبــرزه ويقويــه بحيــثُ يجعــلُ الأساليبَ حسنةً والعباراتِ جميلةً، وهو يجذبُ السامعين لتأملِ المعــاني وتدبرهاِ؛ لتستقرَ في النفوسِ، وترسخَ في العقول ... وعلى كلٍّ فلقــد جاء:

(في أوهت # لا يوهون ، جهلهم # أحلامهـم ، سـيروا # عوجـوا، أصابوا # أصيبوا ، جدّ # شمعوا ، فضلهم # طبع ، عفتهم # الطمع.)

ب) المقابلةُ التي توضحُ المعنى بالتضادِ؛ فتزيده جمالاً ووضـوحاً جـاءت في:

("حاربوا ضرّوا عدّوهم # حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا"، "كم من صديق لهم نالوا كرامته # من عدو عليهم جاهدٍ جدعوا"، "قال سيروا أجد السـير جهدهم" # "قالوا عوجوا علينا ساعة ربعوا".

جـ) الجناس الذى يلفت ذهن السامع؛ لكى يدرك الفرق بين المعنيين

ففى التام المضارع نقرأ: (النفع = نفعوا ، يرقع = رقعوا)

وفى الناقص المضارع نقرأ فى: (ندب = يَدِبُ ، جَدّ = جِدّ)

والناقص اللاحق في: (أجدوا= جهدهم)

والناقص المطرف في: (مطمع = طبع).

والواضح أن حسان لم يقصد من بديعه سوى تحسين اللفظ والمعنى تبعاً ولعله فى ذلك أرسل المعاني على سجيتها؛ ليـدعَها تطلُـب لنفسـها الألفاظ، فإنها -كما قال عبد القاهر- إذا تُركت وما تريدُ لم تُكـنس إلا مـا يليق بها، ولم تلبس إلا ما تزينها[1]

وعلى الجملة فلقد استطاع الشاعر أن يقدم أبعاد تجربته بكل مسـالكها التعبيرية فى ألفة وانسجام واتساق محكم... وكل هـذا منحهـا ثمـة الخلـود والبقاء.

---

(١) انظر: أسرار البلاغة ص٢٠.

المبحث الثالث

التيارُ الوجداني

في

بائيةِ الكميتِ المضمومةِ

أولاً: بطاقة الشاعر المعرفية

اسمه: الكُمَيْتُ[1] بن زيد بن خُنَيْسٍ بن مُجَالِد بن وُهَيْب بن عمرو بن سُبَيْع ابن مالك بن سعد بن ثعلبة بن دودان بن أسد[2]، ويكنى أبا المستهل[3].

نسبه: ينتسبُ إلى قبيلة بني أسد، وهي قبيلةٌ مضريةٌ عدنانيةٌ، كانت ذات شأنٍ ومجدٍ كبيرين في الجاهليةِ والإسلامِ حيثُ لعبت دوراً عظيماً على مسرحِ الجزيرةِ العربيةِ آنذاك، وقد تحدثت كتبُ الرواياتِ والأخبارِ في هذا الصددِ كثيراً.

نشأته: ولد هذا الشاعرُ سنةَ ستين هجرية، ثم ما لبثَ أن شبَّ صبياً، وقد رأيناه يترددُ على مجالس العلماء، وأهل الأدب.. هذا ولقد ظهر نبوغه وتفوقه فيما أخذه أو استوعبه مبكراً حيثُ تلقنَ الفقهَ والحديثَ وأنسابَ العرب، ولعلها محاصيلُ كانت ذات غناءٍ، إذ أهلته لأن يتحلق الناسُ حوله معلماً يعلمُ الناشئة؛ بما قد ألمَّ أو أحاط به فهماً وإدراكاً وذلك في مسجد الكوفة، وفي هذه المرحلة- قد بدأ

(١) هو لونٌ ليس بأشقر، ولا أدهم وكذلك فإن هذا الاسم من أسماء الخمر، فيها حمرة وسواد.. هذا ولقد جاء أنه لونٌ بين السواد والحمرة، يكون في الخيل والإبل وغيرها.

(٢) جاء أنه نسب إلى مجالد ذؤيبة بن قيس بن عمرو........

(٣) راجع: "الشعر والشعراء" ج١ صـ٥٨١ حيث كان المستهل شاعراً مقلاً.

ينظمُ الشعرَ فيها، إذ نجده وقد توثقت صلاتٌ قويةٌ بينه وبين شاعرٍ من شعراء الخوارج، وهو الطِّرماح[1] من حكم حيثُ اتسمت بخلطة ومودةٍ وصفاءٍ، لم تكن موجودةً بين اثنين وقد تعجب الكثيرون من انعاقدها، ومدِّ جسورها إذا اعتبروها صداقة غايةً في التعجبيـــةِ أو الغرائبيةِ، معللين ذلك بأن الشاعرين كانا مختلفين في المذهب.

فالكميت شيعي يرى "آل عليٍّ أحقَّ النـــاس بالخلافـــةِ، والطرمـــاح خارجيّ صُفري[2] رافضي يرى الخلافة حقاً شرعياً لأيِّ كُفؤٍ من المسلمين هذا من حيثُ المفهومِ العقدي أو المعتنقِ التوجُّهي..

أما من حيث البيئة فلقد كان الكميت قيســياً مـــن مضـــر العدنانيـــة، والطرماح طائياً من قحطانَ، وتحدثنا كتبُ الأنســـابِ والأخبـــارِ أن العـــداءَ المستحكمَ ظلَّ، ولم تخمد أواره بين القبيلتين العظيمتين من قبائل العـــرب فإذا كانا لا يفترقان فإن هـــذا معنـــاه أن الكميـــتَ كـــان يتمتـــعُ بـــالنظرةِ الموضوعية المتجردة عن كلِّ ما دونها من المذهبيةِ أو الطائفيةِ والعرقيـــةِ على مختلف ألوانها، وإصباغها القاتمة حيثُ يظهرُ ذلك -بجلاءٍ- عنـــدما

---

(١) هو الطرماح بن حكيم بن طيئ ويكنى أبا نفر، وكان جده قيس بن حجـــدر أســـره ملك من ملوك حفنة فدخل عليه حاتم طئ فاستوهبه، ولقد كان خطيباً بارعاً إلى جانب كونه شاعراً... مزيداً من الإيضاح يمكنك الرجـــوع إلـــى الأغـــاني ج١٧ صـــ٦٢٢٧ وما بعدها

(٢) راجع: الأغانى للأصفهانى ج١٧ صـــ٦٢٦٧ طبعة دار الشعب.

نراه يمدح الأمويين، بل ويجيد فى الإشادة بمدحهم على الرغم من التفاوت فى المذهب.

صحيح أن الرغبةَ فى نيلِ الهباتِ أو العطايا الجزيلةِ كانت تحـدوه؛ لكن أصباغها لم تكن بالدرجة التى تجعله يمقتُ التعصبَ.

على الجانب الآخر فإن الطرماح -كما يبدو- لى كان يدركُ أن رحمَ الموهبةِ الشعريةِ يجبُ أن يقدم على المذهبية ... هذا ولقد أُمتحنا بأن طُعنا سؤالاً -في هذا الصدد- فقيل لهما: فيما اتفقتما هذا الاتفاقَ مع اخـتلافِ سائرِ الأهواء قالا: أتفقنا على بُغْضِ العامة[1].....

على كلٍّ -ونحن فى القرنِ الحادي والعشرين- عدنا نجـدُ العـداءَ المستحكَم الناجمَ عن تفاوتِ الديانةِ أو المذهب أو العصـبية فلربمـا كـان الكميت والطرماح أكثر بعداً وأبعد سعة فى الأفق، وأوسع فهمـاً وإدراكـاً للحياة من المعاصرين الذين راحوا يتمججون بصراع الحضارات والأديان.. وعجباً على ما صاروا إليه..!!

هذا وتسوقنا القصةُ السابقةُ إلى القول: بأنه كان شيعياً يمـدح آل البيت، ويشيدُ بحقهم في الخلافة، وقد يبدو أن هذا الأمرَ قد أغضـبَ بنـى أمية، وكان الحصاد المرُّ بأن دُبِّرَتْ له مكيدةٌ وقد سُجِنَ على إثرها، لكـن

---

(١) راجع: الأغانى "ج١٧ صـ٦٢٦٧ طبعة دار الشعب..، وهنا نستطيع أن نستشـفَ -على الجملة- أن هذا الجوابَ يحملُ- بينَ أطوائه -ما تمتعَ به الاثنان من حسٍّ اجتماعيٍّ جعلهما يقيّمان الناسَ تقييماً موضوعياً، وإن أخفيا علَّةَ البغضِ؛ فلربما يكون دافعها التعصب الأعمى.

زوجته لم تسكتْ على هذا الظلمِ فقيل: إنها في زيارةٍ له غافلت الحــراسَ، وألبست الكميت من ملابسها، وخرج من الســجن هارباً إلــى دمشــق، واستشفع لدى الخليفة هشام بن عبد الملك فعفا عنه، ثم عاد إلى العــراق وقد عادت معه مدائحه لزيد بن الحسين رضى الله عنه.. هذا ولقد انتشــرَ في الناس شعر الكميت في تأييد مذهب الزيدية فغضب منه والى الكوفــةَ، وأوعز إلى الحراس أن يقتلوه فقتلوه ضرباً بالسيوف، وكان عمــره ســتةً وستين عاماً، أي حوالي سنة ١٢٦ هجرية.

محبته لآل البيت:

حكى صاعد مولى الكميتِ قال: دخلت معه على عليٍّ فقال: إني قــد مدحتك بما أرجو أن يكون لي وسيلةٌ عندَ رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم ثم أنشده قصيدته "من لقلبٍ متيَّمٍ مستهام" فلما أتى على آخر قال له: ثوابك نعجز عنه، ولكن ما عجزنا عنه فإن الله لا يعجزُ عن مكافأتــك، وأرادَ أن يحسنَ إليه فقال له إن أردت إلى فأدفعْ إليَّ بعض ثيابك التي تلى جســدك؛ أتبركْ بها، فنزع ثيابه، ودفعها إليه ثم قال: اللهم أن الكميت جــادٌ فــي آل رسول الله، وذريةِ نبيك بنفسه حين ضنُّ الناسُ، وأظهر ما كتمه غيره من الحق فأخيه شهيداً وأمته شهيداً وأراه الجزاء عاجلاً فإنا قد عجزنــا عــن مكافأته قال الكميت: مازلت أعرف بركة دعائه[1].

---

(١) راجع: "الشعر والشعراء" لابن قتيبة" صــ٥٨١.

صفاته الخلقية والخلقية.

لقد قيل: إنه كان أصمَّ أصلع لا يسمعْ شيئاً[1]؛ لكنه مع هذا كلِّه كان يجيدُ الرمايةَ، ولم يكن فى قومه أرمى منه، وكان شديدَ الحماسِ لاعتقــاده بتحمله فى سبيلِ ما يعتقده أشدّ البلاءِ.

هذا ولقد كان سريع البديهة، ذكياً، حادَّ الذكاءِ، لوذعياً، ولعل الحيلةَ التى رسمها لزوجته- والتى تمَّ بمقتضاها هروبه من السجن -تدلُّ علــى حدةِ هذا الذكاء، كذلك فإن ردَّهُ على الفرزدق- عندما قال له لمــا لقيــه- وهو فتًى ممازحاً إياه قائلاً: يا فتى لو أننى أبوك، وأن تكونَ مــن أوســط بطون تميم مجاشعِ بن درام فأجابه الكميت قائلاً: أما أبى فلا أبتغــى بــه بديلاً، ولكن أرضى بأن تكون أمي..... [2] فداك ردُّ فعــلٍ يصــادقُ علــى المعيته هذه.

طبقته:

لقد كانَ الكميت شاعراً مقدماً، من أشعرِ شعراءِ الكوفة المقــدمين فى عصره، ومن شعراءِ القرنِ الأولِ من الهجرة، عالماً بلغــات العــرب، خبيراً بأيامها من شعراء مُضر وألسنتها، والمتعصبين علــى القحطانيــة،

(١) راجع: هاشميات الكميت "صـ١٩

(٢) راجع: "الأغانى" ح ١٧ صـ٦٢٢٧

المقارنين القارعين لشعرائهم العلماء بالمثالب والأيام المفاخرين بها، وكان فى أيام بنى أمية، هذا ولم يدرك الدولة العباسية إذا مات قبلها.

ولأنه كان معروفاً بالتشيع لبني هاشم، مشهوراً بذلك فإن هاشمياته مدائحه فى الرسول (ص) وبنى هاشم تعدُّ من أجودِ شعره ومختـــاره؛ لأن فيه نقاءً عاطفيٌّ صادقٌ، ينمُّ عن حبٍّ يترفعُ عن الماديات، إذ يخلـــو مـــن الرغبةِ فى نيل الهبات، أو العطايا، أو من الرهبة خوفاً من بطش الخلفــاء والأمراء، وإذا كان هناك شعرٌ ينبعُ من مثل هذا الفيضِ فإنه يعدُّ مفخــرةً عظيمةً؛ لأنه نبعَ من أسمى عاطفتين: عاطفة الحبّ المنزةِ عــن كــلِّ مــا يشوب صدقه، وعاطفة النبل والشجاعة وكلاهما صبُاَ فى جداول شعره.

على كلٍّ فلقد قيل: إنه لو لم يكنْ لبني أسد منقبـــةٌ غيـــرُ الكميـــت، لكفاهم، وقال أبو عكرمةَ الضبى "لولا شعرُ الكميتِ لم يكن للغةِ ترجمـــانُ، ولا للبيان لسانٌ"

كذلك فقد قيل: وكانت بنو أسدِ تقول فينا فضيلةٌ ليست فـــى العـــالمِ ليس منزلٌ منا إلا وفيه بركة وراثة الكميت؛ لأنه رأى النبي "ص" فى القوم فقال له: أنشدنى: **طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب**"

فأنشده فقال له: بُورِكْتَ وبُورِكَ قومُك.

وسئل أبو معاذ الهراء: مَنْ أشعرُ الناسِ قال: أمن الجاهلين أم من الإسلاميين قالوا: بل من الجاهلين، قال: امرؤ القيس وزهير وعبيـــد بـــن

الأبرص قالوا: فمن الإسلاميين، قال: الفرزدق وجرير والأخطل والراعـــى: فقيل له: ما رأيناك ذكرت الكميت فيمن ذكرت، قال: ذاك أشــعرُ الأولــين والآخرين، ويقال ما جمع أحدٌ من علم العرب ومناقبها، ومعرفة ما جمــع الكميت، فمن صحّح الكميتُ نسبه صحَّ، ومن طعن فيه وهن[1]"

من هنا فإننا نرى أن الهاشميات التى يتناقلها الناسُ، ولا يزالــون مهما اختلفت أمشاجهم تجئ دليلاً على جودتها، ومدى عنايةِ الشيعةِ بها.

شعره:

يعد الكميت واحداً من أعظمِ شعراءِ الشيعةِ، حيث كان لسانَ الدعوةِ العلوية -فى عصر بنى أمية- شعراً وخطباً؛ فلقد قال عنه الجاحظُ "ما فتح الشيعة باب الجدل والمحاجة إلا الكميت[2]"

من أشهر فنونه مدائحه في الرسول صلى الله عليه وسلم، وفى بنى هاشم تلك التى أطلق عليها الهاشيمات، هذا ولقد غلب على شــعره طــابعُ الحزنِ، ولربما كانت هذهِ مِن الأسباب التى تجعله مؤثراً موحياً باكياً لاسيما أنه كان يعزفُ على وترِ ما أصابَ آل البيت، ومقتل الحسن والحسين، وزيد ويحيى بن زيد، وغيرهم ممن شوه بنو أمية جثثهم.

---

(١) راجع: هاشميات الكميت صــ١٦.

(٢) راجع: الأغانى صــ٦٢٦٦ طبعة دار الشعب.

هذا لم تتعدَ الأغراضُ التى تناولتها شاعريته عـن مذهبـه الـذى رسمه لها بإتقانٍ وعنايةٍ كبيرتين فهو يعقدُ مدحه على آل البيت، ويبكيهم، ويقصرُ هجاءه على خصومهم، ولربما مهاجاته لشعراء الـيمنِ متصـلةٌ، يمثلُ بل يؤكدُ ذلك أن المناقضةَ بينه وبينهم شائعةٌ فى حياته، وبعد وفاتـه حيثُ ناقضَ ودعبل الخزاعي، وابن أبيَ عيينة قصيدته المُذهبة بعد وفاتـه وأجابهما أبو الزلفاء البصري مولى بني هاشم عنها.

هذا ولقد استغل هذهِ الأغراضَ الثلاثةَ فى شعره السياسـى حتـى جاءت مزيجاً متكافئاً من المدحِ والهجاءِ والبكاءِ والتحريضِ، لذا فإن وقعها يجئ بالغَ التأثير فى نفوس أشياعه وخصومه معاً، فلغلبة الشعر السياسى على شعره قد لا نجد وجوداً للغزل؛ ولعله أعلنَ أكثرَ من مرة عـن سـرِّ العزوف عنه، وكان دائماً ما يجيب بقوله: إن قلبه مملوء بالشوق إلـى آل البيت رسول الله "صلى الله عليهِ وسلم"...........

والناظر المتأمل في هذا الشعر -جملة وتفصيلا- يستطيعُ أن يلمسَ عدة خصائصَ وقد تميزَ بها شعره دونَ غيره منها:

١- صدق العاطفة وقوتها وثباتها، وخصوصاً فى هاشمياته؛ لأنهـا - كما أسلفنا القول- كانت صادرةً عن عقيدةٍ قويـةٍ متجـذرةٍ فـى أعماق نفسه، تترجمها أقواله وأفعاله.

٢- خلو ألفاظه من الحوشى والغريب، أو مما لم يألفه العربُ بحيث لا تتعارضُ مع الفصحى، وإن كان يميل إلى الطباق فهـذا راجـعٌ لإيراده المديحَ والهجاءَ فى الموضوعِ الواحدِ ذاك الشعر السياسى.

٣- استثمر المنطقَ والقياسَ والعللَ فى شعره، وخصوصـاً المنطـقَ المبني على المقدماتِ والنتائجِ فى الشعر، هذا فضلاً عن معانيـه القويةِ وأسلوبهِ الجـزلِ، وألفاظـهِ الرقيقـةِ، وأفكـاره السـديدة المحكمة.. كل هذه خصائص قد تتمتع بها شعره دون غيره.

ثانياً: القصيدة شرحاً وتعليقاً:

طربْتُ وماَ شوقاً إلــى البــيضِ	ولا لعباً مني، وذو الشيبِ يلعبُ؟؟ [١]
ولم تلهِنى دارٌ ولا رسمُ منـــزلِ	ولـــم يتطربْنِـــى بنـــانٌ مخضَّـــبُ [٢]
ولا أنا مِمَّنْ يزجُرُ الطَّيرُ همَّـــهُ	أصاحَ غـــرابٌ أم تعـــرَّض ثعلـــبُ [٣]

---

(١) **المعانى**:

الطرب: خفةٌ تعترى الإنسان عند شدة الفرح أو الحزن، وهي من الأضداد.

البيض: المراد بها النساء الحسان.

الشرح:

يتحدث الشاعر عن أمر هاجَ أشواقه وطربه، وينفى أن يكون السببُ النساء، أو اللعب واللهو معللاً ذلك بأنه ما يكون للشيخ أن يلعب.

(٢) **المعانى**:

رسم منزل: أطلال منزل الأحباب   يتطربنى: يهيج أشواقي

بنان مخصب: أصابع مصبوغة بالحناء

الشرح:

ينفى الشاعر –أيضاً– أن يكون باعثُ شوقه راجعاً لأطلال الأحباب.

(٣) **المعانى**:

الزجر: المنع والنهى، والزجر أن تزجر طيراً، أو ظبياً سانحاً أو بارجاً؛ فتطير منه وقد نهى عن الطيرة.

الشرح:

يستمر نفي الشاعر لكل الملهيات أو المغريات سواءً أكانت عاطفيـــةً أو عبثيـــة حتى الطير فإنها ما كانت يوماً ما من الأشياء التى تهيج شوقه؛ فتطربه.

ولا السانحاتُ البارِحَاتُ عشــيةً　　أمرَّ سليمُ القرنِ أمْ مــرَّ أعْضَــبُ[1]

ولكنْ إلى أهلِ الفضائلِ والتُّقَــى　　وخيرِ بني حوَّاءَ، والخيرُ يُطْلَــبُ[2]

إلى النَفَرِ البيضِ الذين بحــبِّهِم　　إلـــى اللهِ فيمـــا نـــالنى أتقــرَّبُ[3]

---

(١) **المعاني**:

السانح: من الظباء والطير الذى يجئ من يسارك فيوليك ميامنه.

البارح: ما يجئ من ميامنك، فيوليك مياسرة، وأهل الحجاز يتشاءمون بالسانح، وأهــل نجد يتشاءمون بالبارح، والناطح مايستقبلك، والعقيد ما يجئ من خلفــك ســليم القرن: الذى يتمين به. الأعضب: المكسور كم أحد القرنين، وهو ما يتشاءمُ به.

الشرح:

يحصى الشاعر جملةً ما يهيج شوق الآخــرين، ومنهــا التشــاؤم والتفــاؤل بالتطير؛ لكنه لا يطرب لكل ما سبق.. معنى هذا أن هناك ما يشغله، ولعله أعظم مــن مما ذكر بكثيرٍ...!!

(٢) **المعانى**:

أهل الفضائل هنا: آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم

الشرح:

يستدرك الشاعرُ مؤكداً على صدقه بأن شوقه وطربه كان لآل بيت رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أولئك الذين هم أهلُ الفضائلِ والتقى.

(٣) **المعانى**:

النفر البيض: يعنى بني هاشم، والبيض جمع أبيض حيثُ يراد نقاءُ العــرضِ من الدنس.

الشرح:

يمتدح الشاعرُ بنى هاشم الذين سلمت أعراضهم من الدنس؛ بأنهم هم الــذين يستحقون شوقه هذا وطربه.

بني هاشمٍ رهطِ النبــيِّ فــإنني	بهم ولهمُ أرضى مراراً وأغْضَبُ[1]
خفضتُ لهم منّي جناحي مــودَّةٍ	إلى كنفٍ عطفاه أهــلٌ ومَرْحــبُ[2]
وكنتُ لهمْ من هــؤلاءِ وهــؤلاء	مِجنّاً علــى أنّــي أذمُّ وأُقْصَــبُ[3]

---

(١) **المعاني**:

هاشم: هو هاشم بن عبد مناف بن قصى ينتهى نسبه إلى النضر بن كنانة أبى قريش، وهاشم جدّ الرسول (ص) ومنه تفرعت بنو هاشم.

الشرح:

يعلن الشاعر هنا عن حبه لبني هاشم حيث ملئت مشاعره نحوهم حباً حتى إذا رضى فإنه يرضى عمن رضوا، وأحبوا رسول الله، ويغضب أيضــاً عمــن يغضــبون رسول الله (ص).

(٢) **المعانى**:

خفضت لهم: ألنت لهم جانبى العطف والمودة ، الكنف: الناحية أي معهم

أهل ومرحب: أي قابلتهم على الرحب والسعة.

الشرح:

يبرز الشاعر هنا مدى حبه وعطفه إلى بنى هاشم حيثُ أولاهــم فــائق هــذا الحب؛ وذلك بأريحية نفسية، وسعةٍ فى الصدر لا تحصر.

(٣) **المعانى**:

لهم: أي لبنى هاشم مجناً: أي أدافع عنهم بلساني، مثل المجن وهو الترس

الشرح:

يعلن الشاعر عن قبوله وركوبه المصاعب والأهوال وتحديه مدافعاً صامداً لكــلِّ من يسبُّ أو يشتمُ آل البيتِ.

وأُرْمَى وأَرْمِي بالعداوةِ أَهْلَهَـا	وإنِّـــي لأُوذَى فـــيهم أُوَنَّـــبُ[1]
فَمَا ســاءَني قَــوْلُ امــرئ ذي	بَعَوْرَاءَ فــيهم يجتــدِيْنى فَأُجْــدَبُ[2]
فَقُلْ للذي في ظِلِّ عَمْيَاءَ جَوْنَـــةٍ	ترى الجَوْرَ عدلاً أيْنَ لا أيْنَ تذْهَبُ[3]
بـــأيّ كتـــابٍ أم بأيـــةِ سُــنَّةٍ	ترى حبَّهم عاراً عَلَــيَّ وتَحْسَــبُ[4]

---

(١) **المعانى والشرح**:

يقول الشاعر: يرمونني بالعداوة أهلُ العداوةِ باللوم والســخافة وأســمع مــا يؤذيني كثيراً بسبب حبّى لآل البيت.

(٢) **المعانى**:

العوراء: الكلمة القبيحة. يجتدينى: أي يطلب منى الجدا، وهو العطاء.

الشرح:

لا يزال الشاعرُ يؤكد بأنه لا يكترث كثيراً بمن يعادونني لشخصـــي، وإذا مـــا عادوا آل هاشم أكون لهم بالمرصادِ.

(٣) **المعانى**:

العمياء: تأنيث الأعمى يريد بها الجهالة واللجاجة فى الباطل.

الجونة: السوداء مؤنث الجون واللفظة من الأضداد، والمرادف الفتنة المظلمـــة التـــي ليس للإنسان فيها مذهبٌ ولا طريقَ يبعده عن الجورِ.

الشرح:

يخاطب الشاعرُ الجهلاء الظالمين الذين لا يتورعون عن ظلمِ رسولِ الله "ص" المبدلين للحقائق الواضحة علماً بان كل شئ معروفٌ ومكشوفٌ.

(٤) **المعانى**:

تجسب: تظن =

فمـــا لـــيَ آلاّ أحمـــدَ شـــيعةٌ وما ليَ إلا مذهبَ الحـــقِّ مـــذهَبُ[١]

يعيبونَني من خِـــبِّهم وضـــلالِهِمْ على حبِّكم بل يسخرون وأعجـــبُ[٢]

فطائفـــةٌ قـــد كفرَتْنـــي بحـــبِّكمْ وطائفـــةٌ قـــالو: مســـيءٌ ومُـــذْنِبُ[٣]

= **الشرح**:

يقول: بأي كتابٍ أنزل من عند الله، أو بأية سنةٍ أتى بها الرسولُ تدلك على أن حب آل البيت وتمجيدهم عارٌ وضلالٌ.

(١) **المعانى**:

الشيعة: أي أولياء وأنصار

المشعب: الطريق، ومشعب الحق طريقه المفرق بينَ الحقِّ والباطلِ.

الشرح:

يقول الشاعر: إنه لا يكون ولياً ونصـــيراً إلا إلـــى آلِ رســـولِ الله (ص)، ولا يعرف إلا طريقَ الحقِّ.

(٢) **المعانى**:

خبهم: خبثهم وخداعهم

الشرح:

يتعجب الشاعر من خبث وخداعٍ وضلالِ من يعيبونه؛ بل ويسخرُ منه لمجـــرد أنه يحبُّ آل البيتِ حباً صادقاً.

(٣) **المعانى**:

لعله يقصدُ بالطائفة هنا- جماعة من الخوارج يخُطِّئون عليًّا كرَّم الله وجهه- من مذهبها تكفير من يميل لآلِ البيتِ، وطائفة تفسقه وتجعله عاصياً مذنباً.

الشرح:

يسرد الشاعر مسفهاً أفكارَ الخوارج تلك التي يخطئ بعضها علياً بينمـــا يفســـقه البعض الآخر فيجعلونه مذنباً عاصياً.

فما ساءنى تكفيرُ هاتيكَ منهمُ ولا عيبُ هاتيك التى هي أعْيَبُ[1]

وأحملُ أحقادَ الأقاربِ فيكُمُ ويُنْصَبُ لي فى الأبعدينَ فأنْصَبُ[2]

بحقِّكُمُ أمستْ قريشٌ تقودُنا والفذِّ منها والرَّديفَيْن نُركَبُ[3]

ألمْ ترني من حبِّ آلِ محمدٍ أروحُ وأغدُو خائفاً أترقَّبُ[4]

وقالوا ورثناها أبانا وأمَّنا وما ورَّثتهم ذاك أمٌّ ولا أبُ[5]

---

(١) **المعانى والشرح**:

ساءنى: أساء إلي — هاتيك: يقصد المشار الطائفتان

(٢) **المعانى**:

يقال نصب فلان لفلان نصباً: إذا قصد له وعاداه، وناصبه الشر والعداء والحرب مناسبة أظهر له.

الشرح:

يقول: إننى أحتمل حقدَ الأقارب عليَّ من آل البيت، وأناصُب العداوة لمن يظهر لي من لأبعدين.

(٣) **المعاني والشرح**:

الفذ الفرد والرديفين الاثنين أحدهما خلف الآخر يقال يراد بالفذ معاوية وبالردفين وما يليانه فى الخلافة وهم من قريش قوله: بحقكم: أي بالخلافة التى كانت من حقكم فاغتصبوها صارت ترأسنا قريش – يعنى بنى أمية– وترعى أمورنا.

(٤) **المعانى والشرح**:

أغدو: أرجع — أترقب: انتظر

(٥) **المعانى**:

ورثناها: يعنى الخلافة =

يرونْ لهم حقّاً على الناس واجباً سفاهاً وحقُّ الهاشـميين أوْجَـبُ[١]

ولكن مواريثُ ابنِ آمنـةَ الـذي بـه دان شـرقيٌّ لنـا ومُغَـرِّبُ[٢]

فِدًى لك مَوْرُوثاً أبي وأبو أبـي ونَفْسي ونفَسِي بَعْدُ بالناسِ أطْيَبُ[٣]

بهِ اجتمَعتْ أنسابُنا بعـدَ فُرْقَـةٍ فنحنُ بني الإسلام ندعى وننسـبُ[٤]

- **الشرح**:

يقول بنو أمية: لقد ورثنا الخلافةَ عن آبائنا مع أن آباءهم وأمهاتهم لاحقَّ لهم في الخلافةِ مطلقاً.

(١) **المعاني**:

سفاهاً: عبثاً

الشرح:

إنهم يرون أنفسَهم أحقَّ بالخلافةِ من غيرهم، مع أنَّ حقَّ آلِ البيتِ كانَ واضحاً للعامةِ والخاصةِ وواجباً.

(٢) **المعاني**:

ابن آمنة: يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم

مواريث: جمع ميراث، وهو ما يخلفه الآباء للأبناءِ دان: أي خضع ودانَ

الشرح:

يأخذ الشاعرُ على بني أميةَ مناقضاتهم أنفسهم فيقولون إن الأنبياء لا يورثون، ولذلك فلا حقَّ – فى رأيهم– لآل البيت في الخلافة، وهذا زعم أو محض افتراء؛ لأن بنى أمية لم يتصدوا لأمر الخلافة إلا لأنهم من قريش.

(٣) **المعاني**:

فِدى: يتمنى أن يفدي الرسول (ص) – بروحه ورح أبيه وجدّه.

(٤) جاء فى هاشميات الكميت: فنحن بنو الإسلام =

حياتكَ كانت مجْـدَنا وسـناءَنا	وموتُكَ جَـدْعٌ للعـرَانين مُرْعِـبِ[1]
فبُورِكْتَ مولوداً وبُورِكْتَ ناشـئاً	به عنـد الثَّيْـبِ إذا أنْـتَ أثْيَـبُ[2]
وبُوركَ قبرٌ أنت فيـه وبُورِكَـتْ	بـه ولَـهُ أهْـلٌ لـذلك يثْـرِبُ[3]

= فمن جاء بـ(بنى) قد نصبها على الاختصاص مفعولاً؛ لفعل محـذوف مـع فاعله تقديره" "تخصُ أو نعنى"، وأما بنو فإنها خبر للمبتدأ نحن.

(1) **المعاني**:

الجدع: قطع الأنف وعرنين الأنف هو نحت مجتمع الحاجبين، وهو أول الأنـف حيـث يكون فيه الشمم ويقال على المثل هم عرانين الناس أى وجوهم، وعرانين القوم أشرافهم وساداتهم.

والسناء بالمد: المجد والشرف وبالقصر الضوء

الشرح:

يصفُ الشاعرُ حياةَ الرسول العظيم (ص) بأنها كانت ولم تزلْ سـبيل رفعتنـا ومجدنا وشرفنا وعزتنا وبموته انقطعَ سبيلُ هذهِ العزةِ....

(2) **المعاني**:

الثيب: الثواب الكثير.

(3) **المعاني**:

به: أي بالقبر وهو أهل لذلك

يثرب: مدينة رسول الله (ص)

الشرح:

يدعو الشاعر لقبرِ رسولِ الله (ص) بالمباركة حيثُ تبارك أهلُ يثـربَ مدينـة الرسول الكريم.

يقولونَ لمْ يورثْ ولـــولا تُراثُـــهُ لقد شَرِكَتْ فيـــه بكيـــلٌ وأرْحَـــبُ[١]

فإن هي لمْ تصلُحْ لحيٍّ ســـواهم فإن ذوى القُرْبَى أَحَـــقُّ وأَقْـــرَبُ[٢]

فيا موقداً ناراً لغيـــرِكَ ضـــوؤُها ويا حاطِباً في حَبْلِ غيرِكَ تحطِـــبُ[٣]

على أيِّ جُـــرْمٍ أمْ بأيَـــةِ ســـيرةٍ أُعنَّفُ في مـــدحى لهـــمْ وأُؤَنَّـــبُ[٤]

أناسٌ بهم عزَّت قريشٌ فأصبحوا وفيهم خبـــاءُ المكرمـــاتِ المُطَنَّـــبُ

---

(١) **المعاني**:

بكيل وأرحب: قبيلتان من قحطان.

الشرح:

يقول الشاعر: إن شرف قريش مستمدٌ من محمد (ص)، ولولا ميراثُ محمـــدٍ لوجبَ أن تشارك فى الخلافة قبائل قحطانية كقبيلتى "بكيل وأرحب

(٢) **الشرح**:

إن كان الأمر في قريش قوم محمد فإن ذوي قرباه هم أولى الناسِ بهذا الأمرِ.

(٣) **المعانى**:

التقريط مدح الرجل حيّاً، وأونب من التأنيب وهو التوبيخ......

(٤) **المعانى**:

المطنب: الممدود بالطنب وهو حبال الخيمة.

ثالثاً: التيار الوجدانى عرضاً وتحليلاً:

تعدُّ هذه القصيدةُ من الشعر السياسي ذاك الموضوع المستحدث فى العصر الأمويِّ لدوافع قد سبق أن عرضناها بالتفصيل، فهى علويةُ النزعةِ، صبغيةُ التشيعِ، عرقيةُ المعتقدِ حيث تختلط فيها أمشاج موضوعيةٌ متفاوتةُ الغرض فما بينَ مدح آل البيت حيثُ يظهرُ -فيه بوضوح- إلمامه واستيعابه الكامل للمبادئِ الإسلاميةِ، والسنةِ النبويةِ المطهرةِ وسلامةَ معتقدةِ، وصفاء نفسه وجلاء طبعه.... وما بين هجاءِ بني أمية الذين اغتصبوا الخلافة اغتصاباً...

وفى ثنايا الموضوعية يظهرُ البكاء على من اضطهدوا، وقتلوا لاسيما الحسينُ وزيدُ ويحيى بنُ زيد، وغيرهم ممن شوه بنو أمية جثثهم بعد موتهم.

مهما يكن من أمرٍ فإن هذه القصيدةَ هى واحدةٌ من عدة قصائد نظمها الكميتُ فى آل البيت وسماها "الهاشميات" نسبة إلى بنى هاشم، وقد أشادَ النقادُ بهذهِ القصيدةِ، واعتبروها أجود الهاشميات، حيث أشارَ الجاحظُ إلى احد أبياتها فقال: "......... ما فتح للشيعة باب الجدل والمحاجة إلا الكميت حين قال:

يقولون لم يورق ولولا تراثه لقد شركت فيه يكيل وأرحبُ

مهما يكن من أمرٍ فإن الشاعرُ يستهلُّ قصيدته بمقدمةٍ بارعةٍ، كم تتمتعُ بالعديد من عناصرِ التشويق والإغراءات الفنية تلك التي سيَّرت دبيب الجماليةِ، ومطلقِ الإبداعية فى حنايا عمله الشعري هذا، بأن شكلت التركيباتِ الصياغيةَ والدلاليةَ والإيقاعيةَ والإنتاجيةَ المعرفيةَ لاسيما عندما أبرزَ فيها شدة تشوقه وصدق حبِّه لآل البيت، معتبراً أنهما الأمر الذى أطرب شاعريةَ الكميت النقيةَ المعزولة عن كل ما دونها من الماديةِ التى ازدحمت بها، أو اصطدمت بمشروعها الشعرى..؛ لذا فلقد راحَ يمتدحهم معللاً دوافعَ مرافعاته بأن: آل البيت هم أهل الفضائل والتقى، ومؤكداً أن طربه -إلى أولئك القوم المباركين الذين يتقرب إلى الله بحبهم ويلاقي الأذى من أجلهم حيث يرضى ويغضب تبعاً لرضاهم وغضبهم- كان نتاجاً طبيعياً نظراً لوجودِ مرجعيات ذات أصباغ نفسية وتاريخية واجتماعية ونفسيةٍ فى سيرة الشاعر الذاتية.

أجل لقد تذلل لآل البيت وآية ذلك أن جناحيه مخفوضان لهم على صدر ملئ بالمحبةِ والسعادةِ التى لا توصف فى جوٍّ مشعٍ بالأريجية المجنحةِ والتآليفيةِ العاطرةِ... وكل هذا مثله خطابه الشعري البالغُ الحدةَ، العالي الجدة، السامي فى المغزى والمعنى والمبنى وهنا يعلن أن هذا المنحى سيظلُّ مذهباً يتمسك به مهما أحيط به من خوفٍ أو غضبٍ وكراهيةٍ طالما أنه يحب آل البيت وعلى المحب أن يتحمل فى سبيل محبته ما لا يُنْتَظر....

بعد ذلك يتساءل مستنكراً -بحس غيريٍّ نافذٍ ومكثف- كيف يمكنُ معاتبته فى محبة آل البيت؟

ثم يجيبُ عن هذا التساؤل بآخر؛ ليكشف عن حيرته فى أمرِ هؤلاءِ قائلاً: وهل فى كتاب الله وسنة رسوله ما يعيبُ محبته هذهِ...!!! ومثل هذا التساؤل يرشدنا إرشاداً موجّهاً إلى مقدار ما لاقى من حجم نظراتِ الحقدِ والغيرة، ومحذراً نفسه من تلك العيونِ الراصدة.

هذا وتجئ الأبياتُ الأخيرةُ مترجمةً -بشكل أمينٍ ومباشرٍ- نقاشاً منطقيًّا هادئاً حول ماهيةِ الخلافةِ، ومن أحقُّ بها، وفيها فنَّدَ مزاعم أو تخرصاتِ بني أمية الذين يرون أنهم أحقُّ بالخلافة من غيرهم دون أن يوجدوا من المبررات ما يعزز رأيهم أو يدعمُ حجتهم...، وفى هذا دافعٌ كبيرٌ يجعله يشتاطُ غيظاً، ويكون أكثر نقمة على بنى أمية الذين ناصبوه العداء؛ لكونه يحبُّ آلَ البيت.

على كلٍ فلقد أوجد العلل او الأسباب لما ذهبَ إليه فى حواريةٍ هادئةٍ عميقة المعنى وبعيدة المغزى، كما ناقش التداعيات بموجب إرث فكري مرسخٍ ومجذرٍ في داخله، حيثُ أبانت الأبياتُ عن هذا المخزونِ الولاج، فضلاً عن هذا كله فإن عدة مساراتٍ أو أبعادٍ فنيةٍ ذات صياغاتٍ ودلالاتٍ وصبغياتٍ وإيقاعات] لعبت دوراً بارزاً فى إخراجِ الهاشميةِ ذات البائية المضمومةِ؛ لتتناسبَ مع محصول الغضب ذاك الحصاد المرّ الذى جناه من بني أميةَ الذين انشقوا عن صفِّ الجماعةِ، وكانت عاقبة أمرهم خسراً.

هذا ولقد اخترنا التيار الوجداني -موضوع الدراسة للهاشمية التي نحنُ بصدد شرحها- عسى أن يكشفَ عن مخبوءٍ ثمينٍ قد يفيدُ الدراسةَ وإن كنت لا أدعي لنفسي الإحصاءَ والإلمامَ بالدراسة، إذ أنها محاولةٌ أو شروع لمرحلة قادمةٍ تجئ الدراسةُ عندها وقد استوفت أدواتها المنهجيةَ إن شاء الله تعالى.

مهما يكن من أمرٍ فإن تيار الوجدان(١) يلعب دوراً كبيراً فى تسيير وتفعيل العمليةِ الشعريةِ بكل إبداعاتها وصياغاتها، إذ يعدُّ عنصراً فاعلاً من عناصره، بل مقوماً جاداً وكاشفاً من أرفع مقوماته وأعلاها شأناً، فهو لا

---

(١) يخلط كثير من النقاد بين مصطلحات ثلاث (الوجدان والانفعال والعاطفة)؛ لكن علماء فضوا ما تداخلَ من وجهات النظر فقالوا: إن الوجدان يشمل الانفعال والعاطفة كسرورك الهادئ من منظر طبيعى، أو ارتياحك إلى صديق؛ أو كلمة طيبة تسمعها أو طعام شهى.... وجدان أما الانفعال فهو وجدان ثائر أو وجدان قوي يهزُّ كيانَ النفسِ، وتظهر آثاره فى الجسم والعقل، وهو لا يظهر إلا حين تكون غريزةٌ من الغرائزِ فى حالة نشاطٍ وذلك كالخوف والغضب والاشمئزاز والاستغراب والحب العنيف، وأما العاطفةُ فهى مجموعةٌ من الانفعال ارتبطت بشئ أو شخص أو معنى، وقيل: هي مجموعة منظمة من الانفعالات تتجمع حول معني شئ من الأشياءِ كعاطفة الحب لأم التى تنمو فى النفس على مر الزمن، وهذه العاطفة استقطبت حولها عدداً آخر من الانفعالات كالغضب إذا اعتدى أحد على أمه والخوف إذ تعرضت لمكروه والفرح إذا ما ارتسمت على وجهها علامات الرضا، والعاطفة مكتسبة حيث يتوقف اكتسابها على تعدد التجارب.

يعدو أن يكون أكثر من أداة فى منظومة العمل الفنى، ولا قيمة لعملٍ أدبي دون أن يصبحَ تيار الوجدان سارياً بين حناياه، إذ يهبهُ الـــروحُ الجماليـــةَ التى تجعله ينطقُ بالحياة فيشب فتياً يحاورُ ويشاورُ فى عقل متلقيه.

وبالنظر لهاشميةِ الكميت ذات البائية المضمومةِ فإنهـــا اســـتوعبت خصائصها الجماليةَ والإبداعية، لأنه حلَّق فى وجدانية داخلية وخارجية، لذا راحت تشكلُ كونيةً ذاتَ سماويةٍ طيفيةٍ.

إننا لا نبالغ إذا قلنا: إن التجربة الشعرية التى عاشها الشاعر قــد وقع تحت تأثيرها يعاني ويتألم بشدةٍ وبتكبدٍ.. لكن كلَّ هذا مضمراً فى نفسه كالنار تحت الرماد لا يشعر بها من أحد سوى منشئ العمل الفنى، مـــا لـــم يُتَحْ له ما يدفعها بقوةٍ من دائرة النفسِ حيثُ يهزُّ كيانها إلى دائرةِ الواقـــعِ الفنىِّ بكل ظلاله وأطيافه هذه القوى هي مجموعةُ الإنفعالاتِ والأحاســـيسِ الصادرة وقد جمعت فى هدوء مرتبطة بحب آل البيت متفاعلة مع مجموعة الخبرات النفسيةِ تفاعلاً تاماً قد يصلُ إلى حدِّ التماهي؛ لكن دون يفقد كـــلٌّ تخصصه وأصباغه المعرفية والنوعية، ونتيجةُ هذا التفاعلِ هي التي تظهرُ فى التعبير عنها، وذلك فى قالب لفظى.

على كلٍّ فإن الانفعال ذلك الوجدان الثائر فى التجربةِ هو الذي يدفعُ المنشئ؛ لأن يخرجَ تجربته الشعوريةَ للنور في طواعيةٍ وتلقائيةٍ تكشـــفُ عن طبيعة صراع ملحمي محتدمٍ بين نفسٍ مستسلمةٍ، وانفعال ثائرٍ فى جو مشحونٍ بالتضادية التى ميزت الاتجاهاتِ.

عوداً على بدءٍ فإن الناظر فـــى هاشـــمية الكميــت تلــك البائيــةِ المضمومةِ قد يلمسُ –بجلاءٍ– أن تياراً دفيناً قد سرى فـــى أدقِّ شـــعيرات تجربته حتى كان من شأنه أن ضخَّ في عملـــه –هـــذا– دمـــاءَ الحركيـــةِ والتمازجية؛ لذا غدت القصيدة بستاناً يانعاً، وقد تعددت ألوان ثماره؛ لكـــن مذاق جماله كان رائعاً.

فالكميت لم يجئ انفعاله الثائر أو وجدانه القوى أحادياً، بـــل كـــان مركباً متناقضاً بعدما انشطرت الذاتُ الشاعرةُ نصفين متقابلين فى الخواصِّ وإن كانا متفقين فى الطبيعةِ النوعيةِ.

أما الأول: **فهو الحبُّ الشديدُ لآل البيت** حيث أكد فيه تأكيداً –لا شيةَ فيه_ على أنه يفوقُ مترفعاً عن كلِّ المغرياتِ والمطامعِ الماديةِ بلـــذاتها أو مفاتنها وآية ذلك قوله:

طربْتُ وما شوقاً إلى البيضِ أُطْربُ	ولا لعباً مني، وذو الشيبِ يلعـــبُ؟؟
ولم تلهنـــى دارٌ ولا رســـمُ منـــزلٍ	ولـــم يتطربْنـــى بنــــانٌ مخضَّـــبُ
ولا أنا ممَّنْ يزجُـــرُ الطَّيـــرُ همَّـــهُ	أصـــاحَ غـــرابٌ أم تعـــرَّض ثعلـــبُ
ولا السانحاتُ البارِحَـــاتُ عشـــيةً	أمرَّ سليمُ القـــرنِ أمْ مـــرَّ أعْضَـــبُ

حيثُ لعب الوجدان دوراً رائعاً، وذلك فى عرضِ مقدمةٍ مشوقةٍ عن أمرٍ هاج أشواق الكميت وطربه نافياً أن يكونَ النساءَ أو اللهوَ واللعـــب أو أطلال الأحباب إلى غير ذلك هو السبب؛ لأن كلَّ هذا يتنافى مع طبيعتـــه أو تركيبته النفسية، مثبتاً الحبَّ والشوق لآل البيت، هذا وأرى أن ذكرَ الشاعر

لأطلال الأحباب لا يضيف جديداً؛ لأنه طالما قد نفى حبَّ النســاء – جملــة وتفصيلاً– فلم يذكر أطلالها ظلَّ هذا العالم.!!

فالناظرُ هنا لتيار الوجدان يرى أنه شلالٌ متدفقٌ؛ لا يقــف أمامــه حاجزٌ مهما كانت جسارته، سواءً أكان على الجانبِ التعبيري فنلحظ –مــن خلال عدة موثيفات– اكتشافَ عدةِ دوال كاشفةٍ عنه وفقَ نظــامٍ صــياغي وإيقاعي ينمُّ عن قوةِ الوجدان فى عمله الشعري حيث نرى "طربت" التــى جاءت حاملةً الحالةَ الشعورية بكل أطيافها الجماليةِ والحســيةِ، ومراهنــةَ على استيعاب أهازيج الفرح، وترانين المسرات.. إنهــا حالــةٌ ترجمانيــة يقدمها الفعل –على اختلافِ أزمانه– مستعيناً بالتجاوبيــة المطلقــة، وردَّ الفعليةِ الحركيةِ ذلك أن الطربَ يكونُ خفةً تعتري صاحبها نتيجــةً لشــدة الفرح هذه الخفةِ تكون أشبه بالماسِ الكهربائى أو شيئاً قريباً منه.

هذا ويحاولُ الشاعرُ –بعد ذلك– المجئَ بعدةِ تراكيبَ أو أدوات نفى للرغبة الملحة فى الإبقاء أو الملازمة على حالة بما يكفل لها مدى قوتهــا واستمرارها هكذا"

ولكى يبرهنَ الشاعرُ على صدقِ عاطفته وروعة شعريته – منتجةِ النص– نوَّعَ فى أدوات النفى بين "ما" النافية شوقه إلى النساء على انتشارٍ واسعٍ وقد حقق لها تأثيرها بأن جاء بالاسم "شوقاً" نكرة لتميز وتوضــيح هذه الخفة وتعظيمها ثم "لا" النافية للجنس التي تنفى اللعب علــى جــنس

رغباته، ثم بالجملة الاسمية "ذو الشيب يلعب" التي تتضمنُ معنـــى النفـــى الضمني والاستفهام المبنى على التعجبى، وهذا النظامُ الصياغي الماثلُ فى البيت قد لجأ إليه محاولة منه للابقاء على جوهرِ الطربِ وحضوره الفاعل على صفحة الحدث.

وننظر في البيت الثاني فنجد "لم" الداخلة على الجملتين الفعليتـــين "تلهنى، يتطربني وذلك الدالة على النقي لما يستقبل من الزمان ثم تصويره فى المضى، وهذا يتناسب مع حالة الكميت النفسية؛ لأنه لا يصحُ أن يمسى على مذهبٍ، ثم يصبحُ على آخر حتى فى المنظور العاطفى.

إنه ومن خلال استخدام "لا" ما بين نافيةٍ، ونافيةٍ للجنس أربع مرات "وما" واحدة "ولم" مرتين، وكذلك استخدام الشاعر لنكراتٍ جـــاءت مرتبـــةً كالتالي "شوقاً- لعباً، دار رسم، منزل، بنا، مخصب) لتـــدل تمـــامَ الدلالـــةِ والوضوح على الشمول والعموم؛ ليؤكد أمرين: **الأول**: رفضه لكـــل هـــذه النكرات بكل أفضيتها أو إشعاعاتها **الآخـر**: ثبات موقفه فى الاختيار، وثقته فى قدراتهِ النفسيةِ التى كانت مطلقةً أى غير محدودة بحدودٍ.

هذا فضلاً عن استخدامه للأفعالِ بحركيتها ومداراتها الزمنية حيـــثُ جعل المضارعةَ المفرغةَ من دلالاتها المستقبلية -بعاملي النفى والجزم فى (أطرب، تلهنى – يطربنى – يزجر) فى مواجهـــة ثنائيـــةٍ تضـــاديةٍ مـــع الماضوية وخصوصاً (طربت)، وإن جاءت الغلبةُ والســـيطرةُ للماضـــوية؛

دليلاً على الثبات فى الموقف دون تحول أو تبدل، ورغبة فى تحدى الأهوء والأمزجة والإغراءات على ضوءِ واقعه النفسي.

هذا ولا ننسى ذكرَ الشاعرِ لمادةِ "طرب" ثلاث مرات الأولى ماضيةً، والثانية مضارعة مسبقة بالنفى، والثالثة مضارعة محولة إلى المضي عن طريق "لم" التي تنفي وتجزمُ وتقلبُ ليؤكد أمرين:

الأول: إبقاؤه على الطرب بآل البيت ثباتاً على المبدأ والحس والشعور وفى هذا صدقٌ كبيرٌ.

الآخـر: إن تكرار مادة طربَ من شأنه أن يقدمَ قيمةً صوتيةً عليا تتناسـب فيها حالته النفسية مع جلالة ومهابة المحبِّ.

إذن فالوجدانُ الثائرُ قد استطاع أن يتفاعلَ مع تجربةِ الشوقِ فـى الأبيات الأولى؛ ليعلن عن حالة التمرئ الواضحة على كلِّ ملهياتِ العصـر المادية، والثبات والاستمرار على حبِّه وصدقه لآلِ البيتِ.

أجل لقد أظهر الحبُّ –بجلاء– بعد أن قدمَ أوراقَ اعتماده مخلصـاً للآل البيت بشكلٍ تجريدى وتنظيري وذلك فى قوله:

ولكنْ إلى أهلِ الفضائلِ والتُّقَـى   وخيرِ بني حوَّاءَ، والخيـرُ يُطْلَـبُ

إلى النَفَرِ البيضِ الذين بحـبِّهِم   إلــى اللهِ فيمــا نــالنى أتقــرَّبُ

حيثُ نرى مشاعرَ الحب التي وصفها الشاعرُ وإعلانه أنه يطـرب إلى أولئك القوم المباركين الذين قد تقرب إليهم بحبه ومدى شوقه........

والناظر إلى البيتين السابقين -وما يحمـــلان مـــن قـــيمٍ صـــياغيةٍ ودلاليةٍ- يرى أنا قدمت إيحاءاتها كالتالي: جاء البيتُ مصدراً بــــ "لكــن" ليمنع من استدراك أو وقوع الفهم الخاطئ ليؤكد على شرعية هذا الحــب ووجوبه، ثم مجئ "خير" مرتين الأولى معطوفة على جملة الصفات الجليلةِ التى وصف بها آل البيت والأخرى مصدره بالابتداء أو الجملـــة الاســـمية دليلاً على أولويته ومدى قيمته...

وننظر إلى شبه الجملة "إلى النفر" الموصوفة "بالموصول الاســـمى الذي افتقر إلى جملة الصلةِ" أتقرب. وكذلك الموصول الاسمى "مـــا" الـــذى افتقر إلى جملة الصلة "نالني"فلعل ذكره لأكثر من موصول اسمى يفتقر إلى جملةِ الصلةِ لا يؤكد مدى حاجته فى الرغبة الملحة لصـــلته بـــآل البيـــت، وحاجته الماسة إليهم، ولربما اعتبرَ آل البيت الصلةَ نفسها التي يتقربُ بها الله سبحانه بالطاعة والخضوعِ والاستسلامِ.

هذا فضلاً عن استخدامه للألفاظ "البيض- بحبهم – نالني- أتقرب" فإنها تحمل انفعالاتِ وأحاسيسِ الشاعر الصادق تجاه آلِ البيتِ وهنا يتجلى التيارُ الوجداني الذي تكشفُ الأبياتُ التاليةُ عن تدفقه منساباً فى قوله:

بني هاشمٍ رهطِ النبـــيِّ فـــإنني	بهم ولهمُ أرضى مـــراراً وأغْضَـــبُ
خفضتُ لهم منِّى جناحي مـــودَّةً	إلى كنفٍ عطفـــاه أهـــلٌ ومَرْحـــبُ
وكنتُ لهمْ من هـــؤلاءِ وهـــؤلاء	مِجنَـــاً علـــى أنِّـــي أذَمُّ وأُقْصَـــبُ

حيثُ يبلغُ الوجدانُ الثائرُ مداه فيندفعُ منطلقاً بحركيةِ الحلم والسعادة دون أدنى وازعٍ من خوفٍ أو توترٍ إشاري إو إسنادى؛ وذلك ليعلن عن حالةِ الاستغراقِ التامِ والمطلق فى آل البيت راضياً بتحمله – في سبيلهم- أذىً كبيراً، ومصاعبَ جمةً.

وهنا تجئ ألفاظ "الرضى- خفضت – جناحي مودة- عطفاه- أهل – مرحب" لتقدمَ قيمها الدلالية، وفقَ نظامها الصياغيِ فى استشـرافيةٍ عليا تحمل نسمات المودة والاحترام، وتعبق بأطياف السعادة، طالما أنها تمتاح من ينابيع الحب وشلالات الصدق وذلك فى ألفةٍ وانسجامٍ.

كذلك فلقد لعبت الأساليب دوراً بارزاً فى تعضيد ذاك الوجدانِ الثائرِ هنا فنرى مثلاً المؤكدات من خلال "إن" فى "إنني"، والقصر الماثل فى تقديم الجار والمجرور "لهم" على الحملة الفعلية أرضى وذلك لتحديد وتخصيص وقصر الرضى على "آل البيت" دون غيرهم.

كما نلاحظُ سيطرة الضمائر على الصياغةِ بكلِّ مستوياتها الدلالية حيثُ نجدُ حركيةَ الحضورِ الفاعل للشاعر من خلال ياء المتكلم فى "فإننى- "إنى – مني" والتاء في "خفضت" "كنت" وهاء الغيبة التى تمثل الغائب الحاضر فى بهم، لهم ، ولهم، لهم. وكذلك المستترة فى (أرضى، أغضب- أذم – أقصب- إلى غير ذلك.....

إننا لا نبالغ إذ قلنا إن تواجدَ هذه الضمائر بكثافة يولى الذات؛ كي تؤدي دوراً بالغاً فى إنتاج المعنى، وذلك بتدخلها المباشرِ أو غيرِ المباشرِ فى كلِّ حركةٍ صياغيةٍ، بل إنها تفرضُ حضورها الواسعَ والفاعلَ لزوماً مع كل ضميرِ...... ولعل هذا أتاحَ له أكبر مساحةٍ من الحركة الطليقة التي تندفعُ إلى خطوطِ الدلالةِ الرئيسية والفرعية محققةً أهدافها التى سعت من أجلها وهي مبدأ تكثيف حضور آل البيت مع كل ذرة فى كيانه.

ما مضى من حديثٍ كان عن المسالك التعبيرية، أما عن الأنماط التصويرية فإننا نلاحظ الصورةَ الفنيةَ المركبة فى "خفضت جناحي مودة" حيثُ نجدُ الأولى الكناية فى "خفضت جناحي والأخرى جناحي المودة وهي استعارة مكنية تخيل المودة طائراً مغرداً وقد حذف المشبه به، وجاءَ بلازمهِ من لوازمه وهي جناحان وسر جمالها التجسيم وتوحى السعادة والتودد الصادق والحار وذلك لآل البيت، كذلك تشبيه نفسه بالترس فى الدفاع عن آل البيت.

الآخر: **الغضب الشديد من بني أمية** بسبب زعمهم المقيتِ بأنهم أحقُّ بالخلافةِ من غيرهم دونَ أن يوجدوا العللَ والأسبابَ التى تدعمُ مواقفهم، أو توْصلها بالعمقِ أو الثبتِ التاريخي.

ننظر إليه فى هذا الصددِ قائلاً:

وأُرْمَى وأَرْمَي بالعداوةِ أهْلَهَا ... وإنِّي لأُوْذَى فيهم أُوَنَّبُ

فَمَا ساءَني قَوْلُ امرئ ذي عَدَاوَة   بَعَـوْرَاءَ فـيهم يجتـدَيْنى فَأُجْـدَّبُ
َفقُلْ للذي في ظلِّ عَمْيَـاءَ جَوْنَـةٍ   ترى الجَوْرَ عدلاً أَيْنَ لا أَيْنَ تـذْهَبُ
بـأيّ كتـاب أم بأيـةِ سُـنَّةٍ   ترى حبَّهم عـاراً عَلَـيَّ وَتَحْسَـبُ

حيثُ نراه يبرزُ حجمَ ما قُوبِل به من عداوة، أو مالاقـاه مـن أذى صادرٍ من جهلاء ظالمين... وكلُّ هذا لكونه يدافعُ عن آل البيت.

والكميتُ في هذا الخطابِ الشعرىِّ تعمدَ تكرارَ عـدة ألفـاظ مثـل (أرمى- عداوة، أين) وفى هذا دليلٌ على صدق المعاناة التى لاقاهـا فـى سبيل حبه لآل البيت:

ثم يرفع صوت خطابه سبيلاً لإفشاءِ مخازيهم أو معايبهم -علـى جانب- ثم إحساسه بالشعورِ المغيظِ الخانقِ بسببِ تصرفاتهم المشينةِ على جانب آخر قائلاً:

يعيبونَني من خـبِّهم وضـلالِهِمْ   على حبِّكُم بل يسخرون وأعجـبُ
فطائفـةٌ قـد كفرتْنـي بحـبِّكمْ   وطائفـةٌ قـالو: مسـئٌ ومُـذْنبُ
فما ساءنى تكفيرُ هاتيكَ مـنهمُ   ولا عيبُ هاتيك التى هـي أعْيَـبُ
وأحملُ أحقـادَ الأقـاربِ فـيكُمُ   وَيُنْصَبُ لي فى الأبعدينَ فأنْصَـبُ

حيث ظهر الوجدان من خلال زحم هائل من التفـاعلات الداخليـة الملتهبة ذات الكيميائية الحيوية، والمشاعرِ الخارجية ذات الدوال المختلفة التى تدفع المتلقي؛ لكى يعايشَ تجربةَ الإبداع نفسها، ويحترق فى أتونها.

لقد عايش الكميت مرحلة غضب جارفة، كادت أن تصلَ إلى ضـــياع داخلي بسبب إصرارِ بنى أميةَ على التمسك بالخلافةِ.... هـذا ويبـدو أن الخطاب الشعرى قد كشف عن خطوطٍ بالغـةِ التعقيـدِ، أو دقـائق عاليـة الحساسية فى القضية الأساسيةِ هنا..

صحيح أنها نسجت أو بلورت المرافعةَ المنطقيةَ الهادفةَ التى جاءت نتاجَ مواجهة نقديةٍ كان قوامها الصياغةَ ذاتَ التقابلية؛ لتحديـد خواصـها المفارقة، ولتمثل ركيزة أساسيةً فى إنتاج المعنى حيثُ يعملُ علـى تعـددِ الأصواتِ الغائبة لمؤازرة صورة الذات المعذبةِ الشاردة.....

فبالنظر إلى النظامِ الصياغى نستطيعُ اكتشاف عدة دوالٍ أهمها:

حالة النقد اللوذعي فى (يعببوننى- يسخرون) حيث تقـدم خطابـاً معرفياً بكشف عن طبيعة أو نوعيةِ عقليةِ بنى أمية التي تعتمدُ على التهكم والتوهيمِ والتهويمِ، فذكر السخرية يدل على عدم تقديرهم للأمور، ومعرفةِ أقدارِ الناسِ..

وتستمر حالةُ التشهير، وكشف المخازي بمنطق هادئ رزيـن فـي قوله:

وقالوا ورثناهـا أبانـا وأمَّنـا	ومـــا ورَّثـــتهم ذاك أمٌّ ولا أبُ
يرونْ لهم حقّاً على الناس واجباً	سـفاهاً وحـقُّ الهاشـميين أوْجَـبُ
ولكن مواريثُ ابنِ آمنـةَ الـذي	بــه دان شــرقيٌّ لنـا ومُغَــرِّبُ
فِدًى لك مَوْرُوثاً أَبي وأبو أبـي	ونَفْسي ونفسِي بَعْدُ بالنـاسِ أطْيَـبُ

وفيها يأخذُ على بنى أمية مناقضاتهم أنفسهم مؤكداً أن الأنبيـــاءَ لا يورثون، لذلك فلا حقَّ لآلَ البيتِ في الخلافةِ، وهذا زعمٌ أو محض افتراء، لأن بنى أمية لم يتصدروا لأمر الخلافة إلا لأنهم من قريش، وشرف قريش مستمدٌ من شرفِ رسولِ اللهِ، ولولا ميراث محمدٍ لوجب أن تشـــارك فـــي الخلافة قبائلُ قحطانيةٌ كقبيلتى بكيل وأرحب.

لقد لعبت الدوالِ فى الأبيات السابقةِ دوراً كبيراً فى التحليـــق فـــى دائرة الشعرية وترسيخِ هذا المفهوم وفق النظامِ الصياغيِ حيث مارست كلَّ ألوان التفاعل وخصوصاً فى ذكره للفعلين (قالوا – يرونِ) اللذين قذفا كـــل التحرصات والمزاعم فى دائرة الظنونِ؛ سبيلاً لإظهار المخازى والمعايـــب وكشفهم.

كذلك تلعب "لكن،" دورها فى منع الفهم الخاطئ وهو تصـــديق كـــلٍّ هذه المزاعم تلك التي فندها الشاعر بشكلٍ أو بآخر.

عوداً نرى سيطرة ضمير الغائب فى (قالوا– ورثناها، ما ورثتهم– يرون – لهم) وكل هذا يوحي بالتبرؤ من أفعالِ هؤلاءِ، وضرورةِ الـــتخلصِ من معتقداتهم الساذجة تلك التى تنم على ضعف عقيدتهم، وضآلةِ عقولهم.

هذا وكان من أظهر خواصِ التيارِ الوجدانى أن تحققـــت فيـــه كـــلُّ المقاييسِ المطلوبة ونذكر منها الصدق، ولعل هذا ماثلٌ فى قوله:

فِدًى لك مَوْرُوثاً أَبي وأبو أبـــي ونَفْسي ونفَسي بَعْدُ بالنـــاسِ أطْيَـــبُ

وفى قوة العاطفة نقرأ قوله:

حياتكَ كانت مجْـدَنا وسـناءَنا   وموتُكَ جَـدْعٌ للعـرَانينِ مُرْعِـبِ

وفى ثباتها واستمرارها نقرأ قوله:

فبُورِكْتَ مولوداً وبُورِكْتَ ناشِـئاً   به عنَـد الثَّيْـبِ إذا أنْـتَ أثْيَـبُ

على كلٍّ فإننا نلاحظ ُاستدعاء الشاعر -للإرث التاريخى- على كافة مستويات دلالاته قد جاء ركيزةً أساسيةً فى إنتاج المعنى فى القصيدة حيث ظهرت نقطة النقل الدلالي الذى جاء من الإرث التـاريخي؛ ليكشـف عـن ملامحه التراثية.. هذا ونعتقد أن ظاهرةَ الاسـتدعاء الأولـى -فـى هـذا الخطابِ الشعرى- كانت صاحبة السيادة.

المبحث الرابعُ

قطراتٌ غزليةٌ
من بحورِ
عشقِ جميلِ العذريةِ



أولاً: بطاقة الشاعر المعرفية:

اسمه: جميلُ بنُ عبد اللهِ بن مَعْمَر بن الحارث بن الخَيْبَرِيّ بن ظبيان بن جُنّ بن ربيعة[1].

نسبه: ينتسبُ إلي بني ربيعة بن حرام بن ضِنّه بن عبد بن كبير بن عذرة ابن سعد بن هزيم بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحافي بن قضاعة[2].

هذا ويقال: إن قبيلةَ الشاعرِ نزلوا شمالَ الحجاز، وسموا بني عذرة، ويكني أبا عمرو[3]. وإليهم أُنتُسِبَ العذري، وذلك لكثرة ما كان بين هؤلاء القوم من رجالٍ أمعنوا في غزلهم العذري المفعم بالنقاء والطهارة، حتى أن رجلاً سُئل مِمَّنْ أنت؟ قال: من قومٍ إذا عشقوا ماتوا. ويروى أيضاً أن أحدهم سأل عروةَ بن حزام -الذي اقترن اسمه باسم عفراء "عروة وعفراء" وكان عروة من بني عذرة- سُئل: أصحيحٌ ما يُروى عنكم من أنكم أرقُّ الناس قلوباً؟ فأجابه: نعم واللهِ لقد تركت ثلاثين شاباً قد خامرهم الموتُ وما لهم داءٌ إلا الحبُّ[4].

---

(١) انظر: جمهرة أنساب العرب لابن حزم ط٢، صـ٢٩٨.

(٢) راجع: المرجع السابق صـ٢٩٨.

(٣) راجع: الشعر والشعراء ح١، ص٤٣٤.

(٤) راجع: جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٢٩٨.

نشأته:

نشأ جميل في وادى القرى، في أسرةٍ موسرةٍ رفيعةِ المقامِ، وكــان بهيَّ الطلعةِ، طويلَ القامةِ، عريضاً ما بين المنكبين، جميل الخلقة، حســن البزة[1].

أحب جميل أول حياته ابنة عمٍّ له تُدْعي أم حسين، وروى بعضــهم أن اسمها أم الجسير[2] وقال فيها شعراً.

كذلك فلقد أحِبَّ بثينة[3] التى كانت تكني أم عبد الملك ولها يقول:

---

(١) راجع: العصر الإسلامى لشوقي ضيف ص٣٦٧.

(٢) راجع: أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام ص٢٨٨ دار الثقافــة، دار المكشوف.

(٣) هى بثينة بنت حباب بن الأَحَبّ من بني عذرة الذين اشتهروا بعشق الجمال، وعفة الهوى حتى أصبحت العذريةُ صفةً لكلِّ غزل موحّد عفيف على لسانِ المحبِّ، ولو لم يكن من عذرة.. وعن سبب علاقة الحب قيل: إنه في مرحلة فتوته شبَّ بفتاة تدعى أم الحُسَيْر حتى رأى بثينة فمال إليهــا، لكــن بــدءَ العلاقة بينهما كانت موقف سباب وخصام، إذ حدث أنه أقبل بإبله حتى أتى "وادي بغيض" ثم اضطجعَ، وتركها سائمة فمرت بها بثينـــة وجــارةٌ لهـــا فهيّجت بعضِ فِصالها فسبَّها جميل فبادلته سباباً بسباب .. راجع الأغــاني ح٨، ص٩٨. =

يا أمَّ عَبْـدَ الملـكِ أصـرمِيني فَبينِّـي صُـرْمَك أوصِـليني

حيثُ يقالُ: إنه أحبَّها، وهو غلامٌ "صغيرٌ" فلما كبـرَ خطبهـا فـردَّ عنها، فقال الشعرَ فيها، وكان يأتيها سرّاً بمنزلها وادي القرى، فجمعَ لـه قومها جمعاً؛ ليأخذوه إذا أتاها فحذرته بثينة فاستخفى وقال[1]:

ولو أنَّ ألفاً دُونَ بَثْينـةَ كُلُّهـم غياريَ وكُلُّ حاربٌ مُزْمَـعٌ قَتْلـي
لحاولْتُها إمَّـا نَهـاراً مُجـاهِراً وإمَّا سُرَى لَيْلٍ ولو قُطعَتْ رِجْلـي

كذلك أحبَّ جميلُ بثينةَ بتلك النفسِ الصافيةِ المحدد بحدود التقاليـد الصارمة، وقد اكتفى بالإشارةِ والنظرةِ والكلمةِ والبسمةِ، وراحَ بتقلبُ على لظى الشوقِ، ونيران العبد يحييه القربُ، ويميته الهجرُ، لا تخـرجُ حياتـه عن هذا شأنه في ذلك شأنُ كلٍّ محب في الصحراءِ فلم يعبرْ في شـعره إلاّ عن هذا الحبِّ[2].

= هذا ويقال إنه خطب بثينةَ لما كبر؛ لكن أهلها أبوا خضـوعاً للعـرف السائد بين البدو في عدم تزويج الفتاة ممن شبب بها، فكانا يتلاقيان سراً، ونمى ذلك إلى قومها فهددوا بقتله، ولم يعبأ هو بذلك حتى "لـو أن ألفـاً دون بثينـة لحاولتها" .. راجع: الشعر والشعراء ج١، ص٤٤١-٤٤٢.

(١) راجع: الأغاني ص٨٨٣٨ دار الشعب.

(٢) انظر: من أدب الجاهليين والإسلاميين السـيد تقـى الـدين، ص١٦٦ دار نهضة مصر القاهرة.

على كلٍّ فإن نشأته البدوية قد صبغته بأصباغها حيثُ مُنِحَ صــفاء النفس النابع من صفاءِ السماءِ والصحراءِ، ويسرِ الحياةِ في ظــل تقاليــدَ وعاداتٍ وأعرافَ البدو التي يمكن للإنسانِ فيها أن يخرجَ عــن النطاقــات الاجتماعية ..

صفاته الشخصية:

يتضح لنا من خلالِ عرضنا لما سبق أنه كانَ واضــحَ الشخصــيةِ، هادئَ الطباع، كريمَ الخصالِ، صادق العاطفة، ولعل رحلة حبه مــه بثينــة تترجم كل ما سبق.

شعــره.

هو واحدٌ من شعراءِ العربِ المعروفين، وأحدُ العشاقِ المشـــهورين بذلك في عصر بنى أمية، يقال إنه تلقنَ الشعرَ عن هدبه بن الخشرم تلميذ الحطيئة، حيثُ روى له كثير عزة، فإذا كان هذا كذاك فإنه واحدٌ من شعراء التجويد الفني التى بدأت حركتها في الجاهلية على يد زهيــر بــن ســلمى المزني، حيثُ يُطْلَقُ عليها مدرسةُ الصنعةِ، كما يُطْلَقُ على شعرائها عبيــد الشعرِ.

من هنا فإن شعره يعدُّ أوثقَ شعرِ العذريين "طالما أنه يمت بأسبابٍ قويةٍ إلى هذه المدرسةِ التي كانت تعني بصقلِ الشعرِ وتجويده[1]" لذلك عنى الرواةُ والناسُ بأشعارِه، كما عنى بها مغنو المدينةِ ومكةَ، وهـى أشـعارٌ يمضى جمهورها فى التغني ببثينة معشوقته إحدى نساء قبيلته التى ألهمته الشعر.

أغـــراضه

لأنه عاشَ حياته معذباً –فى حبِّ بثينةَ– فإنه عكفَ شـعرَهُ علـى التغزلِ فيها حيثُ أمعنَ فى وصف هذا الحبِّ والإبداعِ فيه إبداعاً وصلَ إلى حدِّ التتيمِ، وغايةِ الانبهار بها.

على كلٍّ فلقد عُدَّ أستاذَ فنِّ الغزلِ العذري المحببِ إلى النفسِ، وقـد تمتعَ بصدقِ اللهجةِ، وحرارة العاطفية.

صحيح أنه قد وصلت إلينا أخبارٌ تؤكدُ أن له مهاجـاة مـع بعـض الشعراء الحجازين أمثال: الحزين الكناني؛ لكنها ضعيفةٌ عيبةٌ سقيمةٌ باهتةُ الانفعال، ولعل هذا يؤكدُ لنا أن "شعره قد يضعفُ، ويصل إلى حدِّ الانكسار، إذا خرج من الغزل، لربما لأنَّ قلبه وعاطفته وعينه لم تعدْ تحسُّ ولا تبصرُ سوى بثينةَ وهواها"[2].

(١) انظر: العصر الإسلامى لشوقى ضيف صـ٣٦٧.

(٢) انظر: من أدب الجاهليين والإسلاميين صـ١٦٦.

منزلته الشعرية:

لقد قيل: إذا كانَ عمرُ بن أبي ربيعةَ زعيمَ الغزلِ الحضري فقد عُدَّ جميلُ زعيمَ الغزلِ العذريِّ وقد قال ابن سلام[1] "فإن جميلاً -في صدق مودته وخلوصه ووفائه- يتقدمُ الشعراءَ الغزليين على الإطلاق" وقال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت جميل أشعر أهل الجاهلية والإسلام[2] وقال محمد بن سلام كانَ لكثيرٍ[3] حظٌّ وافرٌ وجميلُ مقدمٌ عليه، وعلى أصحاب النسيب.

وفـــاته:

يقال إنه قد وافته المنيةُ بمصرَ فى ولايةِ عبد العزيز بـــن مـــروان عليها سنة ٨٢ حيثُ بكته حبيبته بكاءً حاراً حتى أن الرواةَ قـــالوا: إنهـــا ظلت تبكيه إلى أن لحقت به، ويقال: إنه حين حضرته الوفاةُ أنشد:.

صدَعَ النَّعِـــيُّ ومَـــاكَنَى بِجَمِيـــلِ ... وثَوَى بمصْرَ ثَـــوَاءَ غَيْـــرَ قُفُـــولِ

ولَقَدْ أجرُ البُردَ في وادِي القُرَى ... نَشْـــوَان بَـــيْنَ مَـــزَارِعٍ ونَخِيْـــلِ

قُوْمي بُثَيْنَـــةُ وانْـــدُبِي بعَوِيْـــلِ ... وابْكِـــي خَلِيْلَـــكَ دُوْنَ كُـــلِّ خَلِيْـــلِ

---

(١) راجع: طبقات الشعراء الجاهلين والإسلاميين صـــ٧٣

(٢) راجع: الأغاني ص٨٨٣٨ دار الشعب

(٣) راجع: ديوانه صـــ٧٢.

ثانيا: القصيدة شرحاً وتعليقاً:

يقول الشاعر[1] بعد أن مَنَعَ أهل بثينةَ من موافاته ،فلامتــه نســاءُ قومه بُغْية استمالته:

أَبُثَيْنَ إِنَّكِ قَدْ مَلَكْـتِ فَأَسْـجِحِي   وَخُذِي بِحظِّكِ مِنْ كَـرِيْمٍ وَاصِـلِ[2]

فَلَرُبَّ عارِضَــةً علينـا وَصْـلُهَا   بالجِـدِّ تَخْلِطُـهُ بِقَـوْلِ الهَـازِلِ[3]

---

(1) **التخريج**:

راجع: المصدر نفسه صـ٧٠- ٧١.

(٢) **المعاني**

أبثين: يا بثينة، وقد حذفت التاء المربوطة هنا للترخيم عند النداء.

ملكتِ: استوليتِ على قلبي أسجحي: أحسنى العفو وتلطفى

واصل: حفيظ على وده غير مقاطع لمُحبّه

الشرح:

لقد استحوذتى يا بثينةُ على قلبى، وقد صار ملك، يديك، لذا فإننى أرجو أن تتلطفي وتترفقى بي فأنا محافظٌ على هذا الحب بار ووفي به.

(٣) **المعانى**:

عارضة علينا وصلها= راغبة فى حبنا لها

الشـــرح

يقول: كم من جميلةٍ حسناء تحاولُ غزو قلبى؛ لتأســره تــارةً جــادةً، وأخرى هازلة وفى كلً هى راغبة في حبي.

فَأَجَبْتُهَا في القولِ بَعْدَ تَسَتُّرٍ ... حُبِّي بُثَيْنَةَ عَنْ وِصَالِكِ شَاغِلي[1]

لَوْ أَنَّ فِي قَلْبِي كَقَدْرِ قُلامَةٍ ... فَضْلاً وَصَلْتُكِ أَوْ أَتَتْكِ رَسَائِلِي[2]

وَيَقُلْنَ إِنَّكَ قَدْ رَضِيْتَ بِباطِلٍ ... مِنْهَا فَهَلْ لَكَ في اجْتِنَابِ البَاطِلِ[3]

---

(١) المعانى

وصلك: ودك

الشرح

يقول أجبتها بعدما ستر قلبه كثيراً : إن حبه لبثينة يشغلة عن أى حب آخر.

(٢) المعاني:

قلامة: ما سقط من الشئ المقلوم، والمراد هنا قلامة الظفر، وهو ما يسقط من طرفه فضلاً: فاضلاً عن حبي لها ، وصلتك: وددتك.

الشرح:

يقــول:

إن بثينة قد ملكت قلبه، ولم تبق له مكاناً تستطيعُ غانية أن تشغلهُ، ولو بقى هذا الجزء لأمكن أن يصلَ من تعرضُ عليه حبَّها.

(٣) المعاني:

الباطل: لعل المقصود منه -هنا- وهم الحب وخداعه.

الشرح:

تحاول العاذلات العبث بمشاعره وتشكيكه فى حبه؛ أملاً فى امتلاك قلبه، لكنه يؤكدُ بأن كلَّ ما يجئ من بثينة مقبولٌ يرضينى، مهما كانت نتائجه المكروه.

وَلَبَاطِلٍ مِمَّنْ أُحِبُّ حَدِيثَهُ	أَشْهَى إِلَيَّ مِنْ البَغِيْضِ البَاذِلَ[1]
لِيُزِلْنِ عَنْكِ هَوَاي ثُمَّ يَصِلْنَنِي	وإذا هَوِيْتُ فمـا هَـوَايَ بِزَائِلِ[2]
صَادَتْ فؤادِي يابثينُ حبَا لُكُمُ	يَوْمَ الحَجُونِ وأخْطَأَتكِ حَبَائلي[3]

---

(١) **المعانى**:

البغض: الثقيل المكروه. الباذل: بازل الود

الشـرح:

يعلل الشاعر سبب قوله وثبوته على موقفه بأنه يفضلُ وهمَ المحبـوبِ على وده الثقيل المكروه.

(٢) **المعانى**:

لينزلن عن هواك: ليبعدنني عن حبِّك. زائل: متغير وزائل.

الشرح:

لقد حاولن صرفي عن حبها المرةَ تلو الأخرى؛ لكن هذا لم يـتمْ لهـن؛ لأننى محافظٌ وبارٌ وفي بهذا الحب.

(٣) **المعانى**:

صادت فؤادى: تعبير مجازى يؤكد أنها أسرته بحبها

الحجون: موضع ناحية بمكة، وقيل الجبل المشرف مما يلى شـعب الجـزارين بمكة راجع: اللسان مادة "حجن" حبائلى: عهودي ومواثيقى.

الشرح:

يصف الشاعرُ رحلة الحب، وكيف بدأت حيثُ يؤكد أنـه رأى ذات مـرةٍ محبوبته عند الجحون فهام بهجاً وجداً وحباً، وهذا ولم يستطع الفكاك عن هـذا الحب الذى نشأت على ربوعه مواعيدُ وأمانى عذابُ.

مَنَّيْتَنِـــي فَلَوَيْـــتِ مـــا مَنَّيتْنِـــي   وجعلْتِ عَاجِلَ ما وَعَدْتِ كَآجِـــلِ[١]

وَتَثَاقَلَت لمّـــا رأتْ كَلَفِـــى بهـــا   أَحْبِبْ إِلىَّ بِـــذَاكَ مِـــنْ مُتَثَاقِـــلِ[٢]

وَأطعْتِ فيّ عـــواذلاً فهجرْتنـــي   وعَصَيْتُ فيكِ وقد جَهَدْنَ عَوَاذِلِي[٣]

---

(١) **المعانى**:

منتينى: وعدتنى، لويت: جحدت

الشرح:

يقول الشاعر: إنه على الرغم من المواعيد والأماني بيننا إلا أنها جحدت كلَّ هذا ولم يقف لا بموعدٍ عاجلٍ أو آجل...

(٢) **المعانى**:

تثاقلت: تباطأت الكلف: الحب الشديد والولع بالشئ....

الشـرح:

يقول لقد زاد الأمر ضغثاً على إباله حينما علمت بحبـه الشـديد لهـا؛ فراحت تتباطأ حتى كاد هذا التباطؤ أن يحرق من لوعج الغرام ولهيب الشوق.

(٣) **المعانى**:

العواذل: جمع عاذلة وهي اللائمة

هجرته: أعرضت عنى، وقطعت ودي

جهدن: بذلن جهدهن فى إغرائه بقطيعتها.

الشرح:

يذكر جميل الفارق بينه وبين حبيبته بثينة فى التعامل مع اللائمات حيث إنه لم يتأثر بهن؛ لكن بثينة تركته لهذه الأحاديث، وتأخذ موقفاً سلبياً ضده....!

حَاوَلْتَنِى لأَبِتّ حَبْلَ وِصَالِكُمُ ... منِّي ولَسْتُ وإِنْ جَهَدْنَ بِفَاعِلِ[1]

فَرَدَدتُّهُنَّ وَقَدْ سَعَيْنَ بِهَجْرِكُمْ ... لمَّا سَعَيْنَ لَهُ بِأَفْوُق نَاصِلِ[2]

يَعْضَضْنَ مِنْ غَيْظٍ عليَّ أَنَامِلاً ... وَوَدِّتُ لَوْ يَغْضَضْنَ صُمَّ جَنَادِلِ[3]

وِيِقُلْنَ إِنَّكِ يَابُثَين نَحِيْلَةٌ ... نَفْسِي فِداؤُك من ضَنينٍ بَاخِلِ[4]

---

(١) المعانى:

جاولتنى: بذلن معي محاولات كثيرة   أبت: أقطع

الشرح:

يقول الشاعرُ: إنه على الرغم من تكرار المحاولات، وبذل الجهد في هذا الصدد فإنها لم تفلح معه حيثُ رد رداً قاسياً على العاذلات.

(٢) المعانى:

أفوق ناصل: سهم ناصل، أى مركب فيه النصل وهو حديدته.

الشرح:

يشبه رده القاسيَ بالطعنة القويةِ الصادرةِ من سهمٍ قوي على صدورِ اللائمات اللاتيِ حاولن إمالة الشاعر إليهن كثيراً.

(٣) المعانَى:

الصمم: جمع أصم وصماء وهو الصلب المتين.

الجنادل: جمع جندل، وهي الصخور العظيمة.

الشرح:

يصفُ الشاعرُ اللائماتِ اللاتى أمتلأت صدورهن غيظاً بهن بسببِ إهمال جميل لهن، بل يتمنى لهن المزيد من الغيظ.

(٤) المعانى:

الضنين الباخل: الشديد البخل.   =

ثالثاً: القصيدة عرضاً تحليلاً ونقداً

لقد اهتم الشعراء اهتماماً بالغاً بالغزل، ذلك الأدبُ الوجدانى يعبرُ عن الأحاسيسِ فى مجالاتِ الحبِّ، فأحلوه مرتبةً عاليةً، وفتحوا لـه بـابَ قلوبهم على مصراعيه سواءً أكان صادراً عن القلب تُفرد له القصائدُ، أم كان تقليداً مستحباً تفتتح به المطولات.. وهذا وقد صب الشعراء فيه شعرهم وعواطفهم، وسجلوا خواطرهم وغنوا مآثرهم.

والناظرُ المتأملُ فى الشعرِ الجاهليِّ قد يرى -عن كثب- أن ثمةَ سمةً عامةً تبرزُ لنا من بين ثنايا الغزل ألا وهى الوصف الماديِّ المتصلُ بمحاسنِ المرأةِ الظاهرِ المتمثلِ فى الجمال الجسدى من قوام وخصر وردف وثدى، أما وصف المحاسن الخلقيةِ والعاطفية، وحكايات الحبِّ الفاشلةِ بينَ الرجل والمرأة فقد جاءت مرحلةً متأخرةً متمثلةً فى المرقش الأكبر، وأسماء، والمرقش الأصغر وفاطمة بنت المنذر، وعبد الله بن عجلان بن النهدى وهند، وخزيمة بن نهد القضاعي وفاطمة بنت يذكر،.........

مهما يكنْ من أمرٍ فإن الشاعرَ الجاهلي قد وقف على الصورةِ الخارجيةِ للمرأةِ التى تحرك عواطفَ الجنس، ومكامنَ الحب، -والجمال، وقلما تجاوزها إلى المعانى الروحية؛ ليحدثنا عن العاطفةِ وحكايات الحب!

= الشرح:

يعاودُ الشاعرُ حديثه إلى الممتنعة التي تبخلُ عليه بحبها؛ لكنه يتعلقُ بها ويفديها بروحه ما حيي.

إننا إذا عدنا إلى الشعر الجاهلي فإننا سنجدُ إفـراطَ الشـاعرِ فـي وصفه للمرأةِ، وتغزله بها غزلاً يعج بالشهوةِ العارمةِ، ويهتم أكثرَ ما يهتم بالمحاسن الجسدية، دون الارتقاء بالمستوى الروحـي... حتـى رأينـاه يصورُ المرأة قاعدةً وقائمةً، وصورها مقبلةً ومدبرةً مع الميل إلى الناحيةِ الجسديةِ، ولعل هذا يعزينا إلى مبائس القول: بإن المرأة لم تكنْ فى نظـره إلا وسيلةً من وسائل اللهو، فلم يهتمْ بها اللهم إلا لتأمين حاجاته الجسديةِ غير مفرقٍ -فى ذلك- بين أن تكون خليلة أو زوجةً.

ويجئ الإسلام بمعجزته الكبرى القرآن الكريمِ لينقـلَ النـاسَ مـن ظلماتِ الجهلِ إلى نورِ اليقينِ والعلمِ والمعرفةِ فنجد الرسول (ص) يحـرم الغزلَ الصريح، ويبقى العفيف الذى يعددُ المحاسنَ المعنويةَ للمرأة، ومـع العصر الأموي يظهر لونٌ وقد نشأ فى قبيلة بنى غذرة فنسبَ إليها فـأطلقُ عليه الغزل العذري حيثُ صدر عن البادية وهو غزل يظهـر فيـه الحـبُّ العنيفُ بحيث يصور ما يلاقيه المحب من عذابات وعقباتٍ فى سبيلِ الظفرِ بهوى الحبيبةِ، وقد اجتمع فيه العطاءُ والحرمان معاً "إنه نتـاجُ عمليـاتٍ عاطفيةٍ ملتهبة تشتعل حيناً، وتهدأ حيناً -لكنها- فى محملها تفـرز آلامـاً ومتاعبَ وأوهاماً لا حصر لها[1].

---

(١) راجع: فى الشعر الإسلامى والأموي لبعد القاررالقط حيث أفرد باباً مسـتقلاً لهذا الفن، وقراءة فى الأدب الإسلامى والأموي لعبد العزيز الموافي حيث أنشأ فضلاً كاملاً عن نشأة الغزل بالحجاز.

والحقُّ أن مثلَ هذا النوعِ من الغزلِ حمل -من أطوائه- شيئاً جديداً على الواقع الفنى لم تعهده الشعريةُ منتجةُ النص -من قبلُ، حيث غزر إنتاجه، وكثر مبدعوه فى هذا العصر كثرةً تدعو إلى التأملِ وضرورةِ البحث عن أسبابِ نشأته.

فتطورُ النظريةِ الغزليةِ، وانتقالُ الغزل من وهدةِ الحسيةِ السحيقة ذات الشعيبات الضاربةِ، أو الموغلة فى الطبعِ الإنسانى لا يمكن أن تتشكل وتتعدل وتحلّ محلّ سابقتها إلا بتضافر جهود متكاثفة وهذا ما عزا الدكتور شكرى فيصل يجتهد فى الأمر حتى قدم لنا تفسيراً دينياً مؤكداً على أن للتقوى واقتران الحب بالإسلام والعفة دوراً كبيراً ويشيرُ إلى أن هذا الفن تعبير عن وضعه طائفة من المسلمين كانت تتحرج، وتذهب مذهب التقوى، وتؤثر السلامة والعافية على المقامرة، والمخاطرة فكانت مثلاً واضحاً للتربية الإسلامية فى سموها وتعاليمها[1].

على هذا النحو أو التصور نستطيعُ القولَ بأن الغزلَ كان استجابة وضرورةً ملحة اقتضتها طبيعة الحياة الأخلاقية الجديدة بعد استقرارها، فإذا كان الغزل تعبيراً عن عاطفة فإن الإسلام كان أكثر تقبلاً لها حيث استقرت الدعوة فى نفوسهم؛ فعادوا ينظرون فى حياتهم العاطفية ويصغون، إلى أنينها، أو أهازيجها، ومن ثم كان هذا الفنُّ الذى خلفته

---

(١) انظر: تطور الغزل بين الجاهلية والإسلامية ط٢ مطبعة جامعة دمشق سنة ١٩٦٤ صـ ٢٤٨.

المحبة التى تذرعت بالإيمان واتشت بالعفة.. ومن العفة التى واكبها الدين، وكان لابد للأعفة التقاة الذين أخفقوا فى حبهم من أن يعبـــروا عـــن هـــذا الإخفاقِ بهذا الغزلِ العذرى الذى استقطبَ عواطفهم المتعففة والملتهبة فى وقت معاً، والتى وجدت أن هذا التعويضَ الفنيَّ هو خير ما تطفئ به لهبها وتتسامي به من غرائزها[1].

على أن شكري فيصل لم يركنْ إلى تفسير طه حسين السياسيِّ الذي أرجعَ نشأةَ هذا الفنِّ إلى أسبابٍ سياسيةٍ كانت فى الحجاز بعد انتقال بـــلاطِ الحكم إلى الشام، واستقرار المعارضة فى العراق، فضلاً عن نشأة الغنـــاء وازدهاره.

لكن صلاح عبد الصبور كان له رأيٌ آخر حـــينَ راحَ يعظـــمُ مـــن التطور البيئى، مؤكداً أن ارتباط الغزلِ بالبيئةِ يـــراه اســـتجابةً للمجتمـــع الزراعيِّ الذى عرفته بعضُ القبائلِ العربية؛ لأن من شأن الزراعةِ أن ترفعَ من مكانةِ المرأة الاجتماعيةِ لما تؤديه من خدماتٍ واضحةٍ فى حقل الحياة اليومية وهذا ما رفعها من مجال المشاركة إلى مجال المتعة.....[2]

هذا ويقف الدكتور عبد القادر القط أمام التفسيرات السابقة موقـــف الشك والحذر، وإن كان يغلِّب عليه النزعةَ الحضاريةَ....

---

(١) انظر: تطور الغزل صـــ٢٥٢، ٢٥٣.

(٢) انظر: قراءة جديد لشعرنا القديم "صـــ١٠٤ دار النجاح بيروت.

والواضح أنه من خلال عرضنا لما سبق نرى العواملَ أو الجهـودَ السابقةَ كلَّها متضافرةً، مضافاً إليها التطور التاريخى تُشيرُ إلى إن "جـذور العذرية ممتدة فى أدبنا العربى القديم منذ الجاهلية[1]، ولعل المرقش الأكبر والأصغر وعبد الله بن عجلان الهندى وخزيمة بن فهد القضاعي يمثلـون هذه المرحلة لكن الثمرة الحقيقية قد استوت فى هذا العصر بموجب عـدة دوافعَ وقد أشرنا إلى بعضٍ منها:

مهما يكن من أمرٍ بعـدُ فإن الشاعرَ يستهلُ القصيدة برجاء ملحٍ يتوسل به إلى بثينةَ بأن ترفق بحبه؛ لأنه محافظٌ على حبِّها، ووفي، وبار بـه... وآية ذلك أنه قابضٌ على هذا الحب على الرغمِ من المحـاولاتِ الخادعـةِ الصادرةِ من اللائمات؛ لكنه لم يستجب لإغراءاتهن أو ينخرط فى تيـارهن لأن قلبه لم يعد ملكاً لغير بثينة.

بعد ذلك يعرض الشاعرُ حديثاً لشريط الذكريات المتدفقِ بالأحـداثِ والصورِ ذات الأصباغ الهادئةِ عندما كان يقابل بثينة عند الحجـون بمكـةَ وقد زادته هذه اللقاءات تعلقاً بها، وإن كان يعتبُ عليها؛ لأنها لم تفِ بمـا وعدت به...

وأخيراً يقدم محاولاتِ العاذلاتِ الدؤوبةَ فى اصطياده وذلـك لبـث الفرقة بينه وبين بثينة، ولربما لصدق حبهن له.....

---

(١) راجع: فى الشعر الإسلامى والأموي صـ٩٤.

فالقصيدة -على هذا النحو- تقدم صورةً عذريــة صــادقة تتسـمُ بالنقاء والصفاء والطهر المادى بينَ جميلٍ الذى علق بثينةَ حتى أن هـذا الحبَّ اللائط بقلبه يمثلُ له عذاباتٍ لا تنتهى طالمــا أنــه يواجــه صــدوداً وردوداً تحرق فؤاده، وبالرغم من ذلك فهو ليس بالمستسلمِ أو المســتكينِ أو غير مبالٍ لما يدور حوله.

فالناظر للقصيدة يرى أنها تتضمنُ عدةَ رؤى، وقــد اســتطاعت أن تمنحها إلى الجماليات وإبداعاتها ذات الإيقاعات المتناغمة من هذه الرؤيــا نذكرُ:

أولاً: الرؤية الفكرية:

لعل الناظر المتأمل فى القصيدة السابقة يستطيع رصد عــدة قــيم فكرية استرفدها الشاعر من مفهومِ العذريةِ، وقد طلت علينا برأسها مــن نوافذ النص وأهمها:

أولاً: الثبات على الموقف الشعوري بكل أطيافه أو أبعاده دونَ تقهقرٍ إلــى الوراء، مهما كانت الدوافعُ أو المغريات، وهذا ما ظهر بوضوح من خلال كثرة إغراءات اللائمات، إذ كان بمقدوره مبــادلتهن الهــوى لكنه؛ أبى ولعله بذلك قدم خطاباً معرفياً يؤكدُ فيه أن العذرية تمــنحُ صاحبها قيمةً مشبعةً قد تصل إلى حدِّ الامتاع والإقناع الفعلي؛ وهذه غاية الإنسانية الفضلي.....

ثانيـاً: يظهرُ الشاعرُ قيمَ العذرية وذلــك بتصــوير العــذاباتِ والجراحـــاتِ والعقباتِ فى سبيلِ الظفرِ بالمحبوبِ، وهو ما بين عطاءٍ منه ينسكبُ على المحبوبةِ، فيعمرها، وحرمان يصدر من المحبوبةِ فــلا يجــد سوى متاعبَ وأوهامٍ لا حصرَ لها.

ثالثاً: اشتملت القصيدة على قيم جغرافيةٍ متمثلةٍ فى ذكره "حجــون" بمكـــة المكرمة، وهذه القيمة تؤصل شعره وتجذره فى التربة الواقعية مما يمنحها الديمومة والاستمرار متفاعلةً فى المجال الحياتى.

رابعاً: استغراقه فى حبِّ بثينة العفيفِ جعله كان أكثر وجــداً وشــفافيةً؛ إذ جعلَ منه شاعرَ وجدٍ، نراه وقد غشى عالمه الشوقُ للحبيبة، وأتى على كلِّ معالمِ الحياةِ، وحوَّل كلَّ نعيمٍ تنعمَ به إلى بــؤسٍ وشــقاءٍ طالما أنه لم يظفرْ بلقائها، حتى يرويَ نفسه المتعطشة للوصال.

خامساً: يتضح من خلال قراءة الأبياتِ السابقةِ انه عالم بــالنفس الأنثـــوي وملم بمحيطها وأفضيتها..... يشهدُ على ذلك وصفه للعاذلات اللاتى امتلأت صدورهن غيظاً بسببِ إهماله لهن.. هذا ولقد اعتبــر هــذا الرد قاسياً فراحَ يتوسلُ بالصورة؛ للتقريب بالتشبيه فقال.

فَرَدَدْتُهُنَّ وَقَدْ سَــعَيْنَ بِهَجْــرِكُمْ   لمَّـا سَــعَيْنَ لَــهُ بِــأَفْوَقَ نَاصِــلِ

ثانياً: الرؤية الاجتماعية:

قد يبدُ للناظرِ المتأملِ هنا أن جميلَ الذى نشأ فى الباديةِ قد اصطبغ بصبغتها، وبالتالى قدمَ لنا بموجبِ ما انعكسَ على نفسه من صفاء نابعٍ من صفاءِ السماءِ والصحراءِ، ويسر الحياة فى ظل تقاليد البدو التى تفـــرض، ولا يستطيع أحدٌ أن يخالف شريعتها المقدسة ونحن نقرُ بذلك بـــدليل؛ لـــذا فإنه اكتفى منها بالنظرةِ والكلمةِ والبسمةِ حتى راحَ يتقلـــبُ علـــى لظـــى الشوقِ الذى يكبله الحياءُ حيث فضح لواعجه، وكذلك نيران البعـــدِ الـــذى يحييه القرب، ويميته الهجر.... كل ما سبق لمسناه بوضوح فى القصيدة.

إننا لما نعيد النظر كرةً أخرى فى القصيدة قد ترصدُ عدة نقاط:

أولاً: أن المجتمع البدوى سواءً غازلته العذريةُ فطبعته بطباعهـــا، أم لـــم تغازلْه فإن طبيعةَ المرأةِ فيه تتسمُ بالحياءِ والعفةِ والطهـــرِ، وهـــذه قيمة عرفية مثلى.

ثانياً: أشارت القصيدة إلى خلقٍ نسائيٍ يتسم بالحرارةِ والحدةِ هـــو الغيـــرة التى أصابت النساء فى مضمار الحب؛ ولأن غيـــرةَ المـــرأةِ شـــديدةً لاسيما فى ميدان التنافس على قلبِ الرجل فإن اللائمات كثيـــراً مـــا يهزمن، ولعل هذا ما وضح فى قوله:

حَاوَلْنَنى لأَبــتَّ حَبْــلَ وِصَـــالِكُمُ   منِّي ولَسْــتُ وإِنْ جَهَـــدْنَ بِفَاعِـــلِ

فَرَدَدَتُّهُنَّ وَقَدْ سَـــعَيْنَ بِهَجْـــرِكُمْ   لمَّـــا سَـــعَيْنَ لَـــهُ بِـــأَفْوَقِ نَاصِـــلِ

ثالثاً: القناعة والرضا بأقَّل القليل أمرٌ قد يبدو أنه قد تعلمه من طبيعةِ حياةِ البدوِ، وخصوصاً لما يكون فى الأعرافِ والتقاليدِ بعيداً عن الأوهـــامِ وهذا ماثلٌ فى قوله.

وَلَبَاطِـــلِ ممَّـــنْ أُحِـــبُّ حَدِيْثَـــهُ　　　أَشْهَى إِلَيَّ مِـــنْ البَغِـــيْضِ البَـــاذِلَ

لِيُزِلْنِ عَنْكِ هَوَايَ ثُـــمَّ يَصِـــلْنَنِي　　　وإذا هَوِيْـــتُ فمـــا هَـــوَايَ بِزَائِـــلِ

رابعاً: أن جميل يوازنُ بينَ أثرِ العاذلات عند بثينة، وأثرهن عنده. فـــأثرهن إيجابى عند بثينة، سلبىٌّ عند جميلِ...... مـــن هنـــا كـــان للطبـــاق موضعه وقيمته فى مثل هذا الموقف: (أطعت # عصـــيت- حـــاولنى لأبث حبل وصالكم# لست بفاعل).

على كلٍ فإن القصيدةَ استطاعت أن تلقى مزيداً من الضـــوءِ علـــى القيمِ الاجتماعيةِ التى اكتنزها المجتمع البدويُّ بين جنباته، وفى هذا تأكيـــدٌ على أن الشاعر نقل ما يدور فى مجتمعه نقلاً أمينـــاً لا مريـــةَ فيـــه، دون تشويهٍ للتقاليد، أو مسخٍ للواقعِ.

ثالثاً: الرؤية الفنية:

بالنظر إلى المسالك التعبيرية، وأنماطها التصويرية فـــى القصـــيدة فإنها جاءت على **ثلاثة مشـاهـد**:

الأول بين حبين:

وفيه بدأ مشهده بالمنادى المرخم "يا بثين" وهو نوعٌ من المداعبـــةِ أو الملاحظةِ ذاتِ الإشعاعاتِ النفسيةِ تلك تصدرُ عن نفسٍ مترعةٍ بالحـــبِ

الطاهر؛ لذا فهو ينمُّ على مطلقِ الراحةِ والنشوةِ الوجدانيةِ التـــى تعتريــهِ بمجرد أن يلمحَ طيفَ الحبيبة، ثم نراه يذهبُ بعد ذلك إلى إثباتِ حبه لهـــا بمؤكدين، لعباً دوراً كبيراً فى تسييرِ النظامِ الصياغى وهما "إن، قد" حيــث مارس الأول سطوته فى معموله "كاف الخطاب العائد على بثينة ولعل هــذا يتناسب مع طبيعته، بينما جاء الآخر "قد" غير العامل فـــى "ملكــت" الــذى حذف مفعوله للشمول والعموم حيث جاءت محققةً للشاعرِ مطلقَ الســيادةِ والسيطرةِ على قلبه.

فلعلها حالةُ الاستسلام الفاعلةُ فى المحبوبة هنا..... حيث إن بثينة تملكت فؤاده وأحكمت السيطرةَ والسطوة عليه إذ ظهر هذا كلَّه من خـــلال السياقاتِ السابقةِ.

بعد ذلك يجئ الشاعر برحائين متمثلين فى الفعلين الطلبين الآمرين (اسجحى- خذى) حيث يرجو الصفح والسماحَ والتلطف به، ثم كنى عــن نفسه بقوله "كريم واصل" دونَ المباشرةِ بإظهار نفسه وفى هذا دليلٌ علـــى الحياءِ والتلطفِ والترفقِ مع بثينةَ، والحرص على حبها، والمحافظة علـــى شعورها.....

وجميل -من خلال ما سبق- يسعى راجياً وصالهاً فيدللها ويداعبها ويملكها قلبه وهى تتمنع عليه فيزداد حباً لها وتعلقاً لها.. ومثل هذا النوع

من الحبِّ المعذبِ يطلقُ عليه السادية تلك العادة التى كانت عليها بثينـــةُ إذ أوقعت بجميل أقسى العذابِ فحرمتهُ من الوصال مقابل حبه لها.

هذا ويطابق جميل بين حبه لبثينةَ، ولون آخر من محبوباتٍ تطلبن وصاله بأسلوبٍ لوذعيٍّ، يجمعُ بينَ الجدِّ والهزلِ حيثُلا يلتفــت لـــه؛ لأنـــه ولهان ببثينة التى أضنته كثيراً وقد ستر حبها حيناً، ومع إلحاحِ المحبوبات قد كان ضرورياً أن يصرح مستصرخاً بحبه لبثينة.

ويصادقُ الشاعرُ على صحة ما سبق بذكر حرف "لو" وهو حـــرف امتناعِ وقوعِ جوابِ الشرطِ لامتناعِ وقوعِ فعله؛ ليدلَّ على استحالةِ الوصلِ لغير بثينةَ، ثم حذف المسند إليه "لو كان فى صدرى كقدر قلامـــة" أى لـــو كان فى صدرى موضع، وقد حذفت هنا "موضع" من العبارة وبالتالى فإنها غير موجودةٍ لا فى اللفظ ولا فى الصدرِ. والتشبيه -عوداً- يـــوحي بـــأن ليس هناك موضع أبقتهُ بثينةُ لفتاة أخرى. حيث قال:

لَوْ أنَّ فِي قَلْبِــي كَقَــدْرِ قُلامَــةٍ فَضْلاً وَصَــلْتُكِ أوْ أَتَتْــكِ رَسَــائِلي

وليس من شكّس فى أن هذا يغيظُ عارضةَ الحـــب، وهـــى ليســت عارضةً واحدةً، بل هن عارضات؛ لأن "رب" فى قوله: "فلـــرب عارضـــة.." تفيد الكثرة أى أن كثيراتٍ يعرضن حبهن، ويأبى جميلٌ إلا حب بثينة وحدها فيمتلك الغيظُ قلوبَ العارضاتِ، فيتهمنه بان يعيش على الـــوهمِ والخـــداعِ قائلات:

وَيَقُلنَ إنَّكَ قَــدْ رَضِــيْتَ بِباطــلٍ   منْها فَهَلْ لَكَ في اجْتِنَــابِ البَاطِــلِ

ويحرضنه على ترك بثينة بهذه العبارة هل لك فى اجتناب الباطــل فالغرض من الاستفهام التحريض، والحض على اجتنــاب بثينــة وحبهــا وتصويره بأنه باطل، ولكنه يصفعهن صفعةً قويةً حين يرد عليهن فى قوة واقتدار باطل بثينة أشهى من الحب المبذول الثقيل.

ننتقل إلى **المشهد الثاني يوم الحجون** الذى يعرض فيه جميل للممتنعــة المتأنية وبالرغم من تمنعها وتأبيها يزداد تعلقاً بها.. هذا ولقد اســتعانَ أو توسل بالصورة هنا وذلك لتقريب المعنى من خلال استعارتين فى:

صَادَتْ فؤادِي يابثينُ حبَــا لُكُــمُ   يَوْمَ الحَجُــونِ وأخْطَأتَــكِ حَبَــائلي

الأولى (صادت فؤادي) حيث شبه الفؤاد بالعصــفورِ، فحــذف ذاك المشبه به، وجاء بصفةٍ من صفاته وهي الصيد، وفيها توضــيحٌ للفكــرة برسم صورةٍ لها.

الأخرى: يا "بثين حبالكم" حيث صرحَ بالمشبه به الشباكِ، وحــذف المشبهَ، وهو شباك الحب هنا، وفى ذلك إيحاء بخفقان قلبهِ وتتابعِ ضرباتهِ حين رأى حبيبته.

أما على جانب المحسنات اللفظية فإننا نلمحُ الجناس فــى (حبــال حبائل)، وكذلك (عاجل- آجل) فضلاً عن الطباق الذى يزيد المعنى جمــالاً ووضوحاً.

كما لعب تكرارُ الحروفِ الجيم والحاء فــى (حبــالكم- الحجــون- حبائل- جعلت – عاجل- آجل- أحب) دوراً بالغَ الأهميةِ فى إيجاد موسيقى ذات إيقاعاتٍ تتناسبُ وجلالَ الذكرياتِ حيثُ الوصالِ.. وكــل هــذا يعطــى جرساً موسيقياً يشدّ انتباهَ السامعِ، ويؤثر على نفسه كذلك فــإن أســلوبَ التعجبِ فى "أحب".. جاء لندركَ أن الشاعرَ كان يفضل الفتــاة الممتنعــة؛ لأنها أهلٌ للعفةِ والشرفِ والطهارةِ...

ثم نذهب إلى **المشهد الثالث** الذى جاء حديثاً عن غيظ العواذل حيث يعقد فيها موازنةً بين أثرِ العاذلات عند بثينة، وأثرهن عنده فأثرهن إيجابى عند بثينة سلبى عند جميل، ومن هنا كان للطباق موضعه فى مثــل هــذا الموقف: (أطعت – عصيت- حاولننى لأبت حبل وصالكم..لست بفاعل). ثم إن تكرار "جهدن" مرتين فى البيتين الأول والثانى مع الفعل حاولتنى، يقدم دوراً بالغَ الأثرِ فى الصياغةِ على المستوى الدلالي حيثُ يبرز حجمَ المعاناةِ فى سبيلِ الفرقةِ بين المحبين، كذلك فلقد أكدَ على ثقته فى موقفــه بعــدم اللجوءِ للقطيعةِ من خلالِ مؤكدِ أسلوبى وهو الباء الزائدة الواقعة على خبر ليس فى (بفاعل)، ثم يراهن على فشلِ المحاولاتِ من خلالِ جملةِ خبريــة لفظاً إنشائية معنى، هذا وتلعب الصورة دوراً بارزاً فى تقريب المعنى مــن خلال عرضه لثلاث وهي كالتالي:

الأولى: ماثلة فى التشبيه المقلوب فى "حبل وصالكم" حيث شــبه الوصـــال الذي يربطُ بين المحبين برباطِ الحبِّ والودِّ والوئامِ بالحبلِ الــذى يربطُ بين طرفين، وسر جماله تجسيم المعنوي، وإبرازه؛ ليــوحي بأثر الوصل المبنى على الحب المتين بين الحبيبين.

الثانية: نجدها فى التشبيه فى قوله:

فَرَدَدَتُّهُنَّ وَقَدْ سَــعَيْنَ بِهَجْــرِكُمْ   لمَّــا سَــعَيْنَ لَــهُ بِــأَفْوَقِ نَاصِــلِ

حيثُ شبهُ ردَّه العنيفَ وأثره الموجعَ فى نفوسَ العــاذلات بطعنــة السهمِ المركب فى حديدته وهنا نراه يشبه المعنويّ بــالحسِّ ســعياً نحــو تجسيده، وإبرازه فى الصورةِ التى تتراءى للمحبين.

والواضح أن استخدم التشبيهِ مستدعياً المشبه به من خلال البيئــةِ حيثُ إن الحبلَ والسهمَ ماثلان فى البيئةِ البدويةِ فهــو أبلــغ دلــيلاً علــى الواقعية الفنية التى تمنح شعره سمةَ الصدقِ والأصالةِ..... هذا من جانب.

على الجانب الآخر فإنه خبيرٌ بــالنفسِ البشــريةِ، ملــمٌ بنزعاتهــا وأهوائها، وما يعتريها من أمورٍ وهذه طبيعةٌ غلبت على البدوي الذى مثل الطهارة والعفة أصدق تمثيل.

الثالثة: الكناية فى الماثلة فى:

فَرَدَدَتُّهُنَّ وَقَدْ سَــعَيْنَ بِهَجْــرِكُمْ   لمَّــا سَــعَيْنَ لَــهُ بِــأَفْوَقِ نَاصِــلِ

قوله" يعضضن أناملاً" حيثُ تكنى بالعض وهي كنايـــةٌ عـــن صـــفة الحسرةِ والندمِ وخيبةِ الأملِ التى لازمت الفتيات العاذلات إثر عدم استجابة جميل لإغراءاتهن.

هذا ولقد جاءَ الشاعر بالكناية حيث أخفى المعنى المباشر وهو الندم والحسرة وخيبة الأمل، وجاء بالمعنى التـــالى مباشـــرة؛ ســـبيلاً للإخفـــاء والتلطفِ فى التعبير.

والواضح من خلال تحليلنا لهذه الصورة أن الشاعر متأثر بالآيـــة الكريمة "وإذا خلو عضو عليكم الأنامل من الغيظ" حيث يظهـــر الاقتبـــاس بوضوح.

وبعد: فالنص نموذجً للغزلِ العفيفِ الذي يصورُ فتًى هام حباً ووجداً بابنة عمه بثينة حيثُ ترجم هذا الحبَّ الطاهرَ فى لفـــظٍ عـــذبٍ، وأســـلوب مؤنق، ومعنى شريفٍ، وتصويرٍ بديع.

الفصلُ الثانى

النّصُ النثريُّ

الإسلاميُّ والأمويُّ



المبحث الأول

من رسالة عمرَ بن الخطاب

لأبي موسى الأشعري

(دراسة تحليلية)



أولاً: سيرةُ عمرَ وثقافتُه:

اسمه: هو عمر بن الخطاب بن نُفَيل بن عبد العُزىّ بن قُرط بن رياح بن عبد الله بن رزاح ابن عُديّ بن كعب بن لُؤيّ بن غالب بن فِهر بن النَّضر بن كنانة..[1]. وأمه ختمة بنت هشام بن المخزومي[2] كانَ يمتازُ بالشجاعةِ والحزمِ وكان يُضربُ بعدله المثلُ، فكان شديداً، لا ضعيفاً ولا واهناً، وكان جهوري الصوت[3].

كنيتهُ ولقبهُ: يكنى عمر بأبي حفصٍ، وكان يلقب بالفاروق؛ لأنه أعلنَ الإسلامَ في مكةَ فى الوقت الذي كان أوائلُ المسلمين يخفونه خوفاً من بطش الكفارِ؛ لذلك فهو كان يفرقُ بين الحقِّ والباطل، وكان المسلمون تسعةً وثلاثين رجلاً وامرأة، فكملهم عمرُ أربعين.

لقد شهد الجاهليةَ والإسلامَ، وكانَ منوطاً فى جاهليته بالسفارة لقريشٍ إذا كان سفيراً أو مفاوضاً ومتحدثاً رسمياً مبعوثاً من قِبَلِ قبيلته لما تقعُ حربٌ بينهم، وبينَ غيرهم، فإن نافرهم منافرٌ، أو فاخرهم مفاخرٌ رضوا به مفاخراً ومنافراً[4].

أما عن إسلامه فلقد كان عمرُ أحدَ العمرين اللذين دعا الرسول (ﷺ) ربّه أن يُعزَّ الإسلام بأحدهما، وكان إسلامُه قبيل الهجرةِ بخمس سنين.

---

(١) انظر: جمهرة أنساب العرب لابن حزم طه ص١٥٠

(٢) راجع: تهذيب السيرة لابن هشام ص١١٠.

(٣) انظر: الأعلام للزركلي ج٤، ص٢٠٤.

(٤) انظر: المصدر نفسه ص٢٠٤

هذا ولقد عهد أبو بكر الصديق إلى عمرَ بالخلافة من بعده، وقد بويع بها يومَ وفاةِ أبي بكر سنة ١١هـ، وفي أيامه فتح الشام والعراق والمدائن ومصر والجزائر حتى قيل: انتصب -في مدته- اثنا عشر ألفَ منبرٍ في الإسلام، وكان ولايته عشر سنين وستة أشهر وخمس ليالٍ.

إنه أولُ من أرخ الكتبَ، وختم على الطين، وهو أول من وضع للعرب التاريخَ الهجري، واتخذ بيتَ مالٍ للمسلمين، وأمر ببناء البصرةِ والكوفةِ فَبُنيَا، وهو أولُ من دوَّن الدواوين في الإسلامِ، وجعلها على الطريقةِ الفارسيةِ، وكانَ يتنقلُ في الأسواقِ منفرداً، ويقضي بين الناس[١].

ثقافته:

كان عمرُ - رضي الله عنه - موفورَ الحظِ من ثقافةِ عصره تلك التي جعلته أديباً مؤرخاً فقيهاً خطيباً مطبوعاً على الكلام، ناصحاً وموجهاً على ضرورةِ تعليمِ الرياضةِ البدنيةِ حتى قيل فيه :"إذا رأيتَ الرجلَ يزعمُ أنه أعلمُ من عمرَ فَشُكْ في دينه"[٢].

والمتتبعُ لحياةِ عمرَ الثقافيةِ -بعينِ الحصرِ- يرى ضرورةَ تقسيمها إلى مناحٍ شتى منها ما كانَ له النصيبُ الأكبرُ من اهتمامه، ومنها مكملاً لزوايا ثقافيةٍ فى شخصيته، وسنحاول أن نجملَها فيما يلي:-

أ- في اللغة والنحو: كان عمرُ "رضي الله عنه" يدركُ أهميةَ اللغة، ومدى خطورة اللحن فيها؛ لذلك كانَ يأمرُ المسلمين بقوله "تعلموا النحوَ كما

---

(١) انظر: المعارف ص١٨٢

(٢) انظر: عبقرية عمر ص٢٠٤.

تُعلّمون السنن والفرائض[1]، وكان كلما رأى رجلاً يتلجلجُ في كلامه، ولا يتقن لغتَهُ فيأتي كلامُه خلواً من البلاغيةِ، أو شئ منها يقول "خالقُ هـذا وخالقُ عمرو بن العاص واحد"[2]

على كلٍّ فلقد فإن عمرَ قد حافظَ على سلامةِ اللغةِ من شوائبِ اللحنِ في القولِ والعملِ، وهو -في ذلك- يتبعُ منهجَ الرسولِ (ﷺ) الذي يرشدُ من ضلَّ في النحوِ.

ب- في رواية الشعر: كان عمرُ "رضي الله عنه" في الإسلام مثلما كانَ في جاهليته كثيرَ الولعِ بالشعرِ والأمثالِ والطرقِ الأدبيةِ حيثُ يروي الشعرَ، ويتمثلُ به، ويحثُّ على روايته، ويعتدُّها من تمام المروءة والمعرفة وذلك لقوله: أُرووا من الشعرِ أعفَّهُ، ومن الحديث أحسنَهُ من محاسن الشعر ما يدلُّ على مكارمِ الأخلاقِ"، حيثُ اعتبرَ أن اكتمالَ مكارمِ الأخلاق يكونُ بروايةِ الشعرِ، وحفظه.

جـ- النسب: يعدُّ هذا العلمُ من العلومِ التي أولاها عمرُ كثيراً من اهتماماته، وكانَ يحرِّضُ ابنه على تعلمِ النسبِ، وكأنه -به- يودُّ أنه يورثَهُ من معرفته بالنسب، كما كان يحضُّ المسلمين عامةً على هذه المعرفةِ؛ وينصحهم إلا يكونوا كنبطِ السوادِ فيقول "تعلموا النسبَ ولا تكونوا كنبط السوادِ إذا سئلَ أحدُهم عن أصلِه قال: من قريةِ كذا وكذا[3].

---

(1) انظر: البيان والتبين ج2 ص219

(2) انظر: المصدر نفسه ج1 ص39

(3) انظر: العقد الفريد ج3 ص234

د- ثقافات أخرى: لم تتوقفْ ثقافاتُ عمرَ علــى النحــوِ واللغــةِ والشــعرِ والنسبِ، بل امتدت لتشملَ معرفته القويةَ والعميقــةَ بتــاريخ العــرب وأيامها، ومفاخر أنسابها كعلمه بأفضل ما قالت من الشــعر"[1]. كمــا عُرِفَ عنه إلمامه الكبير بفقه الشريعةِ التي كانَ مسؤولاً عن تطبيقهــا بينَ الفقهاءِ والدليلُ على ذلك أن كان عبد الله بن مسعود يقول: "كــان عمرُ أعلمنا بكتاب اللهِ، وأفقهنا فى دين الله" وكان إذا اختلفَ أحدٌ فــى قراءة الآيات قال له: أقرأها كما قرأها عمر"[2]. هذا ويعدُّ عمرُ أولَ من وضعَ للعرب التاريخَ الهجري، إذا كانوا يؤرخون بالوقائع: وقد هدتــه فطنته وحسنُ تصرفه إلى وضع بيتِ المالِ للمسلمين، هذا ولقد اتسعت ثقافتُهُ؛ لتشمل الثقافةَ الفارسيةَ التي استفاد منها في وضع الــدواوين فى الإسلام، وجعلها على الطريقةِ الفارسيةِ.. لكلِّ هذا استحقَ أن يكون مع الرسول (ﷺ)، وأبي بكر فى مرتبةٍ واحدةٍ قالها حسان بن ثابت

ثلاثــــةٌ بــــرزوا بســـبْقِهم ... نضَّـــرهُم ربُّهـــم إذا نشــــروا

عاشوا بــلا فُرقــةٍ حيــاتَهُم ... واجتمعوا في الممــاتِ إذا قُبِــروا

فليس من مسلمٍ لــه بَصَــرٌ ... يُنكــرُهُم فضْــلَهم إذا ذُكــروا[3]

بهذا تكون ثقافة سيدنا عمر المتنوعة قد اسهمت في الكــلام عــن الشعر ونقده واستوعبت ثقافة الناقدِ في عصرهِ فجاءت آراؤه وأحكامهُ في ضوءِ هذه الثقافةِ.

---

(١) انظر: عبقرية عمر ص١٩٥

(٢) انظر: الأعلام ص٢٠٣

(٣) انظر: العقد الفريد ح٣ ص١٠٩-٢١٠

ثانياً: الرسالة وتحليلها لغوياً:

كتب عمرُ إلى "أبى موسى الأشعرى"[1] وقد ولاّه القضاء:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله "عمر" أمير المؤمنين، إلى "عبد اللهَ بنِ قيس" سلامُ عليكَ، أما بعدُ، فإن القضاءَ[2] فريضةٌ[1] مُحكَمةٌ، وَسُنَّةٌ[2] مُتَّبعــةُ فــأفْهم إذا أُدلــى

---

(١) هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب، ومن بنى الأشعر، صحابي من الشجعان الولاة الفاتحين، وأحد الحكمين الذين رضيا بهما عليٌّ ومعاوية بعد حرب "صفين" ولد في زبيد باليمن، وقدم مكة عند ظهور الإسلام فأســلم وهــاجر إلــى أرض الحبشة، وكانت أولُ مشاهده خيبرُ، ثم استعمله الرسول (ص) علــى زبيــد وعدن، وولاه عمر البصرة سنة ١٧هــ فافتتح أصبهان والأهــواز، ولمــا ولــي عثمان أقرَّه عليها، ثم عزله فانتقل إلى الكوفه فطلب أهلها مــن عثمــان توليتــه عليهم فولاه فأقام بها إلى أن قتل عثمان فأقره عليّ ثم كانت وقعة الجمل فأرســل علي يدعو أهل الكوفة لينصروه فأمرهم أبو موسي بالقعود فى الفتنة فعزله علــي فأقام إلى أن كان التحيكم فخدعه عمرو بن العاص فارتد أبو موسى إلــى الكوفــة فتوفى سنة اثنين وخمسين، وقيل ويقال سن اثنين وأربعين فكان له أخــوة وقــد أسلموا، كما أسلم أولاده، هذا ولقد كان في الحديث سيدّ الفوارس"

راجع: الأعلام لخير الدين الزركلي ح٤ ص١١٤، والمعارف لابن قتيبة ط٢ ص٦٦.

(٢) القضاء لغةً: الحكم وأصله قضاي؛ لأنهُ من قضيتُ، إلاّ أنَّ الياء لمَّا جــاءت بعــد الألف هُمزَت. والقاضي معناه في اللغة القاطع للأمور، المُحكمُ لها.

والقضاء: فضْل الأمر قولاً كان أو فعلاً، وكل واحد منهما على وجهين إلهي وبشري.

القضاء اصطلاحاً: عرف بتعريفات مختلفة باختلاف مذاهب الفقهــاء الكلاميــة لكنهــا متقاربة فى معناها:-

إليك،[3] فإنه لا ينفع تكلُّمٌ بحقٍّ لا نفاذَ له،[4] آسِ[5] بينَ الناسِ في وجْهِك وعدلِك ومجلسِك، حتى لا يطمعَ شريفٌ في حيفِك[6] ولا ييأس ضعيفٌ من

١- عرفه بعضُ فقهاءِ بأنه: فصلُ الخصومات وقطع المنازعات على وجه خاص، وقال آخرون: هو الإخبار عن حكم شرعيّ على سبيلِ الإلزامِ.

٢- وعرفه بعض فقهاء المالكية بأنه: إنشاءُ إطلاق أو إلزام في مسائل الاجتهاد المتقارب فيما يقعُ فيه النزاعُ لمصالحِ الدنيا وقيل كذلك الإخبارُ عن حكمِ شرعيٍّ على سبيل الإلزام.

٣- وعرفه فقهاء الشافعية بأنه إظهارُ حكم الشرعِ فى الواقعةِ فيمن يجبُ عليه إمضاؤه فيه.

٤- وعرفه فقهاء الحنابلة بأنه: تبين الحكم الشرعيّ والإلزام به وفصلُ الخصومات.

(١) محكمة: مقدرة ومحددة بحدود خاصة.

(٢) سنة: طريقة وتجمع على سنن

(٣) أدلي إليك: أُسندُ إليك

(٤) لا نفاذ له: لا تنفذ بتطبيق أو غيره..

(٥) أس بين الناسِ: تجئ من أسى بينهم أسْواً- أي يُصلح بينهم ويعدل، وتجئ بمعنى سَوِّ بينهم، واجعل كلّ واحدٍ منهم إسوة خصمه وتأسوا أيْ آسَى بعضهم بعضاً، راجع: اللسان مادة "أسا)

(٦) حيفك: الميل في الحكم والجور والظلم .. يقال حاف عليه في حكمه يحيف حيفاً: مال وجار.

قال الأزهري: بعض الفقهاء يُرَدُّ من حيف النَّاحِل ما يُرَدّ من جَنَفِ الموْصي، وحَيْفُ النَّاحِل: أن يكون للرجل أولادٌ فيعطي بعضاً دونَ بعضٍ، وقد أُمرَ بأن يُسَوِّي بينهم فإذا فضّل بعضهمَ على بعضٍ فقد حاف......

عدلك البينةُ[1] على من أدَّعى،[2] واليمينُ[3] على مَنْ أنكرَ[4]، والصلحُ جائزٌ بينَ المسلمين إلا صلحاً أحلَّ حراماً، أو حرَّمَ حلالاً؛ لا يمنعُكَ قضاءٌ قضيْتَه اليومَ فراجعْتَ نفسَك فيه، وهُديتَ فيه لِرُشْدك- أنْ ترْجعَ إلى الحقِّ، فإن الحقَّ قديمٌ. ومراجعة الحقِّ خيرٌ من التمادي[5] في الباطلِ.

وقولُ عمرَ" حتى لا يطمع شريفٌ فى حيفك أي فى ميلك معه لشرفِه، والحيف: الجور والظلم.......

راجع: اللسان مادة "حيف"

(١) البيِّنة: من البيان وهو ما بُيِّن به الشئُ من الدلالة وغيرها، وأبنته أنا أي وضَّحتُه، واستبان الشئ: ظهر وانشكف واستبنته أنا: عرفتُهُ وبانَ الشئُ وأبانَ بمعنى واحد، وهو مبينٌ، أي مبين الحقِّ من الباطل والحلال من الحرام... وهي هنا بمعنى الشهادة اللسان مادة "بين"

(٢) أدَّعي: بمعنى كذب أو اتهم غيره...

(٣) اليمين: الحلف والقسم، أُنثى، والجمع أيمن وإيمان وفي الحديث: يمينك على ما يُصَدِّقُكَ به صاحبُك- أي يجبُ عليك أن تَحْلِفَ له على ما يُصَدِّقك به صاحبك إذا حَلفْتَ له... راجع: اللسان مادة "يمن"

(٤) أنكر: جحد.

(٥) تمادى: يقالُ تمادى فلان في غيه إذا لجَّ فيه، وأطال مدى غيِّة أي غايته وفي حديث كعب بن مالك: فلم يزل ذلك يتمادى بي: أي يتطاولُ ويتأخرُ وهو يتفاعلُ من المدى... راجع اللسان مادة "مدى"

الفهمَ... الفهمَ، فيما يتلَجلَجُ[1] في صدرِك، مما ليس في كتاب[2] ولا سنة[3]؛ ثم اعْرِف الأشباهَ[4] والأمثالَ؛ فقس[5] الأمورَ عند ذلك، واعمدْ[6] إلى أقربِها إلى اللهِ وأشبهِها بالحقِّ.

---

(١) يتلجلج: تجئ اللجلجة بعدةِ معانٍ منها: ثقل اللسان، ونقص الكلام وألاَّ يخرج بعضُه فى أثر بعضٍ، ورجلٌ كجْلاج: وقد لجلج وتَلَجْلج..

واللجلاج: الذى يحول لسانه في شدقه، وقيل هو الذى يتكلمُ بلسانٍ غير بيّن، أما عن يتلجلج" فى قولِ عمرَ: الفهم الفهم فيما تلجلجَ في صدرك مما ليسَ في كتابٍ أو سنةٍ، فمعناها– تردد فى صدرك وقلِق، ولم يستقر، ومنه حديثُ علىٍّ –رضي الله عنه– : الكلمةُ من الحكمةِ تكونُ فى صدر المنافق فتلجلج حتى تخرجَ إلى صاحبها أيّ تتحركُ في صدره، وتقلق حتى يسمعها، المؤمن فيأخذُها ويعيها راجع: اللسان مادة "لجلج"

(٢) الكتاب: هو القرآنُ الكريمُ كلامُ اللهِ تعالى المنزل على صدر محمدٍ (ص).

(٣) السنة: كلامُ رسولِ الله (ص).

(٤) أشباه: الشِّبه والشَّبَه والشبية: المثل والجمع أشباه.

(٥) قسْ: من قاس الشئ يقيسه قيساً وقياساً وقيَّسه إذا قدَّره على مثاله هذه فى اللغة.

أما فى الاصطلاح الفقهاء فهو: إلحاق أمر لا نص فيه بأمر فيه نص فى الحكم الشرعى الثابت له لاشتراكها فى عله هذا الحكم.

مزيداً من التوضيح يمكنك الرجوع إلى تاريخ الفكر الإسلامي ق١ التشريع الإسلامي لرشاد حسن رشاد ط١٩٩٩

(٦) أعمد إلى أقربها: احكم بأقربها، وحلْ إليه.

ثالثاً: المناسبة تاريخياً:

لقد جاءت هذه الخطبة[1] العمرية رسالةً[2] رسميةً، وضرورة حتميةً ذات قيمةٍ تاريخيةٍ عظمى حيثُ أرسلها أميرُ المؤمنين عمرُ بنُ الخطابِ -رضي اللهُ عنه- إلى موسى الأشعري حينما ولَّاه القضاءَ؛ لتبينَ مدى حرصه -رضي اللهُ عنه- على إقامةِ العدلِ وإمضائه بينَ الناسِ حتى ينعمَ المجتمعُ المسلمُ بالأمنِ والاستقرارِ والطمأنينةِ وترفرف -على ربوعه- ألويةُ المحبةِ والسلامِ.

على الجملة: فلقد جاءت الخطبةُ مشتملةً على أهمِّ المبادئِ الإسلاميةِ – في القضاء .. وفي هذا وذاك دليلٌ على أهميته في الحياة؛ لذلك لم ينسَ أن يوصيَ أبا موسى الأشعري بما ينبغي عليه أن يفعلَ عندَ الحكم.

وعلى كلٍّ فإن كتابَ عمر إلى أبي موسى الأشعري دستوراً قويماً فى نظام القضاء والتقاضي، وقد اهتمَّ كثيرٌ من أعلامِ الفقهِ الإسلامي

---

(١) قد يحلو للبعضِ تسميتُها خطبةً بينما يروق للبعضِ الآخر أن يسميها رسالةً، ولأنها تتمثلُ فيها مقوماتُ الرسالة حيثُ بدأت بالبسملة ثم ذكر المرسل والمرسل إليه ثم السلام؛ لذا فإنه من الأجدر بنا أن نطلق عليها "رسالة"

(٢) ترجم -هذا الكتاب إلى اللغاتِ الأخرى- "إميلُ تيان" إلى الفرنسيةِ في كتابة "تاريخ التنظيم القضائي فى الإسلام" وترجمةُ (هنرى كتمن) إلى الإنجليزيةِ، وعَدَّهُ العلماءُ من المصادر الأصلية- لأصولِ المحاكمات"

مزيداً من التوضيح راجع: السلطة القضائية ص ٤٣٩.

بشرحهِ والتعليقِ عليه، ويكفي أن نذكرَ قول ابن القيم: "وهذا كتابٌ جليـلُ القدرِ، تلقاه العلماءُ بالقبولِ وبنوا عليه أصولَ الحكمِ والشـهادةِ والمفتـى أحوج شئ إليه، وإلى تأمله والتفقّه فيه"(١)

رابعاً: محاورُ الرسالةِ ومسالكُها التعبيريةُ:

إنَّ الناظر المتعمقَ في النص الخطابي يستطيعُ رصدَ خمسةِ محاورَ انطلقت منها معاني الخطبة، وهي مرتبةٌ كالتالي:

الأول: المساواةُ بين الناسِ وخصوصاً في القضاءِ

الثاني: فهمُ القاضي لمهنته، والاعتزازُ بشرفها.

الثالث: الصلحُ المشروطُ بين المتخاصمين.

الرابع: مراجعةُ النفسِ بعد القضاءِ، ولا مانعَ من إصلاحِ الحكمِ متى تبـينَ بُعْدُهُ عن الحقِّ

الخامس: إعمالُ العقلِ فيما لم يردْ فيه نصٌّ.

الأول: المساواةُ بين الناسِ في القضاءِ:

لقد قدمت الخطبةُ – فيما يتعلقُ بالمساواة –ثلاثَ خطاباتٍ– علـى اختلاف مستوياتها– كالتالي:

---

(١) راجع: أعلام الموقعين عن رب العالمين للعلامة شمس الدين أبى عبد الله محمـد بن أبي بكر المعروف بابن الجوزية بتحقيق محمد محي الدين عبـد الحميـد ج١ ص٨٥، ٨٦ طبعة الكردي.

الأول تشريعي: وفيه يؤكدُ عمرُ -رضي اللهُ عنه- أن الشرعَ الإسلامي قد راعى المصالحَ العامةَ في تقرير الحقوق دون النظرِ إلـى النـاسِ، وهيئاتهم، أو تركيباتهم الطبقية أو ألوانهم العرقية فـي المجتمـعِ المسلمِ، فالناسُ في نظرِ القضاءِ سواءٌ. والأحكامُ الواردة في خطابِ الرجالِ هي نفُسها التى تنسحبُ على الناس وكذلك فـإن الأحكـام الواردةَ فى خطابِ أشخاصٍ محددين قد تتعداهم؛ لتشمل كلَّ مَنْ هو أهلٌ للتكليف، "وكلُّ خطابٍ منه (ﷺ) لواحدٍ فيما يفتيه به، ويعلمـه إياه – هو خطابٌ لجميعِ أمتهِ إلى يومِ القيامةِ"[1] بحيثُ تُطبَّقُ علـى كلِّ فردٍ؛ ولا يعفى منها أحدٌ، ولا تُفصَّلُ على حسبِ أهواءِ النـاسِ، وفيما يوَدُّون أو يبغضون.

الثانى قضائى: وفيه ينظرُ القاضي -في قضيته- نظرةً تقتصرُ على تفهـم البيِّنات، والإحاطة أو الإلمام بالحيثيات، ومعرفة حكم الشارع الذي ينطبقُ عليها دونَ أن يكون لشخصيةِ المتخاصمين أدنى تأثيرٍ فـي اتخاذِ الحكم.. وهنا تمتدُ المساواةُ مردفـةً كـلِّ أعجازهـا علـى الجوانب لتشملَ السواسيةَ في جلوسِ المتخاصمين، والنظرة إليهما بحيثُ لا يقربُ أحدٌ على الآخر بما يوحي بالاهتمام الزائـدِ الـذي يولِّدُ نوعاً من التعاطفِ لشخصٍ والانحياز له دون الآخر، وعمـرُ نفسُه هو الذيِ حكم فيما وصل إليه من لطم جبلة بن الأبهم -رجلاً

---

(١) انظر: كتاب الأحكام لابن حزم

من بني فزارة وطئ إزاره- وهو يطوفُ، فهشَّم أنفَــه فاســتعدى الفزاري عليه عمر بن الخطاب، فقال لجبلةَ: كيفَ وهو من السوقة وأنا ملك؟!! فقال: إن الإسلامَ جمعَك وإيَّاه، فلست تفضله إلاَّ بالتقيِ والعافية! ففر جبلةُ ليلاً، وعادَ إلى نصرانيته.

الثالث تنفيذيٌّ: وفيه أكد الإسلامُ بل شدد على وجوبِ تطبيــق المســاواة، وحسن رعايتها حيثُ إن عدم المساواة جنايةٌ كبرى على التشريع والقضاء، كما أن التغاضيَ عنها يعدُّ نوعاً مــن أنــواع التــردِّي والسقوط وهنا يحذرُ رسولنا الكريمُ من التمادي فى هــذا الخطــأ لقوله:

"فإنما هلكَ الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق منهم الشريفُ تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ، وإني والذي نفسي بيده لو أن فاطمــةَ بنتَ محمدٍ سرقت لقطعَ يدها"

والأقوال إن لم تساندها الأفعالُ فلا قيمةَ، إذ تعدُّ كمن نيقشُ على الماءِ، أو ينعقُ في الصحراء؛ لذا فلقد صدق عمرُ -رضي الله عنه- لمّا قــال: وإذا تبينَ لك الحقُ فانفذ، فإنه لا ينفعُ تكلمٌ بحقٍّ لا نفاذَ له"

بالنظرُ إلى المسالك التعبيرية الموظفة في تشكيلِ هذا المحورِ فإننا نلمسُ أن النَّصَ رسالةٌ بدأت بالبسملةِ، وبيانِ المرسلِ إليــه، ثــم جــاءت الجملةُ الخبريةُ المؤكدةُ (بإن) فى "فإن القضاء فريضــةٌ محكمــةٌ، وســنةٌ متبعةٌ" حيثُ أرادَ -بذلك- تثبتَ هذا المعنى في الذهن، وتقريــره بوصــفه

حقيقةٌ يجبُ تداركُها، ومن الضروري العملُ بها حتى يستقمَ أمرُ المسلمين

هذا على المستوي الأسلوبي، أما على المستوى البديعي فلقد جاء السجع

في "فريضة محكمة، وسنة متَّبعة" مرصعاً وقد اتفقت الفقرتين

فريضةٌ محكمةٌ وسنةٌ متّبعةٌ في الوزن والتقفية حيثُ جاء تقريباً موزناً

كالتالي: //٥//٥ /٥///٥ //٥//٥ /٥//٥ /٥////٥

ونتساءل عن كيفية مجيئِه فنرى أنه جاء على غيرِ تكلفٍ، إذ أرسلَ عمرُ المعاني على سجيَّتها، وتركها تطلب لنفسها الألفاظ، من هنا كان السجعُ مكوناً للفكرة، لا ملوناً لها؛ وذلك لإثارة الذهن، وإيجاد نغمةٍ موسيقيةٍ تأنسُ لها أذنُ السامعِ، وتروقُ لنفسه حتى تتآلفَ موازرةً للقيمةِ الدلاليةِ؛ لتكون مسلطةً بشكل إيقاعى منظم بحيثُ تلحُّ على السامع صباحَ مساءَ بدافع ترسخيها وإبقائها مثبتةً في عقلِ المسلم كجزءٍ لا يتجزأ من عقيدته؛ ثم يعاودُ عمرُ "رضي الله عنه" ظهورَ المستوى الأسلوبي؛ ولكن هذه المرة بتقديمه فعلين آمرين "افهم – آس" إذ يهدفُ –من خلالهما– وجوبَ النصحِ والحثِّ والإرشاد لأبي موسى الذى يتلقى درساً تعليمياً في فنونِ وآدابِ القضاءِ الإسلاميِّ شريطةَ أن يتمتعَ بحاسةِ الفهمِ التي تساعدُه على الإحاطةِ والمعرفةِ التامةِ بأمورِ القضاءِ.

إن استخدامهُ للفعل الأول "افهم" يقدمُ قيمةً دلاليةً تؤكدُ على ضرورة إعمالِ العقلِ في القضاءِ الذي يعتمد على حيثياتٍ وقرائنَ تؤدي إلى إصدارِ الحكمِ الذي يُتَوصَّلُ إليه، حيثُ عبرَ عن ذلك بالجملة المؤكدة "بإن" وكذلك

باستخدامِ الجملةِ الشرطيةِ التي اختارها "إذا" للدلالة على ما يستقبل من الزمان معبرةً عما سيُعرضُ مستقبلياً، ثم ربطه الوثيق للجواب، أو النتيجة – وهي عدمُ جدوى الحكم الذي لا ينفَّذ – على فعلِ الشرطِ عند حدث الإسناد في "ولي" أي "أُسنِد" المبني للمجهول؛ وذلك لإفادة العموم والشمول.

والفعل الآخر "آس" الذي يبين المساواةَ بكلِّ أشكالها، محدداً إياها – أولاً – في النظرة وما يرتسمُ عليها، أو بما تجرُّه من عوامل استعطافٍ، أو تغاضٍ، ثانياً في المجلس؛ لأنه إذا استدرَّ المدّعي عطفَ القاضي عليه؛ فسيجلسه القاضي – بدافع المحاباة – قريباً منه؛ لقربه من قلبه – كأن يكون القرب مجازياً –، وأخيراً في العدل أي الحكم الذي يدلى به في المجلس، ذاك الحصاد المر إذا لم تتحقق المساواة.

فالناظر إلي الكلمات "النظر – مجلس– عدلك" يرى غايةَ الاختبارِ الموفق حيث جاءت مرتبةً على حسبِ دوافعِ أو بواعثِ الاستمالةِ النفسيةِ الآخذةِ في التدريجِ التصاعدي محاباةً أو معاداةً.

ثم نعيدُ النظرَ كرة أخرى –فى الفعلين–"افهم – آس" من الناحيةِ الصوتيةِ فنجد الاختيار الرائع لحروف الفعل "افهم" حيثُ قدمَ ثلاثَةً شفويةً، الأول والثاني مهموسان؛ ليتناسبا مع جلال ووقار وبهاءِ التعليمِ الذي يحتاجُ إلى أناةٍ وصبرٍ واستفراغٍ للمجهود .. أما الفعل الآخر "آس فلقد جاء الحرفان "الهمزة والألف" الأول منهما مجهورٌ شديدٌ؛ ليتناسبَ مع تطبيقِ مبدأ المساواةِ بينَ الناس الذى يحتاجُ إلى القوةِ وضبطِ النفسِ، بينما الآخر –وإن كان سيبويه قد وضعه مع الأول لأنها من مخرج واحد– فهو يغضد

ما هدفَ إليه، ثم يجئ حرفُ السينِ المهموسِ الذي يبعثُ علـــى الهـــدوءِ والاستقرارِ، متلائماً مع نفسية المظلوم التي تقرُّ عينُه، فيهدأ وذلـــك لمـــا يأخذ كلٌّ حسابه بقدر ما صنعَ.....

ثم يعاود المستوى البديعي في الظهـــور وذلـــك للمجـــئ بالقيمـــةِ التضاديةِ التي تبعثُ النفسَ على التأملِ؛ وذلك لإدراك الفرقِ الواضح بـــين المعنيين عن طريق المقابلةِ الرائعةِ في "لا يطمعَ شريفٌ فـــي حيفـــك، ولا ييأسَ ضعيفٌ في عدلك" حيثُ بثها كلَّ مـــا يعلـــى مـــن قيمتهـــا الدلاليـــةِ والجماليةِ، وذلك لإبراز المعنى وتوضيحه وخصوصاً فى التقابل بين (يطمع مع الشريف فى الحيف نظراً لإحساسه بالقوة المستمدة من الغنى تلك التي يهابها القاضي الضعيف النفس واليأس الذي يصيبُ الضـــعيف لإحساســـه بالهوان على الناس وفقد الأمل في المساندة خشية أن يستميله الغنى، ثـــم ندعُ كلَّ هذا وننظرُ إلى ربطِ الوصايا المعللةِ بأسبابِها في "آس بين النـــاس (لماذا؟؟) حتى لا يطمع شريف لذلك أنها لا تتركُ للشكِ أيَّ مساحةٍ يمكنـــه أن يشغلها حتى يظل للعقل حضورُه وسلطته الكبرى في تحريك القضـــاء، وإعماله بين الناس......

كذلك جاء السجع مرصعاً وقد اتفقت الفقرتين:

لا يطمع شريفٌ في حيفك" لا ييأس ضعيفٌ من عدلك

/٥ /٥/// //٥/٥ /٥ /٥// // /٥ /٥ //٥/٥ ٥/ /٥// /٥ /٥/ /// ٥/٥ /٥ ٥/ //٥/ /// /٥/ /٥ /٥//

فى الوزن والتقفية؛ كي يكثف القيمةَ الإيقاعيةَ وفى هذا الدليلُ الأكبرُ على شغفه بالشعر.

الثانى: فهم القاضي لمهنته واعتزازه بشرفها:

معروفٌ أن القضاء له طريقته وكيفيته الشرعيةُ في الدعوى والبينات والحجج، فالقاضي ما هو إلا شخصٌ نصبه الشارع لتنفيذ الإلزامِ فى القضاء الذي يستمد قوتَه من النصوصِ الشرعيةِ التى تدلُّ علي الحكم؛ لذا فإنه يقومُ على تنفيذه بوصفه ركناً من أركان القضاء الخمسة[1]؛ لكى يفصلَ بينَ الناس فى الخصومات شريطةَ أن يبلغ الدقة والإحكام فيما يعرضُ عليه بحيثُ يطلب البينة، والدليل من المدعي، وكذلك اليمين من المدعى عليه إذا انكر ما يدعيه خصمه ألم تكن هنا بينةٌ وذلك حمايةً للحقوق بحيثُ يعطى كلَّ ذي حقٍّ حقه، ويأمن كلُّ إنسان على نفسه وعرضهِ ومالهِ، ولا يخشى الاعتداءَ عليه من الأشرار، وذوي الأطماعِ في حقٍّ من الحقوقِ المشروعةِ.

والقاضي الحقُّ هو المنزهُ عن كلِّ الصغائر، المعتزُّ كلَّ الاعتزازِ بما كُلِّف به، المؤدي عمله قائماً به خيرَ قيامٍ لاسيما الذى يأتيه الخصومُ

---

(١) القاضي والمقضي به والمقضي فيه والمقضي له والقضي عليه... مزيداً من التوضيح يمكنك الرجوع: وقائع ندوة النظم الإسلامية بحث عن "النظام القضائى" في العهد النبوى والخلافة الراشدة للشيخ مناع خليل القطان ح١ ص٣٣٧ أبو ظبى مكتب التربية العربي بالخليج عدد نوفمبر سنة ١٩٨٤م

فيستمعُ للدعوي، وينظر فى البينات والحجج ويحكم بمقتضى ما ظهرَ لـــهُ من الأدلةِ.

ولمَّا يقوم القاضى بين المتخاصمين خير قيامٍ يسود السلامُ، وتتجه الحياة إلى العملِ المستمرِ إذ لا شئ يزلزلُ استقرارَ المجتمعـــات ويقـــوض دعائمها سوى الظلمِ والعدوانِ والطمعِ والمجاملةِ والمحاباةِ...

وبالنظر إلى مسالكه في التعبير عن هذا المحور فإنه: قدم جملتـــين اسميتين على المستوى الخبري في شكل ازدواجي، وقد راعى النظير فـــي كلٍّ واحدةٍ فقال: "البينة أو الشهادة على من ادَّعى، واليمين على من أنكر، وذلك فى إيجازٍ بالغٍ، وتركيزٍ شديدٍ.

الثالث: الصلحُ المشروطُ بين المسلمين:

لم يفصل أميرُ المؤمنين عمرُ -رضي الله عنه- مسألةَ المصـــالحةِ كحلٍّ سلميٍّ أو محطة وصولٍ للحكم القضائي الذي ينتهي عنـــده التنـــازعُ والتناحر، إذ أجازها جوازاً مقنناً- أي مشروطاً بأمرين:

الأول: أن يكون قائماً عن تراضٍ بينهما بعيداً عن ممارسةِ أي نـــوع مـــن الضغوطِ على أيٍّ من الطرفين؛ لأن هذهِ الضغوطَ قد لا تزيلُ ما فـــي النفوس من إحنٍ أو ضغائن وبالتالى يصدقُ قول الرسول (ﷺ) "هدنةٌ على دَخَنٍ وجماعةٌ على أقذاء"

الآخر: لا يجئ الصلحُ ليًّا لأعناق النصوصِ الشرعية، فتحللُ امراً حرمَـــهَ اللهُ وتحرمُ أمراً قد أحله اللهُ...

إن مثل هذا الصنف يفسدُ العلاقَة بينَ البشرِ والشريعة إفساداً يصعبُ إصلاحُهُ بشكلٍ أو بآخر، إذ لا طاعة لمخلوقٍ فى معصيةِ الخالقِ.

وبالنظر إلى المسالك التي وظفت في تشكيلِ هذا المحورِ فإننا نرى جملة "الصلح جائز" الخبرية قد جاءت في تركيبةُ اسميةٍ مؤجزةٍ، ثم قدمَ شبه الجملة المكون من الظرف المكاني (بين) وذلك بالحسِّ الإدراكي العالي فى المضاف إليه "المسلمين الذي حددَ الطرفين وخصصهما في تقابلية رائعة قيَّدت المطلق، وخصصت العامَّ، وبالتالي، وضعت النقاطَ على الحروف ثم جاءت آداة الاستثناء إلاَّ والمستثنى "صلحاً" الذي أخرجته "إلاَّ" من حكم ما قبلَها؛ ولأن "صلحاً" جاءت نكرةً فإننا نرى مجئَ التابع المتمثل في الجملة الفعليةِ "أحلَّ حلالاً" وذلك لتخصص المنعوت وتحديده وتفصيله"[1] لما جاءَ مجملاً في "صلحاً" ثم يجئ عطفُ النسقِ الرائعِ بالحرف "أو" الذي يؤدي المعنيين "التخيير والإباحية معاً في "أحلَّ حلالاً" "أو حَّرمَ حلالاً" وهنا يتركُ المخاطب حرّاً في اختيارِ أحدِ المتعاطفين، ثم يتحملُ نتيجة اختياره فيما بعدُ، هذا لا ننسى المحسنَ البديعيَّ "أحلَّ حراماً، وحرّمَ حلالاً" الذى جاءَ كي يبرزَ القيمةَ التضادَية؛ ليزدادَ المعنى، ويبرزَ أكثرَ وضوحاً وجمالاً... ناهيك عن أن هذا المحسنِ الذي جاء لتكوينِ الفكرةِ لا لتلوينها.

---

(١) راجع: دور التوابع في الجملة "فهم وتحليل" الدكتور أحمد كشك دار الهلال ص ٩٣ بدون تاريخ

الرابع: مراجعةُ النفسِ بعدَ القضاءِ، ولا مانعَ من إصلاح الحكم متى ثبت أو تبين بُعْدُهُ عن الحقِّ

لقد حثَّ عمرُ -رضي الله عنه- على ضرورة -مراجعة القاضي نفسه فيما عُرِضَ عليه من قضاء، وخصوصاً في كلِّ ما يجتهد فيه، ولا عيبَ أن يتراجعَ عما قد حكمَ فيه، إذا أن الخطأ ليسَ فيمَ ارتكب؛ لكن الخطأ أن يتمادى في خطئه، ولا يصحح موقفهَ فيما لا يجد فيه نصًّا من الله ورسوله؛ لذا حثَّ على الاجتهاد وبيانِ ما فيه من أجر فقال: "إذا حكمَ الحاكمُ فاجتهدَ فأصابَ فله أجران وإذا حكم فأخطأ فله أجر[1].

لقد اجتهد سعد بن معاذ في بني قريظة وحكم فيهم باجتهاده في حضرةِ رسولِ اللهِ وصوبه النبي فى حكمه، وأمر عمرو بن العاص ان يقضي فى خصومة بحضورة عليه الصلاة والسلام، وأن يجتهدَ فى حكمه، وله الأجرُ.

بالنظر في مسالك هذا المحور التعبيرية نرى الجمل الخبرية- كالعادة- هي المسيطرة على المستوى الأسلوبي لتقريرِ الحقيقةِ، وتثبيتها في الذهن، كما جاءَ التوكيدُ على اختلاف وسائله فنجد إن في "إن الحق قديم" وتكرار لفظ الحقّ ثلاث مرات حيث جاءَ فى الأولى "رجوعاً إليه وتمسكاً به" وفى الثانية "وصفاً له وتقديراً لقيمته" وفى الثالثة "مضافاً إليه منسوباً إلى فضله"...

---

(١) أخرجه البخاري مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي: جامع الأصول ج١٠ ص ١٧١

هذا ولقد جاءت الأفضلية للحقِّ بعدما نسب عمر إليه كلَّ ما يميــزه فقال: مراجعة الحق خيرُ من التمادي حيث جاء بالمفضل "مراجعة الحــق" واسم التفضيل "خير"؛ لأنه يكون مفيداً من كافة الوجوه وأخيراً قدم العلــلَ المرتبطةَ بأسبابها كالعادة.

الخامس: إعمال العقل فيما لا يردُ فيه نصٌّ

لقد أكد عمرُ -رضي الله عنه- مغرياً بضرورة إعمالِ العقلِ فيما لم يردْ فيه نصٌّ من الكتاب والسنة، ورأي أنه لابدَّ من الاجتهادِ والقياسِ فيما ليس فيه نصٌّ بم وردَ فيه نصٌّ إذا تشابها أو اتفقا في العلة.

ثم بالنظر في مسَالكِ هذا المحورِ فإن عمر -رضي اللهُ عنه- مــال إلى استخدامِ الأساليبِ الإنشائية- المنوَّعةِ ما بينَ طلبيةٍ، وغيرِ طلبيةٍ.

فإما عن غير الطلبية فإننا نذكر منها أسلوب الإغراء في :"الفهــمَ الفهمَ" حيث جاء ليحثَّ ويلزم ضرورةِ الفهمِ كأداةٍ فعليةٍ مــن أدواتِ العلــمِ والمعرفةِ التي يتمُّ بها إصدارُ الحكم، كما كرر اللفظ على ســبيل الإلحــاح والتذكير والتوكيد، وأمّا الطلبيةُ فلقد جاءت في الأساليب الثلاثــةِ الآمــرةِ "اعرفْ حيثُ حثت، وأرشدت إلى ضــرورة الإلمــام بــالعلومِ والمعــارفِ والإحاطةِ الكاملةِ حتى يتسنى للقاضي فهمُ قضيته بكلِّ ملابساتها وحيثياتها من أدلةٍ وحججٍ وبراهينَ، وما إلى ذلك من صفاتٍ للقضية، ثم "قنس" حيثُ نصحت أبا موسى الأشعرى بأن يجتهدَ ويُعْمِلَ عقلَهُ فيما يُعْرَضُ عليه مــن القضاءِ طالما أنه أحاطَ بالقضيةِ معرفةً وعلماً بعد التغلغــلِ والاستفصــاءِ

ودوام البحثِ والاستمرار في قضيته ثم "اعمدْ" حيثُ أرشدت إلى ضـــرورة الجرأةِ والشجاعةِ في اتخاذ القرارِ دونِ الترددِ الذي يفسد صلاح الأمور.

والناظر للأفعال السابقة يرى أنها تدرجت على حسب الحـــالاتِ التعليميـــةِ بحيثُ تجئ كالتالي:

أولاً: الفهم بوصفه أداة أساسية من أدوات المعرفة والإدراك الحقيقي.

ثانياً: المعرفةُ بقصدِ الإحاطةِ والإلمامِ وكمالِ العلم وذلك بالتعمق والتقصـــي ودوام البحث ومداومة النظر، والاجتهاد وإعمالِ الفكر في النّص بغيـــةَ التوصلِ إلى قرارٍ.

وأخيراً إبداء الرأي بتجرد وموضوعية وشفافية وشـــجاعةٍ بعـــدما تستوي المسألة -على سوقها - في ذهن القاضي.

على كلٍّ فإنَّ الرسالةَ قدَّمت الخطاب الأدبي على مستويين متوازيين بخلافِ الخطابين الإعلاميّ والقانونيّ:

الأول: تأصيلي حيثُ قدَّم الدستورَ القويمَ في القضاء والتقاضي..

الآخر: فني حيثُ جاءَ موازياً ومعضداً من شأن الأول ومترجمـــاً لـــه فـــي طواعيةِ وشفافيةِ واقتدارٍ مع ملاحظة خلوِّ هذهِ الرسالةِ من الصـــورِ الخياليةِ؛ ربما لأنَّ الهدفَ منها سردُ مبادئ وتثبيتُ أحكامٍ يُستعانُ بها في القضاءِ.



المبحث الثاني

رسالةُ عبدِ الحميدِ الكاتبِ
إلى الكُتَّاب

(دراسة موضوعية وفنية)



أولاً: بطاقة الكاتب المعرفية:

اسمه ونسبه

هو عبدُ اللهِ بنُ يحيى بنُ سعيدٍ، -وقيل: سعد الكاتب، مولى العلاء وهب القرشي؛ - حيث كان أبواه من موالي بني عامر بن لؤئ، قيل إنـــه من أصلِ فارسي،.

مولده ونشأته:

وُلِدَ حوالي سنة ٦٠ هجرية – فى مدينة الأنبارِ بالعراقِ على نهــرِ الفراتِ، ثم انتقل إلى الرقة، وأشتغل- فى أولِ أمره- بتعليمِ الصبيانِ، ثــم تنقلَ -فى البلدانِ المختلفةِ -معلماً فى كتاتيبها بعد ذلــك التحــقَ بــديوانِ الرسائلِ فى دمشقَ لعهد هشام بن عبد الملك، حيثُ خرجه ختنـــه ســـالم- مولى هشام، ورئيس هذا الديوان- كاتباً متميزاً لا يضارعُ، بعدَ أن لمـــسَ فيه فصاحةً ومهارةً بيانيةً فائقةً؛ وعندما تنضـــجُ موهبتـــه نـــراه يتصـــلُ بمروان بن محمد- وكان عاملاً لهشام على أرمينية -فاتخذه كاتباً له، ولما تولى مروان الخلافة سنة ١٢٦هــ أقامه على ديوانه فنهضَ بالعملِ فيـــه خيرَ نهوض[1].

---

(١) راجع: ترجمته فى كل من:

١- وفيات الأعيان لابن خلكان ح٣ ص ٢٢٨.

٢- الفهرست لابن النديم صـــ١٧.

٣- ومروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي ح٣ صـــ٢٦٣

وهذا ويقالُ: إنه لما انتهت الدولةُ الأمويةُ، وقامت -على أنقاضها- الدولةُ العباسيةُ هرب مروانُ من وجهِ جيوشِ العباسيين - أصرَّ عبد الحميد على مرافقته إخلاصاً له، وظلا ينتقلان حتى وصلا إلى مصرَ وقتلا فى قرية "بوصير" المصرية"...

فالمتأملُ فى الرواية السابقة -إن صحت- يرى أنه كان وفياً باراً بمروان حتى الأنفاسِ الأخيرةِ حيثُ زعمَ ابنُ خلكانَ أن عبدَ الحميدِ اختفى بعدَ مقتل مروان فى الجزيرة، فوقف عليه السفاح، وعذبة حتى مات[1]، ويروي الجهيشارى: أنه اختفى عن ابن المقفع ففاجأهما الطلب ، وأخذ عبد الحميد" والصحيح ما ذكرناه أولاً من أنه قُتِلَ في بوصير مع مروان.

صفاته:

كانَ عبدُ الحميدِ على قدرٍ كبيرٍ من الأخلاقِ الفاضلةِ، وكان ورعاً تقياً ديِّناً، مشهوداً له بالعفافِ والاستقامةِ، على كل فإننا نستطيعُ أن نحصرَ أبرز صفاتهِ فى نقاطٍ أهمهما.

الأولى: **إخلاصه لعمله ولموهبته**:

٤- العصر الإسلامى لشوقى ضيف صــ٣٦٨ =

= ٥- الفن ومذاهبه فى النثر العربى صــ١١٣

٦- يتمية الدهر للثعالبي ح٣ صــ١٣٧.

(١) راجع: وفيات الأعيان ح٣ صــ٢٢٨.

لأنه كانَ يعلم مدى أهميةِ الكتابةِ فى حيــاةِ الأفــرادِ والجماعــاتِ، ويعرف أن الكتَّابَ ذو وأثرٍ بالغٍ فى أخلاقِ الناسِ، ويبدو أن الكتابَ كــانوا يقدرون لعبد الحميد عواطفَ الإخلاص والوفاء.. فقد رُويَ أن عبد الله بنَ المقفع حاولَ فى يوم مقتلِ عبد الحميد أن يفديه بنفســه، وتــروى كتــبُ التاريخِ أنّ جنود بني العباس اقتحموا البيت الذى فيه عبد الحميد فوجــدوه هو وعبد الله بن المقفع، فسألوهما مَنْ منكما عبد الحميد؟ فجعل كلٌّ منهما يقول: أنا وأخيراً تقدمَ عبدُ الحميدِ، وأثبت لهما بالشواهدِ أنه هو، فأخــذوه وقتلَ.

الثانية: **وفاؤه للصداقة**:

إن من النماذجِ الدالةِ على هذه الصفةِ نذكرُ أن مروانَ بن محمــد، آخرَ خلفاءِ الأمويين قال له: يا عبدَ الحميدِ إنك رجــلٌ صــاحبُ صــناعةٍ تحتاجُها الدولُ فى كل زمانٍ، وأرى أن تتحولَ إلى بنى العباس عســى أن تبلغ بكتابتك لهم منزلةً قد تنفعنى فى حياتى، وتنفعُ ذريتى بعــد ممــاتى. وهنا أطرق عبد الحميد ثم رفع رأسه وقال: إن هذا الرأى الذي رأيتَ هــو أحسنُ الرأيين لك، وأقبحهما لي؛ لأنى سأنالُ لدى الناسِ لقب "غــادر" ثــم أنشد:

أسرُ وفــاءً ثــم أظهــرُ غَــدرةً　　　فمن لى بعذرٍ يوسعُ الناسَ ظاهرهُ

ولم يزلْ على وفائه لخليفته، حتى قُتُلَ معه، كما أسلفنا الذكر

الثالثة: **غزارة ثقافته وسعة إطلاعاته**:

تكاد تجمعُ المصادرُ التى تناولت سيرةَ الكاتب الذاتيةِ علـــى ســـعةِ ثقافاته فى شتى المعارفِ والعلومِ الإسلامية والعربية، فضلاً عــن فهمـــه العميق للقرآنِ الكريمِ حيثُ يسرَ له هذا كله استيعابَ الكثيرِ من المعـــارفِ والقضايا، هذا ولم تقتصر ثقافاته عند هذا اللون أو المنحى المعرفى الـــذى بدأ به فى رسالة الكتاب وأكد عليه، بل لقد كانَ بعيدُ النظـــرَ فـــى شـــئونِ السياسةِ والحكم، كما كان يتمتع بخبرةٍ ممتازةٍ بوسائلِ تربيةِ الأبناءِ وولاة العهود، وقد بلغ عند الخليفة منزلةً عاليةً أهلته أن يتكلمَ فى أدقِّ المســـائلِ العسكريةِ، كما لمسنا -فى كتابه- إلى ولى العهـــد حـــين توجـــه لقتـــال الخوارج.

مصادر ثقافته:

لعلَّ المتأملَ فى ثقافاتِ عبدِ الحميد يستطيعُ القول: بأن منابعهـــا أو روافدها قد تعددت؛ لكنها كونت -من أمشاجها على الجملة- شخصية أدبيةً متميزةً.. هذا ويمكننا حصر **هذه الروافدِ** فى:

١- اطلاعه على الآدابِ العربيةِ القديمةِ، وبخاصة خطبُ الإمام علـــى رضى الله عنه، فقد سئل ذات يوم: ما الذى خرجك فى البلاغـــة؟ فقال: حفظى لكلامِ الأصلعِ "يعنى علياً رَضيَ الله عنهُ"

٢- ثقافته الفارسية، فقد كان عبد الحميد فارسياً مثقفاً يجيـــدُ اللغـــةَ الفارسية، ويلم بالأدبِ الفارسي، ويعرفُ عاداتِ أدباء الفرسِ مـــن ميلٍ إلى التفخيمِ، والإطنابِ وتخيرِ العباراتِ.

٣- يُعْتَقَد أنه اطلع على الثقافةِ اليونانيةِ عن طريق اتصاله ومصاهرته لسالم بن عبد الله كاتب هشام بن عبد الملك الذى كانَ يتقنُ اليونانية.

٤- مخالطته للعلماءِ الفضلاءِ من العرب؛ لأنه قضى مرحلةَ صباه فى الكوفةِ التي كانت –فى ذلك الحين– مركزاً مهماً من مراكزِ الثقافةِ والأدب.

٥- اتصاله بالخلفاءِ وَسَّعَ من مداركه، وجعله يطَّلِعُ بالتجربةِ على الكثيرِ من أحوالِ الناسِ وتجاربهم، ثم لما علا شأنهُ عندَ الخلفاءِ أتاحَ له ذلك فرصة التدربِ والمرانِ على أنواعٍ مختلفةٍ من الرسائلِ فى شتى شئونِ الدولةِ.

منزلته الأدبية:

كان عبدُ الحميد أبلغَ كتابِ الدواوين فى العصرِ الأمويّ، وأشهرهم. فقد ضُرِبتْ ببلاغته الأمثالُ. فقيل: فتحت الرسائلُ بعبد الحميد، وختمت بابن العميد[1] ويقول ابن النديم: "عنه أخذ المترسلون، ولطريقته لزموا، وهو

---

(١) راجع: يتيمة الدهر للثعالبي ١٣٧/٣، وانظر: أمراء البيان صـ١٩، صـ ٣٦.

ابن العميد واحد ممن لحقوا بديوان البويهيين، وكان أبوه قد خدم فى ركن الدولة الحسن بن بويه صاحب الرّى، وقد تقلد ديوان الرسائل، ولقّب بالشيخ كما لقب بالعميد، محمد بن الحسن المعروف بابن العميد وبالأستاذ

الذى سهلَ سبلَ البلاغةِ فى الترسل[1] وذكر ابنُ عبدِ ربه أنه أولُ من فتق أكمام البلاغة وسهل طرقها، وفكّ رقاب الشعر[2] وزعم المسعودي أنه أولُ من أطالَ الرسائلَ، واستعمل التحميدات فى فصول الكتب، واستعمل النـــاس ذلك بعده[3].

وذكر الدكتور شوقي ضيف "أنه كان زعيمَ البلغاءِ فى عصره، غيرَ مدافعٍ، وقد بقيت منشوراتٌ من رسائله تشهدُ بفصاحته ولسنه، ومقدرتـــه على التعبيرِ، والبيان مع الفخامة والطلاوة[4].

والرئيس، ينتمى إلى أصل فارسي من مدينة "قم"، وهى مدينة شيعية حيث ==

= تشيع على مذاهب الإمامية، واشتهر بالعلم والأدب؛ لأنه نشأ فى بيت علـــم وكتابة، فكان عالماً فى الفقه والتفسير والمنطق والفلسفة؛ وصار وزيراً لـــركن الدولة بن بويه، ثم عضد الدولة بن بويه.... ساعد فى تأسيس الدولة البويهية فى فارس والعراق، وعرف بحسن الرأى والتدبير، يقدر الأدبـــاء، ويعـــد آخـــر الأدباء المجيدين فى العصر العباسي حتى قيل: بـــدئت الكتابـــة بعبـــد الحميـــد، وختمت بابن العميد. راجع: كتابنا: دراسات فى النثر العباسى طـــ١ صـــ١٣٢، وما بعدها.

(١) راجع: الفهرست" صـــ١٧٠..

(٢) راجع: "العقد الفريد" ٤/٢١٩.

(٣) راجع: مروج الذهب" ٣/٢٦٣.

(٤) راجع: الفن ومذاهبه فى النثر العربى" صـــ١١٥.

إن إجماع الكثيرين على أنه أولُ من استخدمَ التحميداتِ فى فصول الكتب، يجعلنا نعتقدُ أنه تأثرَ فى ذلك بتحميدات واصل[1] وغيره من الوعاظ، وقد احتفظ كتابُ المنظومِ والمنثورِ لابن طيفور بطائفةٍ منها لا تقل كمًّا، ولا كيفاً عن تحميدِ واصل فى أولِ خطبته المنزوعة الراء. ولا تلفتنا عند عبد الحميد براعته الأدبية فى صنع رسائله فحسب، وإنما يلفتنا أيضاً أنه تحولَ بطائفة منها إلى رسائلَ أدبيةٍ بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، محاكياً فى ذلك ما كان يعرفه من رسائلِ الفرسِ الأدبيةِ التى أثرت على الساسابنين والتى يقال إنه كان أحد من نقلها إلى العربية[2] وليس معنى ذلك أنه وقف عند النقل والترجمة، فقد مضى يحاكي هذه الرسائل لا محاكاةً طبقَ الأصلِ، وإنما هذه المحاكاةُ التى تنتهى إلى التمثلِ وصنع الأعمالِ الأدبيةِ المبتكرةِ.

---

(١) هو كبير المعتولة حيث اعتزل مجلس أبى الحسن البصرى على أثره خلاف دار بينهما حول مرتكب الصغيرة والكبيرة.

(٢) راجع: الصناعتين" صـ٦٩ والبيان والتبيين ٣/ ٢٩.

ثانياً: الرسالة شرحاً وتعليقاً:

يقول عبد الحميد: "أما[١] بعد" حفظكم الله يا أهــل صــناعة[٢] الكتابة، وحاطكم[٣] ووفقكم أرشدكم. لقد جعلكم اللهُ يا مشعرَ[٤] الكتابَ فى أشرفِ الجهات، أهل الأدب والمروءات والعلم والرزانــة[٥]، بكــم تنتظمُ للخلافة محاسنُها وتســتقيمُ أمورُهــا، وبنصــاحكم يصــلحُ الله للخلقِ[٦] سلطانهم، ويعمر بُلدانهم، لا يستغنى الملكُ عنكم، فمــوقعكم

المعانى:

(١) أما: أداة شرط وتفصيل وتوكيد.

(٢) صناعة: مهنة، والمراد مهنة الكتاب

(٣) حاطكم: رعاكم

(٤) معشر: أهل وجماعة

(٥) الرزانة: الوقار.

(٦) سلطانهم: حجتهم وقدرتهم

الشرح:

يدعو الكاتبُ للكتاب بدوام الرعاية والتوفيق والرشاد والهديةِ، ويبينُ لهــم أن الكتابة تعدُّ من أشرفِ المهن وأعلاها منزلةً، ووصفهم بــالأدب والمــروءة والعقل والتأني والوقار فشأنهم -على هذا النحو- عظيم، وعزائهم قوية لا تلين أو تضعف...؛ لذا فلقد أصبحوا طبقةً بارزةً فــى حيــاة الدولــةِ، ووظائفهــا،=

منهم موقع أسماعهم التي بها يسمعون، وأبصارِهم التى بها يبصرون، وألسنتهم التى بها ينطقون.

وليس أحدٌ من أهلِ الصناعاتِ كُلِّها أحوج على اجتمــاعِ خـــلالِ الخيرِ منكم: فإنَّ الكاتبَ يحتاج أن يكونَ حليماً[1] فى موضـــع الحلـــم فهيماً فى موضع الفهم، مقداماً فى موضع الإقدامِ، محجاماً فى موضع الإحجام[2]، ليناً[3] فى موضعِ اللينِ، شديداً فى موضعِ الشدةِ، مـــؤثراً للعفاف[4] والعدل والإنصاف، كتوماً[5] للأسرار، وفياً عند الشدائد.

= وأعمالها المتنوعة، بهم ينتظم الملكُ، وبتدبيرهم وحسن تصريفهم وسياستهم يستقيم الحكم.

وينصحهم أن يتحلوا بخلالِ الحيزِ، وخصال الفضلِ؛ لأنه لا يستغنى عنهم أحد فموقعكم منهم موقع أسماعهم التى بها يسمعون، وأبصـــارهم التـــى بهـــا يبصرون، وألسنتهم التى بها ينطقون.

المعانى:

(١) الحلم: الأناة والعقل، وجمعه أحلام وحلوم، هذا وجاء الحلم بمعنى نقيض.

(٢) الإحجام: الكف والنكوص هيبة.

(٣) ليناً: رفقاً وتلطفاً.

(٤) العفاف: النزاهة

(٥) كتوما: كثير التكتم على الأسرار =

فتنافسوا يا معشرَ الكتابِ فى صـنوفِ الآدابِ، وتفقهـوا فـى الدينِ، وأبدءوا بعلمِ كتابِ عزَّ وجلَّ والفرائضِ، ثم العربيةِ فإنها ثقافُ ألسنتكم، ثم أجيدوا الخطَّ فإنه حليةُ كتبكم، وأرووا الأشعار، وأعرفـوا غريبها ومعانيها، وأيامَ العربِ والعجم وأحاديثها وسيرها، فـإن ذلـك معينٌ لكم على ما تسمو إليه هممُكم، ولا تضيعوا النظرَ فى الحسـابِ،

=الشرح:

يضع الكاتب شروطاً من الواجبِ توافرها لدى الكاتب حتى تجتمع لديـه الفضائلُ والخيرُ العميم نذكرُ منها:

أولاً: يجب أن يكون الكاتب عاقلاً متأنياً حتى ينأى به عقله عن السفة أو الشطط بتجاوز الحد...

ثانياً: يجب أن يقدر الموافق فيجئ ردُّ فعله أو تصرفه على حسبِ مـا يتطلبـه الموقفُ حيثُ يكونُ شديدَ الفهمِ والإدراكِ والاستيعاب فى المواقـف التـى تتطلبُ إعمالَ العقل، فينسلح بالجراءة والشجاعة فى موقـف المخـاطرة، ويتسم برباطه الجأش.

ثالثاً: يجبُ أن يكونَ رقيقاً لطيفاً فى مواقف الملاطفة والموادعةِ، حازمـاً فـى المواقف التى تسترى الحزم.

رابعاً: يجب أن يتسمَ بالنزاهة والعفةِ والاعتدال فى الرأى.

خامساً: يجب أن يكون أميناً حريصاً على عدم إفشاء الأسرار، شديد الإخلاص لا يدخر وسعاً أو طاقة وقت الشدة.

فإنه قوامُ كتابِ الخراجِ. ونزاهوا صناعتكم عن السعايةِ والنميمةِ، وما فيه أهل الدناءةِ والجهالةِ، وإياكم والكبرَ والسخفَ والعظمةَ، وتحـابوا فى الله عز وجلَّ فى صِناعتكم، وتواصلُوا عليها، فإنهـا شـيمةُ أهـلِ الفضلِ. وإذا وُلّى الرجل منكم، فليراقبْ الله تعالى، وليـؤثرْ طاعتـه، وليكنْ على الضعيفِ رفيقاً، منصفاً، فإن الخلقَ عيالُ الله، وأحبهم إليه أرفقهمُ بعياله[1].

---

(١) **المعانى**:

تنافسوا: تسابقوا صنوف: ألوان تقفهوا: تفهموا وتجروا

الفرائض: جمع فريضة وهو ما فرضه الله من الحـدود والعبـادات والمواريـة وغيرها.

العربية: اللغة العربية ومفرداتها وقواعدها؛ لأنها وسيلة لفهم القرآن والسـنة النبوية المطهرة.

أجيدوا: أحسنوا واتقنوا.

الخط: الكتابة ، حيلة: زينة والجمع حلّى

قوام: عماد الشعابة: التطفل وفرض النفس على الغير.

شيمة: طبع

الشرح:

يحث الكاتبُ الكتابَ الذين ينبوؤن المكانةَ الرفيعةَ في الأمةِ على ضـرورة التمسكِ بعواملَ تعينهم على التفوقِ والفلاح فى تأدية رسالتهم منها: =

تولانا الله وإياكم يا معشرَ الطلبةِ والكتبةِ بما يتولى به السعداء، فإن ذلك إليه وبيده. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ثالثاً: الرسالة تحليلاً ونقداً:

ما من شكٍّ فى أن الكتابةَ الفنيةَ في عصر بني أميةَ قد ازدهرت وارتقت رقيّاً عظيماً وسطَ ظروف متشابكةٍ أو متداخلةٍ، إذ جدت فى هذا العصرِ مشكلات كثيرةٌ، وقد تعقدت من أطرافها الماديةِ والسياسيةِ والعقليةِ والاجتماعية، ولعل هذا راجعٌ لجملة عواملَ منها:

تحضر العرب إذ اخذوا يستعيرون كثيراً من النظم الأجنبيةِ والثقافاتِ المتعددة لدى الأمم المفتوحة..**هذا أولاً:**

= أولاً: ينصحهم بتحصيل العلوم والمعارف والآداب تحصيلاً يرتقى بعقولهم، ويسمو بنفوسهم.

ثانياً: ينصحهم بمعرفة التفقه فى الدين والبدء بحفظ كتاب الله حفظاً وفهماً.

ثالثاً: ينصحهم بمعرفة الحدود والعبادات والمواريث وغيرها ليعلموا بها ويساعدوا فى تنفيذها؛ وليتقنوا العربية؛ ليحسنوا التعبير.

رابعاً: يحثهم على ضرورة تحسين الخطِّ؛ لأنه عنوان صاحبه وزينة للكتاب.

خامساً: ينصحهم بالترفع عن المطامع والزهد فى المال والمناصب حفاظاً على كرامتهم و صيانة لشرفهم؛ فإنهم إن فعلوا ذلك تحقق لهم النجاح.

سادساً: يوجههم إلى طاعة الله وضرورة التحابب والقوادر حتى يتحقق لهم الفلاح فى أداء رسالتهم.

ثانياً: فإن ديوان الرسائل[1] الذى أنشى في أيام معاوية بن سفيان قد تطورَ تطوراً عظيماً، وكان من ثماره أن انتشرَ فى الولاياتِ المختلفةِ هذا ولم يتوقف الديوان على العرب بل نافسهم فيه الأعاجمُ الذين تعلموا العربيةَ وأتقنوها، واستطاعوا التعبيرَ عنها تعبيراً فصيحاً، وقد اتسمَ بالبلاغةِ الفائقةِ..

على كلٍّ فإن الرسالةَ تعدُّ دستوراً واسعَ الحضورِ، عالي المقامِ، وذلك للكتَّابِ حيث يصورُ حياتهم الخلقيةَ والثقافيةَ وأنماطهم أو توجهاتهم الفكرية والسياسية...

هذا ولقد تعددت محاورُ الرسالةِ ما بين فكريةٍ وخلقيةٍ وفنيةٍ، هذا وسنعرض لكلٍّ واحدٍ حتى نعرفَ الدورَ الذى قامَ به حتى جاءت الرسالةُ مُمَثِّلةً قيمةً جماليةً وذلك فى مضمارِ النثرِ الأموى.

أولاً: المحور الفكرى:

لعل الناظر -بعينِ التأملِ والتمحص- فى هذه الرسالةِ يرى أنها لم تجئ تنفيساً عن ملكة حائرة جامحةٍ، أو رصداً لخواطرَ غيرِ معنونةٍ أو حصراً لأفكار شاردة من عقالها، لكنها حملت -بينَ أطوائها- الكثيرَ من القيمِ المنطقيةِ الهادئةِ، وقد تمَّ تأطيرُها فى محورها الفكرى الذى كان له بالغُ الأثرِ، وأكبرُ النفعِ فى رحلة الكتابةِ الفنيةِ وتأصيلها وإعطائها سمتها

---

(١) كان رئيس هذا الديوان مولى له يسمى سالماً.

الأدبى، لذا فلقد أثبت عبد الحميد أن الكتابةَ الفنيةَ ليست بالعبث الذى لا طائلَ من ورائه غيرُ مضيعةِ الوقت حيثُ أكدَ على مدى خطورتها، وإدراك دورها البالغِ الحساسيةِ فى العملية الاجتماعية وكذلك أثرها الفاعل على المثلث الوضعى وقاعدته الدولة وضلعاها الحكومة[1] -الخلافة- والشعب الموكل بالامتثال التام حيثُ أكد أن الكتَّابَ هم نبضُ الشعبِ الذى يصل إلى الحكومةِ بصرف النظر أن يكون مسموعا، أو غير مسموعٍ.

تأسيساً على ما ذهبَ إليه عبدُ الحميد فإنهم يمثلون طبقةً ممتازة فى حياةِ الدولةِ ووظائفها، وطرائقها الإدارية، هذا ولقد دلل على ما سبق بقوله -إن بأيديهم مقاليد الأمور- وخصوصاً تدبيرَ الملك، وحسن تصريفه، وقد بالغَ من حساسية هذا الدورِ بان عول عليهم استقامة الملك والحكم.. وعليه فإن عبد الحميد بوعيه العالى ونظرة الثاقب استوعبَ الكثيرَ من المسائلِ الإداريةِ وأدرك أن صيغةَ الكتابةِ - فى حاق معناها- تكونُ أشبه ببوصلةِ النجاحِ والفلاح التى تأخذُ بالمجتمع نحو الكمال والرقى والازدهار....

من هذا المنطلق نراه يسنّ شروطاً أوجب ضرورة أن يتمسكَ بها الكاتبُ، حتى تجتمع -لديه- الفضائلُ والخيرُ العميمُ حيثُ أكدَ على ضرورةِ مراعاتها حتى تستقيم الأمورُ، وتستقر الأحوال.

---

(١) لعلي أقصد بالحكومة هنا الخليفة والأمير...

هذا ولم يفتنْه توجيه الكتَّابِ إلى عواملَ تعينهم على التفــوقِ فـــى تأديةِ رسالتهم حتى يتحققَ لهذا الفنِّ ما تصبو إليه نفوسُ مريديه ومتلقيه، وخصوصاً تحصيلَ العلومِ والمعارفِ والآداب والتفقه فى الدين، وتحســـين الخطِّ؛ لأنه فى نظر القلقشندي أفضل من اللفظ؛ لأن اللفظ يفهــم الحاضـــر فقط، والخط يفهم الحاضر والغائب[1]" كذلك فقد دعا إلى الترفعِ عن مطامعِ الدنيا.

والكاتبُ من خلال عرضه لهذا المحورِ يدرك تماماً مدى الخطــورةِ الناجمة عن سوءِ إدارة الكتابة الفنية... فهى أشبهُ بجهازٍ إعلاميٍّ حاليـــاً بكل تقنياته ومرجعياته حيث إنه يوجه العقولَ ويشكلها ويصوغها ويخرجها حسبما يريد هو.

على الجانب الآخر فإنه ذو رؤى مستقبليةٍ، واسعة الآماد حيثُ يبرزُ هذا بوضوح عندما يطلب من الكتابِ أن يؤلفوا بينهم ما يشبه النقابة فـــى عصرنا- على حدِّ تعبير شوقى ضيف[2] حيثُ خضهم على الأخذِ بيد مـــن ينبو به الزمان منهم ومساعدته، حتى يعود إلى ما كان عليه من الرفاهية فى العيش.

---

(١) راجع: صبح الأعشى ح٣ صـــ٣.

(٢) راجع: العصر الإسلامي صـــ٤٧٥.

ثانياً: المحور الأخلاقي:

يظهرُ هذا المحورُ -بكل أطيافه وتداعياته وأنماطه التعبيريـــةِ مـــن خلال عدة توصياتٍ حتى يضعَ الكتابَ فى منزلةٍ رفيعةٍ تسمو بهم إلى أعلى الدرجات وأسمى المنازلِ.

على كلٍّ فلقد وضعَ للكتابة آداباً يجبُ ابتاعها حتى تنضبطَ الأمـــور وتحدد بحدودِ الكماليةِ من هذه التوجيهات التـــى تحملهـــا الرســـالةُ بـــينَ تضاعيفها نذكرُ:

أولاً: أشارت الرسالةُ إلى ما يجبُ أن يتحلوا به من أدبٍ ومروءةٍ ورزانـــةٍ ووقارٍ؛ لأن شأنهم عظيمٌ، وعزائمهم قويةٌ لا تلينُ.. هذا ولقد علـــلَ ودللَ على ما سبق بأنهم أصحابُ النماذجِ العليا التـــى ينظـــرُ إليهـــا نظرةَ التسجيلِ والتقدير" فهم قدوةٌ يجبُ أن يحتذى بها فـــى شـــتى مناحى الحياة.

ثانياً: رسخت الرسالةُ مبادئ تعاملية -وقد وجهـــت إليهـــا الأنظـــارَ فـــى تساوقيةٍ، وهي مطابقةُ الكلامِ لمقتضى أو لمراعـــاة الحـــالِ فـــالحلم والفهم والإقدام والإحجام واللين والشدة كل فى يكون موضعه....... فالحلم يطلب وقت التجهمِ والعبوسِ، والفهمُ وقتما يتطلبُ الموقـــف وعياً وإدراكاً للأمور والإقدام عندما يتطلب الموقفُ ذلـــك، وكـــذلك الإحجام.

ثالثاً: أكدت الرسالة على وجوب التحلى بالعفةِ والعدلِ والإنصافِ وحفظ الأسرار والوفاء؛ لأن هذه المفرداتِ أو المعانيَ الجليلةَ تجعل من الكاتب قاضياً ولا سيما بين الحكومة والشعب أى ناقلاً أميناً للقضايا متمثلاً بالتجرد والحياد والموضوعية فلا إفراط ولا تفريط ولا نفاق ولا شقاق ولا خلافَ أو حلافَ ولا مبالغات أو مساومات.

رابعاً: حذرت الرسالة من الدناءةِ والجهالةِ والكبرِ والعظمةِ والنميمةِ والوشاية وذلك؛ لأن الدناءةَ تسقطُ الكثيرَ من هيبة صاحبها وتذهب بمعالم شخصيته، والجهالةُ تكلفه الكثيرَ بأن تجلبَ له العداءات، والكبر والعظمة يجعلان على عينه ساتراً لا يرى حتى نفسه، وبالتالى تخفى عليه عيوبه، وهنا ينفرُ منه المجتمعُ. والسعاية والوشاية يجعلان منه منافقاً، يبث الفرقةَ والخلافَ وإثارة الفتن بين الناس، وبالتالى ينزلُ بالأمورِ إلى درك المسألة، إنه وفى ظل هذه المعايبِ يؤكد الكاتب بأنها ليست من فضائلَ أو شيمَ أهلِ الكتابة ضمير المجتمع ولسانه الفصيح.

خامساً: دعت الرسالةُ إلى وجوبِ تمثلِ الكتاب بالحبِّ والمودة، وأن يراقبوا الله سبحانه وتعالى فى السرِّ والعلانيةِ-وهنا يظهر- بجلاءٍ- التأكيدُ على صحوة الضميرِ، وإلحاحه مراقباً وموجهاً لكلِّ عملِ من الأعمالِ...

سادساً: وجهت الرسالة إلى مؤازرةِ المظلومِ، والوقوف معه حتى يسـترِدَ حقه الذى سُلِبَ منه بالقوة، وكذلك معاملة الضعيف برفـقٍ حتـى يستشعر الأمنَ والأمانَ، وبالتالى يتحققُ لـه الحـدُّ النسـبى مـن السعادةِ والراحةِ...

سابعاً: أكدت الدراسةُ على الأخلاقِ، قـوامِ الأمـور وشـريانِ الاسـتقامةِ ودستورِ الحياة حتى يستطيعَ الناسُ أن يعيشوا سعداءَ آمناءَ.

والكاتب -من خلال هذا المحورِ- يرسخ قيماً وعـاداتٍ وأعـرافَ ينبغى مراعاتها، والتمسكُ بها؛ حتى يظلَّ قلمُ الكاتبِ الميزانَ الذى توزنُ به القضايا........... هذا على جانبٍ.

على الجانب الآخر فلقد وضحت ثقافة الكاتب الإسلامية العميقة من خلال ما أصطبغت به الرسالةُ من صبغةٍ إسلاميةٍ واضحةٍ.

أخيراً: المحور الفنى:

إننا عندما ننظر للرسالةِ من منظورٍ فنىٍّ نجدُ أن الكاتبِ من خـلال امتلاكه لمخزونة الجمالي الولاجِ -استطاعَ أن يقدم عـدة صـياغاتٍ ذات إيقاعات ودلالات اتشت بالدقة والمعيارية به وغاية، الإبداعيةِ لاسيما تنوعُ خطوطهِ ما بين موسيقية حيث ظهرت بوضوح في:

الأزدواجِ الحاصلِ بين الجمل المتفقة سجعاً ووزناً

مثل: مقدمة واحداتٍ موسيقية متجاوبةً

حليمـــاً فـــي موضـــع الحلـــم   فهيمـــاً فـــى موضـــع الفهـــم

//ه/ه   /ه   /ه//ه   /ه/ه   //ه/ه   /ه   /ه//ه   /ه/ه

أيضاً:

مقـــداماً فـــى موضـــع الإقـــدامِ   محجاماً فـــى موضـــع الإحجـــام

/ه/ه/ه /ه   /ه//ه   /ه/ه/ه   /ه/ه/ه /ه   /ه//ه   /ه/ه/ه

فا فا فا فاعلن فا فا فا   فا فا فا فا فاعلن فا فا فا

فضلاً عن هذا فإنها تحملُ بين طياتها -مقابلات تزيدُ المعنى جمالاً ووضوحاً كذلك فإننا نلخطُ السجعَ الخـــالي مـــن التكلـــفِ والتكـــرارِ مثـــل "الجهات- المروءات، الرزانة - الخلافة، بلـــدانهم - ســـلطانهم) وهـــذاك "الحلم- الفهم، الإقدام - الإفهام، الكتـــاب - الآداب" وكـــذلك "يســـمعون - يبصرون- ينطقون"

ونجد التجنيس اللفظى والاشتقاقي فى "مقدام - الإقـــدام- حجـــام، الإحجام، شديد- الشدة"

فالناظر -فيما سبق- يرى أن الكاتبَ قد هـــدف مـــن مجـــئ هـــذه المحسنات اللفظية إلى إثارة ذهن السامع، للانتباه إليه، وسماع ما يريـــده المتكلمُ عن طريق تقديمِ نغمةٍ موسيقيةٍ جميلةٍ.

والواقع أن جملةَ التشكيلاتِ الموسيقيةِ ذات الإيقاعـــاتِ الراقصـــةِ تؤدى دوراً بالغَ التأثير النفسي على الكتـــابِ الـــذين يعرفـــون مكنونهـــا، ويهزجون لجرسها.

عوداً فإن تنوعَ الأساليب ما بين: طلبيةٍ، لعبت دوراً كبيــراً علـــى المستويين الصياغي والدلالي فى عدة تشكيلاتٍ طليعة ما بين نداءٍ فى "يـــا معشر الكتاب" حيثُ يظهرُ احترامُه الفـــائق وتبجيلـــه لهـــم، وتعظـــيمهم، ويواصلُ الرغبة فى الإعراب عن تقديرهم وتشريفهم وتعظيمهم من خـــلالِ إضافتهم "الكتاب إلى "معشر" ؛ليؤكد مدى تواحدهم على الكلمـــةِ والهـــدفِ ورحلةِ المصيرِ.

ثم يقدم لنا أساليبَ أمرٍ سواءً بالفعل الآمر فى "تنافسوا، تفقهـــوا، ابدعوا، أجيدوا أعرفوا، أرووا، تجاوبوا – ترهوا– تواصلوا"

أو بلام الأمر؛ ليدل على الطلبِ الواجبِ التحقيق فى "ليراقبْ– ليؤثرْ – ليكنْ" ثم حركية النهى الملزم بوجوبٍ أو تنفيـــذِ هـــذا الابتعـــادِ فـــى "لا تضيعوا" والتحذير الشديدِ اللهجةِ، العـــالي النبـــرةِ فـــى إيـــاك –الكبـــر– العظمة..."

وكلُّ هذهِ الأساليبِ الطلبيةِ–جاءت وعياً وإدراكاً منه لمدى أهميـــةِ الكتابة والكتاب فكان النصحُ والحثُّ والإرشادُ والتوجيهُ السديدُ المبنى على تجربةٍ صادقةٍ هو السبيل إلى التوصيل.

وننتقلُ إلى أساليب القصرِ وخصوصاً المُصدر فيها بضمير المخاطب فى "أنتم أهل الأدب" حيث عرفَ المبتدأ والخبر لتخصيص هـــذه الصـــفاتِ بهم، وقد جمع لهم خير الصفاتِ؛ بما يدل على تعظيمه لهم، وكذلك فى "بكم

ينتظم الملك" بتقديم الجار والمجرور "بكم" على الفعل "ينتظم" لإفادة التخصيصِ وتحديدِ المسئوليةِ؛ لأن الملك لن ينتظم إلا بهم، أيضاً تقديم الجار والمجرور "بها" على الفعل في كلِّ جملةٍ في "يسمعون-يبصرون-ينطقون" للقصر والتحديد فالملوك لا يسمعون ولا يبصرون ولا ينطقون إلا عن طريقِ الكتابِ وحدهم دونَ غيرِهم.

وخبرية وخصوصاً المؤكدة:

بـ "لقد" في "لقد جعلكم" وإن في "إن الكتاب- فإنها ثقاف – فإنه حلية- فإن ذلك- فإنه تراجع فإنها –فإن الخلق"

وكل هذا عملَ على تأكيد المعنى، وتقويته وتوضيحه بدافع ترسيخه مبدأ وعرفاً يجبُ اتباعه. ولما نذهب إلى المعانى، وكيف تعامل معها فإنه دائم التناسب أو المزاوجة ما بين من المقامِ والحالِ، فما لا يحتاج إلى استطالةِ راحَ يوجز فيه مثلُ "كتوماً للأسرار- وفيه للشدائد جاء بها حيثُ إن "كتوماً- وفياً يحملان العديدَ من المعاني، هذا بالإضافة إلى كونها صيغَ مبالغةٍ تدلُّ على كثرةِ حدوثِ الفعلِ هنا، وكذلك "العربيةَ- لا تضيعوا النظر في الحساب"

حيثُ إن العربيةَ والحسابَ يحملان معانيَ كثيرةً، تنطوى على تفلسفِ المصطلح وروعته وتنظرُ للمساواةِ في "حليماً في موضع الحلمِ، فهيماً في موضع الفهم) (مقداماً في موضع الإقدام محجاماً، في موضع الأحجام "حيثُ تساوت المعانى مع الألفاظِ في تساوقيةٍ ذات استشراقيةٍ وإن

كنا نلاحظ كثرةَ إيراد صيغِ المبالغةِ فى "حليماً – فهيماً – مقداماً – محجاماً" للإيجاز والمبالغة، هذا وقد اختفى الإطناب هنا؛ لأنه لا يخاطب غافلين وإنما عقلاء أصحابُ فكرٍ، ورأى سديدٍ يعرفون ما يقول، ولا يحتاجون إلى أدنى مساعداتٍ تعينهم على الفهمِ والإيضاحِ.

ونذهب للصورة فنرى أنه قلل من إيرادها؛ لأن المخاطبين ليسوا فى حاجةٍ إلى تقريب المعنى عن طريقها، فهم أصحابُ مهنةٍ واحدةٍ يعرفون لغةُ التخاطب؛ لذا رأينا أربعةَ صور

الأولى فى (فإنه حلية كتبكم)

حيثُ قدمَ استعارةً تصريحيةً، وقد حذفَ المشبه هنا، وهو "الخط" وصرحَ بالمشبه به هنا وهو "الحلية" أى الزينة، وسرُ الجمالِ التجسيمُ للإيحاء بمدى أو أثر جمال الخطِ وانعكاسه على النفوسِ.

الثانية: لا تضيعوا النظر فى الحساب:

حيثُ قدمَ استعارةً مكنيةً تخيلَ النظر فيها شيئاً مادياً يُضَيَّعُ فحذف المشبه به وجاء بصفةٍ من صفاته وهى الضياعُ فى صورته المادية، وسر الجمال التجسيم للإيحاء بالرغبة فى التدقيقِ والتركيزِ فيما هو نافع.

الثالثة: في (تسمو هممكم)

حيث قدمَّ استعارةً مكنيةً تخيل لهم" إنساناً يرتفع ويحلق، وسر الجمالِ التشخيصُ والإيحاءُ بسمو ورفعةِ منزلتهم.

الرابعة: فى "تزهوا صناعتكم" وهى استعارةٌ مكنيةٌ تخيلَ "الصناعةَ" إنساناً يتسم بالنزاهةِ والحيادية والشفافية؛ حيث حــذف المشــبه بــه ذاك الإنسان، وجاء بصفةٍ من صفاته وهى "النزاهة، وسرُّ الجمالِ التشــخيصِ هنا.

والواضح أن الكاتب نوعَ بين استعاراته علــى ســبيل التشــويق، والجاذبيةِ فضلاً عن إبرازِ مهاراته الفنيةِ التى تحلى بها.

ثم ننظر إلى الحروف وخصوصاً العطف فنجدُها استطاعت أن تقدمَ مداليلها من خلال نظامها الصياغي.

فمثلاً نجدُ الواو كُررت ما يربو عن ثلاثين مرةً، مستخدمةً الغرض الجمع والمشاركة حيث إنه لما ذهب؛ ليحصيَ صفاتِ الكتابِ والفضائل التى تميزوا بها عدد الواو.

فقال: أهل الأدب و المروءات و العلم و الزراعــة، بكــم.... و تستقيم... و بنصائحكم، .... و يعمر... و أبصارهم..... و ألسنتهم.

ولما راح يعدد العوامل التى تضمنُ لهم التفوق نجده يستخدمُ الواو للجمع والمشــاركة والإحصــاء فــى و تفقهــوا......و ابــدعوا...و... و ارووا...... و أعرفـــوا ...... و أيــــام....... و العجـــم...... و أحاديثها.... وسيرها.

وكذلك فإنه لما حذرهم من جملةِ "الرزائلِ" راح يستخدمُ الواو فقــال (و إياكم و الكبر و الشرف و العظمة)

والناظرُ إلى دورَ الواوِ العاطفة فإنها قدمت قيمتهـــا الإحصـــائيةَ أو الجمعيةَ لمجموعَ الفضائلِ والرذائلِ فأدت دورها الـــدلالي وفـــقَ نظامهـــا الصياغيِّ، وقد أعانت الكاتبَ على الإيصالِ.

ننتقل إلى "ثم" التى أحسنَ الكاتبُ استخدامَها وفقَ نظامها الصياغى، وقد جاءت دالةً على الترتيبِ والتراخى... ثم العربية ثم أجيدوا الخط.

حيثُ تظهرُ مدى أهميةِ فهمِ كتابِ اللهِ، والفرائض أولاً، ثم الإلمـــام بعلومِ العربيةِ، ثم إجادةِ الخطِ، وننظر إلى الفاء فإنها استخدمت أكثر مـــن مستوى صياغى منها السببية فى:

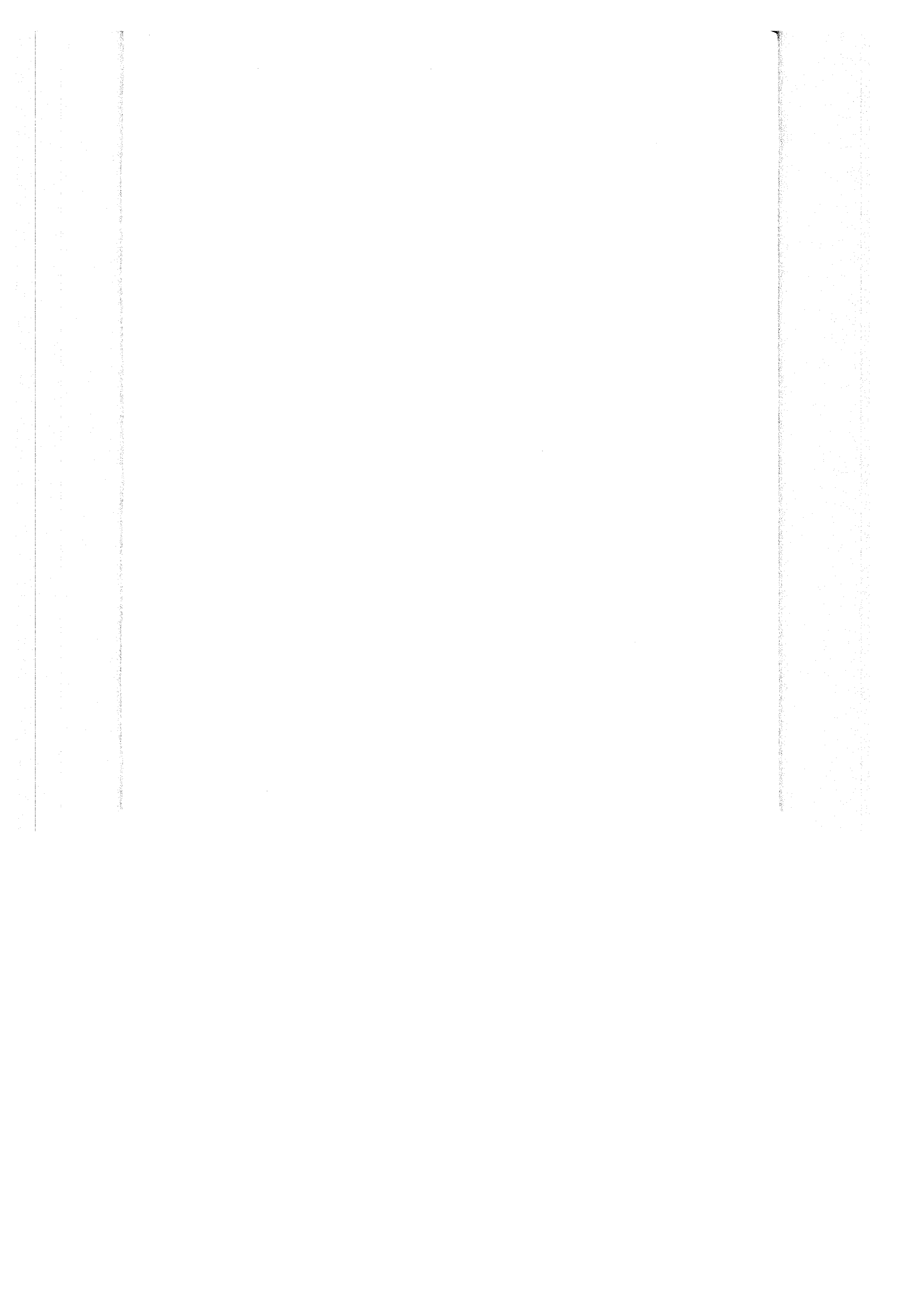
(فإنها ثقاف..... فإنه...... فإن.....ذلك... فإنه قوام فإنها شيمة.

والواقعة فى جوابِ الشرط للجزاء فى "فليراقب"

والواضح أن الكاتبَ هنا قد ظهرت عنايته الفائقةُ بالألفاظِ من خلالِ الإتيانِ بالسجعِ الجميلِ غيرِ المتكلفِ، وكل هذا يكشـــفُ عـــن قوتـــه فـــى الوصفِ، وحبهِ للتصويرِ ومقدرته على إبرازِ الموصوفِ فى أجملِ صورةٍ، كما تبينَ -أيضاً- حبه للإيجاز مثل قولهَ: "وليوجز فى ابتدائـــه وجوابـــه، وليأخذْ بمجامعِ حججه، فإن ذلك مصلحةٌ لفعلـــه ومدفعـــةٌ للتشـــاغلِ عـــن إكثاره".

على كلٍّ فإن هذا النصَّ النثريَّ استطاعَ أن يبرهنَ علـــى مقدرتـــه الفنية لمهنةِ الكتابةِ تلك التى جعلت النقاد يؤكدون على أن البداية الحقيقيةَ قد وقفت على يديه.

ساقط من اصل المصدر



قائمة بأهم المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

أ) القرآن الكريم: والسنة النبوية المطهرة، سنن أبى داود ط ٢، دار الكتب العلمية بيروت.

(ب)

١- الأصفهاني: الأغاني، دار الشعب بدون

٢- ابن الانباري: شرح القصائد السبع الطوال الجاهليـــات، ط٥، بتحقيـــق عبد السلام هارون، دار المعارف بمصر سنة، ١٩٦٧م.

٣- البغدادى: خزانة الأدب، طبعة بولاق، بدون.

٤- الجاحظ: البيان والتبيين، ط٣ تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، سنة، ١٩٦٥م.

٥- ابن حزم الأندلسي: جمهرة أنساب العرب ط٤ دار المعارف بمصر سنة، ١٩٧١م.

٦- حسان بن ثابت: ديوانه، دار صادر بيروت

٧- ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، القاهرة- ١٩٥٠م.

٨- ابن دريد: الاشتقاق تحقيق وشرح عبد السلام هارون، ط مطبعة السنة المحمدية، ١٩٥٨م.

٩- ابن سلام الجمحى: طبقات فحول الشعراء قراءة وشرح محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة، سنة ١٩٧٤م.

١٠- ابن عبد ربه الأندلسى: العقد الفريد تحقيق، أحمد أمـــين وآخــرين، القاهرة- ١٩٦٥م.

١١- ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ط٢، تحقيق أحمـــد محمـــد شـــاكر دار الحديث، القاهرة سنة ١٩٩٠م.

١٢- القلقشندى: صبح الأعشى، وصناعة الإنشا ط دار صـــادر بيـــروت، سنة ١٩٩٢م.

١٣- المسعودي: مروج الذهب ومعـــادن الجـــوهر، المكتبـــة العصـــرية، بيروت، سنة ١٩٩٨م.

١٤- لبيد: ديوانه، دار صادر بيروت.

١٥- ابن منظور: لسان العرب دار المعارف، بمصر بدون.

١٦- ابن النديم: الفهرست، تحقيق رضا مهران، القاهرة ١١٥٠هـ.

ثانياً: المراجع

١- أحمد كشك (دكتور): دور التوابع فى الجملة، دار الهلال، بدون تاريخ.

٢- أحمد جمال العمرى (دكتور): الشعراء الحنفاء، ط١ دار المعارف بمصر، ١٩٧٧.

٣- بروكلمان (مستشرق): تاريخ الأدب العربى ط٥ دار المعارف بمصر ١٩٥٩.

٤- حسام محمد علم (دكتور):

١- الأدب فى صدر الإسلام، اتجاهاته وخصائصه، آيات للكمبيوتر سنة ٢٠٠٢م.

٢ - دراسات فى النثر العباسى، مطبعة الضوى،- ٢٠٠٣م.

٥- الزركلى (مؤرخ): الأعلام، دار صادر، بيروت.

٦- السيد تقى الدين (دكتـــور): مـــن أدب الجـــاهليين والإســـلاميين، دار المعارف بمصر، سنة ١٩٩٢م.

٧- شكرى فيصل (دكتور): تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، ط٢ دمشق سنة ١٩٦٤م.

٨- شوقى ضيف (دكتور):

١) العصر الإسلامى، ط٥ دار المعارف، بمصر سنة ١٩٦٣م.

٢) الفن ومذاهبة فى النثر العربى، ط١٣ دار المعارف، بمصر سنة ١٩٦٧م.

٩- صلاح عبد الصبور (شاعر): قراءة جديدة لشعرنا القديم، دار النجاح، بيروت.

١٠- عباس العقاد (أديب): أبو الأنبياء طبعة دار الكتاب العربى، بيـــروت، سنة ١٩٦٧م.

١١- عبد القادر القط (دكتور): فـــى الشـــعر الإســـلامي والأمـــوي، دار المعارف بمصر، سنة ١٩٩٥م.